شمس

أميرة عربية عاشقة

شمس

أميرة عربية عاشقة

روايـــة

محمد حسين بَزِّي

دار الأمير

اسم الكتــاب	:	شمس.. أميرة عربية عاشقة
اسم المؤلــف	:	محمد حسين بزّي
تنضيد وإخــراج	:	زهرين
تصميم الغلاف	:	أحمد حمود
الترقيم الدولي	:	ISBN 978-9953-494-98-2
الطبعة الأولـى	:	١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م
الناشــــــــر	:	دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

كافة الحقوق محفوظة ومُسجّلة قانونيًا

دار الأمير للثقافة والعلوم

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت - لبنان

تلفاكس: 07 29 45 1 961+ ص.ب: 5551/113 الحمرا - بيروت - لبنان

Website: www.daralameer.com E-mail: daralameer@daralameer.com

كلمة[1]..

لا أدري كيف أعاتب هذا الأمس الذي يباغتني بنور خافت..؟،

أو أنّ له أنْ يعاتبني..؟! فهناك كانت تغفو الأماني، ولا تستريح الخطوات.. قبل خمس وعشرين سنة كان ذلك.. نعم، ربع قرن قد مضى على كتابة هذه الرواية.

ربع قرن وأنا أحبسها بين المئات من أوراقي المكتوبة.. المنزوعة من عمري، والموزّعة على الشّعر والرواية والقصّة القصيرة وغيرها، وكلّها لم تُنشر حتى كتابة هذه السطور.

يومها، كنتُ مولعًا بالتاريخ.. كنت أقرأ.. وأقرأ، وأكتب..، وأكتب إلى أن يداهمني أمر، أو يغلبني التعب فأستريح مكرهًا..

(١) مقدمة كان لا بدّ منها لخصوصية هذه الرواية؛ على خلاف الروايات الأخرى.

لكن يبدو أنّ الاهتمامات تسرّبت من الرواية والقصّة والتاريخ إلى الفلسّفة وعالم الأفكار، لكنّ الشّعر بقي متربعًا على عرش حبري..

الفلسّفة الّتي حسبتها أكثر جدوى، أو قل أكثر إشباعًا لضالتي المضنية في النفس والبحث.. فهل كنت مخطئًا..؟ لا أدري .. أنا حقًّا لا أدري، الأيام كفيلة بالجواب.

ربع قرن مرّ وأنا أحبسها عن قصد، باستثناء بضعة أيام في بنت جبيل؛ كنتُ استعدت فيها «**شمس**» في قراءة ثانية لغاية كانت في نفسي يومها.. كلّ هذا لأني حسبتها لوقت قريب؛ محاولات تسلّق لجدران ملساء.. وربما تكون كذلك.. لكن شاء القدر أن يطّلع عليها صديق صدوق، ويصرّ على نشرها؛ قائلًا: «هذه الرواية بمثابة تجسير معرفي لقطيعة تاريخية امتدت مئات السنين مع «**العرب القحطانيين**» الذين بنوا حضارات وحضارات قبل الإسلام بمئات السنين في الجزيرة العربية وقلبها اليمن.. نعم وقلبها اليمن، ولهذا أرى أنّ نشرها خاصة هذه الأيام هو واجب أخلاقي يا صديقي».

فوقع كلامه في قلبي، لدرجة أنني شعرت باقتراف ذنب عظيم.. وممّا عجّل في نشرها الآن بالتحديد هو ذلك الاتصال

الهاتفي «قبل أيام» من الصديق الجميل الشاعر الجزائري الدكتور ياسين بن عبيد؛ وقد أصرّ على نشرها دون أن يقرأها، ربّما لعلم عنده، أو لمحبة هو دوحة السّرو فيها.

وها أنا أراني أستجيب مستغفرًا.. وكالغريب عنها؛ أعود إليها، دليلي قلبي لا أدبي.. ولكن ما إن سبرت أغوارها متجددًا بها؛ حتّى أطلّت الذكريات من شرفة العمر القصير.. وعادت أسماء كنتُ سمّيتها.. الأميرة «**شمس**».. الملك «**مالك**»، الحكيم «**الصّاحب**»، الأمير «**يشجب**»، والقائد «**جبر بن مزيد**» و«**ابن الأصبح**» والملك «**ترهاقا**»، والقرد الوفيّ «**نولان**»؛ الذي لا يقلّ فطنة ومروءة عن «**عمران الطائي**».

ولأنّ الّلغة العربية تطوّرت نطقًا وكتابة حتى استقرت على الحال التي عليه الآن.. ولأنّ التواريخ اختلفت في الحوادث والوقائع حسب مصادرها القلقة في سياق كهذا، والروايات تداخلت في حقيقة الأسماء والكُنى والألقاب، وفي اسم العاصمة، هل هو «**ذات البهاء**» أم «**هَجَرْ**» أم «**يَهَرْ**»..؟، والأخبار تضاربت في أسماء آلهة «**أوسان**» ومعابدها.. لكنّ الثابت أنّ «**بلو**»[١] كان كبير

---

(١) الموسوعة اليمنية، كريستيان روبان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ٤٢٨.

آلهتهم، وعندما أصبح معبد «**نعمان**» المعبد الرئيسي للأوسانيين خصص لعبادة الإله «**ود**» الذي أصبح كبير آلهتهم في عهد الملك «**الأوساني**» «**يصدق أيل شرح إيل**» ٤٥٠ ق.م.[1]، لكنّ الأكيد أيضًا أنّ «**العرب**» الأوائل عرفوا القيّم والشّجاعة والحكمة والنضج السّياسي والشّرائع الناظمة للمجمتع قبل ظهور الإسلام بمئات السنين.

وعرفت نساء «**العرب**» المدنيّة، و«**تهذيب الأخلاق**»، والوفاء، والفداء، والعشق كغيرهم من الأمم، هذا إن لم يكن قبل الكثير منهم.

وهنا، تحدثنا الكشفيات الأثرية أنّ عرب «**أوسان**» و«**قتبان**» كانوا يستخدمون التقويم الشمسي، في الوقت الذي عرفت فيه ممالك جنوب الجزيرة العربية فكرة التوحيد؛ حيث عُثر على نصّ يشير إلى «**إله السّموات والأرضيين**»، ونصّ آخر يشير إلى «**الرحمن**»، ٤٤٩ ق. م.[2].

كما عثر على نقش أوساني في «**وادي مرخة**» يذكر بعض الترتيبات الزراعية الّتي قام بها ملك أوساني اسمه «**ذكر إيل لحيان**

---

(١) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ج٢، ص٣٩١ - ٣٩٢، آوند دانش للطباعة والنشر. «بتصرّف».

(٢) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ج١، ص٣٩.

بن عمي كرب» الذي يحمل لقب «**مكرّب**». وهذا اللقب «الذي يعطى له معنى «**موحّد**»»، وعلى رأي آخر يعني «**ملك الملوك**». وتاريخ هذه الوثيقة يعود للقرن الثامن قبل الميلاد[(١)].

أمّا هذه الرواية فهي ليست تاريخًا أو مقتبسًا، بقدر ما هي صرخة لنبش ذلك التاريخ العظيم من تحت التراب، وإن كانت لا تخلو من ملامح تاريخية رسمتُها من خلال حفريات مشوّقة في بطون الكتب، ومتون بعض المخطوطات، ومن استنتاجات كنتُ خلصتُ إليها بعد أن فرّت من بين السطور.. وممّا توضّح لي في هذا السياق؛ أنّ مملكة «**أوسان**» في فجر تاريخ الجزيرة العربية كانت تتنافس مع مملكة سبأ في السيطرة على اليمن وجواره[(٢)]. وهناك دلائل ثابتة تشير إلى أنّ ذكرها ورد في التوراة، ولكن بدون تفاصيل أو تحديد أو تعيين، كما أنّ الاكتشافات الأثرية مؤخرًا دلّت على الكثير من حضارة ونُظم وعمران «**مملكة أوسان**»، سيما تلك التماثيل المرمرية لملوكها، والتي تُعد أوّل وأنفس تماثيل تصل إلينا عن ملوك العرب قبل الإسلام[(٣)].

---

(١) الموسوعة اليمنية، م.س، ص ٤٢٨.

(٢) الموسوعة اليمنية، م.س، ص ٤٢٨.

(٣) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ج٢، ص ٣٨٦. «بتصرّف».

و«**أوسان**» هو واحد من أبناء «**قحطان**» «**يقطان أو يقطن**» الثلاثة عشر كما ذكر أكثر من مرجع، واسمه مُدوَّن في سفر التكوين، في الإصحاح العاشر، باسم «**أوزال**».

ويفيد أكثر من مرجع تاريخي أنّ مملكة «**أوسان**» وُجدت قبل الإسلام بحوالي ثلاثة آلاف سنة، وعاشت طويلًا إلى ما بعد ظهور اليهودية. وأنّه كان لأوسان صلات تجارية واسعة مع شرق أفريقيا؛ حيث سيطر «**الأوسانيون**» فترة من الزمن على الساحل الشرقي لأفريقيا، الذي ظلّ يُعرف باسم «**الساحل الأوساني**» لفترة مديدة.

كما أنّ ميناء «**عدن**» كان من جملة الأماكن التابعة لهذه المملكة. وأيضًا كانت «**حضرموت**» تابعة لمملكة «**أوسان**» في فترة من الزمن، ثمّ عادت عليها العوادي، فابتلعتها الممالك القحطانية الأخرى من الأصل نفسه، والأرومة القحطانية نفسها.. فامّحى اسمها وأصبحت جزءًا من الممالك، «**قتبان**»، «**كهلان**»، و«**خولان**»، و«**قحران**» و«**سبأ**»، وغيرها. وزحفت الرمال على تاريخها، كما زحفت على تاريخ الممالك العربية الأخرى.

وهذه الرواية وإن كانت تتغنّى بمملكة عربية قحطانية

مُنقرضة، مجرد تغنّ، لكنّها لا تخلو من نظرة تأمّل كما أسلفت، ورسالة واضحة، جليّة على أوراقها، وفلسفة استفدت منها لإيقاظ مرحلة ما قبل الفلسفة، والتي اصطلح عليها بمرحلة «**النظر الإنساني**».

وهنا أعترف أنني غامرتُ، نعم غامرتُ وعدتُ لتسلّق تلك الجدران الملساء مستجيبًا لنصيحة الصديقين.. لكن هذه المرة، عدتُ أكثر إيمانًا بتلك الحضارة العربية القحطانية المُغيّبة عمدًا عن كِتاب التاريخ العربي؛ ولو بالإشارة: إنّ ثمة حضارة عريقة كانت للعرب قبل ظهور الإسلام وبزوغ النور المُحمّدي.. فهل عملية الإقصاء هذه من صنع المجهول..! أمْ أنّ هناك من يضيره الوعي التاريخي اللازم لدراسة مراحل تطوّر الذات الإنسانية العربية في بعديّها الفكري والحضاري؟.

ولماذا لا يتمّ انتزاع هذا التاريخ من باطن الأرض حتّى الآن؛ وذلك من خلال تشكيل ودعم وإثراء بعثات آثرية مدعومة من الحكومات العربية صاحبة الشأن والجغرافيا ؟.

وكي لا أطيل، فإنني عدتُ لصخب المكان الذي كنت أقرأ وأكتب فيه، ولو على نوره الخافت.. عدتُ لبيروت، «**بيروت**»

الّتي لم تزل تسكنني بمهارة المدن الّتي لا تستريح إلّا بصخب أعمارنا.

وعدتُ لبنت جبيل طفولة وصِبا وعِزّة، لكن «**بيروت**» قصة أخرى، فقد عرفت لها، وغنّيتُ معها جدرانًا ملساء أكثر من «**بنت جبيل**» - مسقط رأسي.

«**بنت جبيل**» و«**بيروت**» تشرقان كلما شارفتُ أن أكون..

فكّرت كثيرًا وأنا أكتب هذه المقدمة بعد ربع قرن، كيف أُنمّقها..؟ كيف أُكملها..؟ كيف أختمها..؟ لكن «**شمس**» كانت كتبتني في روايتها وانتهى الأمر..

محمد حسين بَزّي

بيروت ١/ ١٢/ ٢٠١٦ م

الفصل الأول

الأيّام الّتي لا تمرّ مفعمة بالكثير، لا تعدّ من العمر في شيء...

هكذا مرّ هذا اليوم، ملؤه الأعمال والأفكار، ملؤه (اللاهدوء)، حيث كانت تمارين الفروسيّة هي الشغل الشاغل لـ «**شمس**»، القصر الكبير يشهق بقفزاتها الملأى حيويّة وحياة، «**شمس**» الّتي تمزج الضّوء بالحياة، فتنثر ابتسامة تحمل صك العناق لكل ما حولها. بالرّغم من يقينها أنّ الأيّام في هذا القصر الوثير لا تشبه عداها من أيّامٍ تمهرها الآلهة بالبركة والمحبّة.

الفروسيّة، عشقها الجميل يدعمه بروتوكول مكانتها، فهي ابنة الملك، ولا بدّ لها أن تتقن ما تتقنه الأميرات، لا بدّ لها أن تضاهيهنّ وأن تبزغ بينهنّ شمسًا لا تتكرر.

ستّ درجاتٍ من الرّخام القاسي لم تمتلك القدرة على التغلّب على خطواتها المتشبّعة شبابًا وطاقة وفرحًا.

فراشةٌ هي؛ والضّوء وحده يقتفيها، عرّابتها السّماء، وصولجانها الغنج والدّلال، تتلقفها النّسائم وهي تختال حتّى آخر الممر الطويل الذي لو نطق لسبقته تنهيدته وأمنيته ألّا تغادره «**شمس**» أبدًا، تبادرها «**لولو**» خادمتها الشّقراء لتفتح لها باب البهو الكبير اللّاهث شوقًا لاستراحتها المعتادة في قلبه بعد التّمرينات المُنْهِكة لأعوامها السّبعة عشر...

ترى، كمْ من الأشياء في هذا المكان تكنّ الحسد لأريكة «**شمس**»؟ تلك المخمليّة المُبطنة بريش الإوز الّتي تنعم باحتضانها كلّ يوم، تلقي بجسدها في دلال ودعة، فتتراقص أصابعها بتلقائيّة نحو قلنسوتها الّتي تحتلها ثلاث ريشات رَبَد من ريش النّعام، سابحات في فراء النُّمور تتلقفها «**لولو**» وتودعها المشجب القريب، لتعود مهرولةً تحرّر قدميها الصّغيرتين من حذائها الجلديّ الطويل، تسرقُ نظرةً فأخرى إلى وجّه «**شمس**»؛ الذي لا يفلح في تجاهل الضّيق من الدّرع الزردي المشدود على خاصرتها.

تنهيدة طويلة تسرّح كلّ ما يعتري صدرها من ضيق، مصاحبة لإلقاء رأسها على مسند أريكتها الأرجواني، ولا أعذب من امتزاج الأرجوان بأبنوسيّة شعرها الذي يتماوج على كتفيها ويراود صدرها

عن بياضه، ليكشف عن ملائكيّة وجهها محتضنًا نبعي خمرٍ وبهاء، عينين باهرتين؛ تضمّان الحلم والغواية، وتجمعان النّار بالجنّة، ينسدل جفناها دون إرادة، نصف إغماضة كانت كفيلة بتعامد رموشها السّوداء الطويلة على عينها، كقضبان ظلٍّ لا يتولّد إلّا عن ضوئها الآسر.

تتنهّد مجدّدًا وتطرق: ليتني خُلِقتُ رجلًا..! إنّها الأمنية الّتي لا تبرحها أبدًا، فتدفعها لأن تبدوَ في مظهر رجوليٍّ يدعم هذه الأمنية الجاحدة... كان عليها أن تقسوَ على نفسها وفاءً لما تتمنى، أن ترهق هذا الجسد المنحوت كقطعة فنيّة بالمزيد من المبارزات والتدريبات القاسية، أن تتحدّى رشاقته وتضاهي بها رشاقة الخيل الأصيل وهي تؤدّي تدريبات الفروسيّة، أن تعاندَ دقته ورشاقته بالرّماح والتراشق بالسّهام والكرّ والفرّ على منوال الفرسان الأبطال.

لم يُثنِها شبابها النّاصع وحيويّتها الدّافقة عن مجاراة الفرسان في تدريباتهم المعقّدة، بل زادها طموحًا في بلوغ أوج الفروسيّة، بعد أن ارتدت أثوابها وانغمست في أفانينها، منسجمة معها كلّ الانسجام.

ينقطع خيط أفكارها بانحناءة «**لولو**» أمامها حاملة كوب

الليمون المُحلّى، تتناوله بكسل محبّب، ليتدفّق بين شفتيها الغضّتين سعيدًا بملامستهما، هل يمكن لهذا الشراب أن يعرف كم هو محظوظ لامتزاجه بريقها؟ هل يمكنه أن يدرك حجم الحظوة الّتي حباه الله بها؟؟ أم أنّه باقٍ على جموده وجهله؟؟؟

تثِبُ بخفّة، وظلها لولو تتبعها بابتسامة بهيّة نحو غرفتها؛ لتساعدها على خلع درعها الزّردية الرّبداء، وردائها الكتّاني، ليبدو قدّها الأهيف الممشوق، وتصرخ أنوثتها الطّاغية القادرة على الفتك بعقول أحكم الرِّجال، والماءُ وحده صاحب السّعادة الذي سيطوّق هذا البهاء.

فحوض الماء الممزوج بالعطر ينتظر جسدها بشغف، ليضمّه ويشمّه، ليتعطر بعبق أنوثتها المبهِرة، تشاركه هذه السّعادة يدا «**لولو**» اللتان تمرّان على جسد «**شمس**»، تدركانها بحنان وهدوء، فالقسوة قد تخدش شفافيّته، وتنال من رقته، وكذا أريكة الحمام لها من جسدها نصيب، فلا بدّ أن تتعطّر الدهون المصريّة، والخزامى العربيّ بهذا الجسد، لا بدّ أن تنال كلّ الأشياء هنا حظها من ألق «**شمس**» ودفئها، بدءًا بالقلنسوة وانتهاءً بالغلالة العنّابيّة الشّفافة والثّوب القطني الأسمانجوني النّاعم.

اكتملت إشراقتها، وغدت من جديد أنثى بكامل عبقها وألقها ورقتها، إنّها نفسها شمس الّتي تتحرّك في صدرها أمنية أن تكون رجلًا، هي نفسها الّتي تجالس وصيفاتها، تستمع إلى أحاديثهنّ بصبر وأناة، وبأدب جمّ. إنّها الأميرة الرقيقة، ابنة حاكم مملكة «**أوسان**» القحطانيّة العربيّة الغنيّة الممتدّة أطرافها في كلّ اتجاه، الأمير «**يشجب**» الذي لا يتقاطع مع «**شمس**» في شيء من صفاتها، بل على العكس تمامًا، فهو طاغيةٌ جبّارٌ من طغاة الأرض؛ بالرغم من أنّه لم يكن ملكًا، بل وصيًّا على مَلِكها الشّرعي «**مالك**» ـ ابن أخيه المتوفّى ـ منذ بضع سنوات.

«**مالك**» الذي كان عليه أن ينتظرَ عامَين آخرين حتّى يبلغ الحادية والعشرين ويكون أهلًا لاستلام الحُكم بما تقتضيه شرائع المملكة، لم يكن له مناص من احتمال غلظة عمّه وجبروته، فلن يتمكّن من اعتلاء عرش آبائه وأجداده حتّى يبلغَ السّن المفترضة... الطّمع، والتشبّث بالمُلك والحكم يجعل هذا أمرًا شبه مستحيل، فيما كان الملك الشّرعي الشّاب يقضي حياته في قلعة «**تاريم**» الكبيرة البعيدة عن العاصمة «**ذات البهاء**» الواقعة في منتصف المملكة كواسطة العقد.

وقد عُهد إلى وزير والده «**الصّاحب بن عبد مناة**» حكيم عصره

وأوانه، والموصوف بالذّكاء والحكمة واللّوذعيّة، أمر تنشئته وتربيته.

كان الوزير «**الصّاحب**» على درايةٍ ويقين بنوايا الأمير «**يشجب**» وبطموحه المنحرف، وعزمه على إعلان نفسه ملكًا، متى حانت له الفرصة المناسبة، هذه الفرصة الرّهيبة الّتي تعني القضاء على الملك الشّرعي بواحدة من مكائده الّتي لا يمكن توقُّعها.

لم تيأسْ محاولات «**يشجب**» من إقصاء الوزير «**الصّاحب**» والحدّ دون مصاحبته ابن أخيه الملك «**مالك**»، لكن الأخير كان يرفض طلبه ويردّه خائبًا ويصر على إبقائه في صحبته متذرّعًا بأنّه معلّمه ومرشده، فضلًا عن أنّ والده هو الذي عيّنه مشرفًا على تربيته وتهذيبه عندما كان على قيد الحياة، ولا يجوز لأحد أن ينقض أمر الملك الرّاحل.

لقد حوّل اليأس «**يشجب**» إلى مروّج شائعات تستهدفُ بالدّرجة الأولى إقصاء الوزير «**الصّاحب**»، والتّفريق بينه وبين «**مالك**» ظنًّا منه أنّ أكاذيبه وقصصه قادرة على إقناع أهل «**أوسان**» الذين باتوا يحفظون كلّ ألاعيبه عن ظهر قلب، مدركين إنّها محضُ مكائد لا تهدفُ إلّا إلى السّيطرة على «**أوسان**»، فقوبلت بالسّخرية

والاستهزاء، في حين انقسمت حاشية الأمير «**يشجب**» على نفسها : إذْ أيّدَ المقرّبون من الوصيّ مراميه وأهدافه. بينما أبغضه العارفون بنواياه، وتمنّوا لو أتيح لهم التخلص منه، أولئك الذين كان من بينهم العائلة المالكة والفرسان الذين كثيرًا ما حقدوا عليه وتمنّوا لو استيقظوا ذات صباح على خبر موته..

لكنّه، بالرّغم من ذلك لم يوفّر جهدًا أبدًا، في محاولة الإطاحة بالملك الشّاب، فاستنفر كلّ حيله ومكائده، وكثيرًا ما دعاه إلى الإقامة معه في العاصمة «**ذات البهاء**» واعدًا إيّاه بأنّ يقلده المُلك قبل بلوغه الحادية والعشرين، لكنّ الوزير كان واعيًا جدًّا، وكان في كلّ مرّة ينبّه الملك إلى خبث نوايا عمّه، ويشجّعه على الرّفض محذّرًا إيّاه من الوقوع في مكائده الخبيثة، ونواياه الشّريرة في التخلّص منه بالسُّم أو بالاغتيال.

ولم يكن الملكُ الشاب أقلّ وعيًا، إذ كان ردّه الدّائم: «اطمئن فلن ينالَ منّي أبدًا، سأخيّب أمانيه، وأحول بينه وبين مراميه، فلن ينال أكثر من أوهامه، ببقائي بعيدًا عن ذات البهاء في صحبتك الرضيّة بين هذه الرّمال المتحرّكة، ريثما نُعدّ معًا جنودنا وعتادنا، حينها فقط سنستجيب لدعوته، ونكون معه سيفًا لسيف..» أمّا «**شمس**» فقد تملّكها الحزن، وانتابها الألم حين

علمت بنوايا والدها تجاه ابن عمّها الملك المرتقب، فوقعت بين نارين، خوفها على ابن عمّها الذي انقطعت حبال المودّة بينها وبينه من جهة، وخشيتها على مصير والدها جرّاء ما يحوكه من مكائد وشراك لا مبرر لها إلّا الطّمع والأنانيّة المفرطة.

أثناء ذلك كان سعي «**يشجب**» يزداد عصفًا وإصرارًا، فأتمّ اتصاله بالأشقياء من خلال وزيره «**ابن مرشد**» الذي حدّد معه موعدًا ليحضرَ إلى قصر الضّيافة برفقة زعيم قُطّاع الطّرق في المملكة «**هجرس بن عارم**».

يأتي المساءُ ليكونَ وقتًا خصبًا يتحرّكُ في جنباته «**يشجب**» دون أن يراه أحدٌ أو يشعر بما يحوك مغزل حقده من مؤامرات، فيغادرُ قصره من الباب الخلفي برفقة حارسين مخلصين بعد أن تنكّر في هيأة تاجرٍ وامتطى من جياده ما لم يره أحدٌ على صهوته قبلًا. أمام باب قصر الضيافة الخلفي كان «**ابن مرشد**» منتظرًا بصحبة قاطع الطريق «**ابن عارم**» حيثُ أسرع إلى مساعدة الأمير «**يشجب**» على الترجّل عن ظهر جواده الأسود، ليتقدّمَهم إلى داخل القصر بخطىً رتيبةً تتصنّع الوقار وتتلبّسُ الهيبة، حتّى يصل إلى إحدى الأرائك فيحتلّها جسده الثّقيل، متقلدًا صمصامة ذات غمد مذهب تتدلّى إلى جانبه، ما لبث أن وضعها في جفنها، ينتصب إلى جواره

«**ابن مرشد**» وقاطع الطرق «**هجرس**» يقابله بعينيه الحادّتين اللتين تنمّان عن خبثه ولؤمه. يلتفتُ الأمير ببطءٍ إلى وزيره سائلًا: «أهذا «**هجرس ابن عارم**»؟. الوزير: نعم يا مولاي، فأحنى زعيم اللّصوص صدره، وحيّا الأمير: أبيت اللّعن أيّها الأمير.

ابتسم الأمير «**يشجب**» في وجهه واستدار بعينيه الماكرتين نحو وزيره قائلًا: «هل استوعب «**ابن عارم**» الخطّة المفترضة».

الوزير: «أجل يا مولاي».

تتحوّل عينا الأمير جهة «**هجرس**»: «هل عرفت الموقع الذي ستكمن فيه؟ وكم عدد رجالك؟»

هجرس بابتسامةٍ صفراء، رافعًا حاجبه الأيسر لتزداد نظرته حدّةً ومكرًا: «إنّه في منعطف اللّوى في «**وادي العقاب**»، وقد أعددت لهذا الكمين خمسين رجلًا، بينهم عشرون فارسًا من حملة السّيوف والرّماح، وثلاثون من الرّماة بالسّهام، كلهم حاذقون ماهرون، يدركون تمامًا «ما انتدبوا إليه».

«**يشجب**» رابتًا على لحيته، يهزّ رأسه في إشارةٍ إلى رضاه عمّا سمع: «حسنًا»، يصمت برهةً ليردفَ «تذكّروا: بعد أداء مهمتكم يجب أن تغادروا البلاد ولا تعودوا إليها أبدًا».

فقال «**هجرس**»: «أبيت اللّعن» أيّها الأمير، ماذا لو أنّ الملك «**مالك**» لم يحضرْ، فهل نعود أدراجنا؟».

أطرق «**يشجب**» وراح يلعب بمقبض صمصامه مفكِّرًا، ثمّ قال: «لو حدث هذا فلا تغادروا البلاد لأننا قد نحتاجكم في مهمّة أخرى». وغمز بعينه إلى «**ابن مرشد**»، فاستدعى أحد الحراس، ليدخل وبين يديه خرجٌ ثقيل.

«نصف ما في هذا الخرج ذهب، ونصفه فضّة. هذا هو الأجر.. احمل المال من هنا وانصرف». وجّه الأمير كلامه إلى «**هجرس**» الذي انحنى داعيًا للأمير بطول العمر، وتناول الخرج الثّقيل بيديه وانطلق خارجًا من البهو، وما لبث أن اختفى بين طيّات الظّلام حتّى لكأنّ الليل قد ابتلعه.

وبعد ساعة من الحديث والتّداول بما سيقع.. أو فيما سيكون، غادر «**يشجب**» قصر الضّيافة بصحبة ابن مرشد وحارسيه عائدين إلى قصره.

كان الأمير «**يشجب**» قبل ثلاثة أسابيع قد أوفد وزيره الثاني «**يعمل بن مزاحم**»، في صحبة وفد كبير إلى قلعة «**تاريم**» محملًا إياه رسالة للملك «**مالك**» وأحمالًا من الذّهب والفضّة والكثير من

الخيول، وغيرها من الهدايا، داعيًا إياه إلى العودة إلى عاصمة «**ملكه**»، مدّعيًا سوء حالته بعد أن أخذ منه المرض مأخذًا، وثقلت خطواته بفعل تقدّمه في السّن، وهو إنما يدعوه للحضور بعد أن نصحه حكماؤه بالاعتزال طلبًا للرّاحة.

وأضاف في رسالته قائلًا: «ألتمس من جلالتك العودة إلى عرشك وعرش أبيك من قبل، لتقوم بمهام المُلك وفقًا لوصية والدك المعظم، وما تقتضيه الشّرائع، حتّى لو لم تكن جلالتك بلغت السّن الملائمة لاعتلاء العرش، فالبلاد في حاجة ماسّة إلى ملِكها، والرعيّة كلّها توجّه إلى جلالتك توسّلاتها راجية عودتك».

وختم رسالته قائلًا: و«سنعدّ الترتيبات والمواكب لاستقبال جلالتك بما يليق بسيد العرش والبلاد، وقد أعددنا كلّ ما ينبغي من تنظيمات ومراسيم لحفل اعتلائك العرش، كلّنا لعودتك انتظار».

لكنّ الوزير «**الصّاحب**» أفسد على الوصيّ مآربه وخططه بعد أن تلقّى الملك رسالته؛ فعيونه وجواسيسه المنتشرون في البلاد أخبروه بما يعلمونه من أمر الكمين المنصوب والمكيدة المدبّرة في «**وادي العقاب**».

لذلك ردّ على الوصيّ رسالة كتبها عن لسان الملك جاء فيها :

«إنّ الملك الشّرعي «**مالك بن عبد شمس**»، يهديك السّلام ويرجو لك المزيد من الرّاحة والصّحة والعافية والحكمة والتروّي، ويخبرُكَ آسفًا أنّه لن يعود إلى عاصمة ملكه إلّا بعد أن ينفّذ وصية والده المعظّم على الوجه الأكمل، تلك الّتي تنصُّ على أنّه لا يجوز لولي العهد أن يعتلي العرش إلّا بعد أن يبلغ سنّ الحادية والعشرين من عمره ـ وهي السّن المفترضة في شرعنا ـ وإلى أن يحين ذلك الموعد فإنّ جلالته يرجو لك حكمًا سعيدًا، وعمرًا مديدًا، وعدلًا بيّنًا، تتحدث عنه الرعيّة ويشيد به سكان البريّة».

ثمّ ختمها بقوله: «إن جلالة الملك يطلب إليك إقامة حراسة مشدّدة في «**وادي العقاب**» لتأمين مسيرات القوافل التجاريّة ذهابًا وإيابًا».

استقبل «**الوصيّ**» رسله العائدين بالخيبة والفشل بغضب شديد، ازدادت حممه بعد أن سمع ما جاء في الرّسالة الّتي حملها إليه وزيره الثاني «**يعمل بن مزاحم**»، ارتجفت يداه واضطربت شفتاه، فعضّ على إصبعه من شدّة الغيظ حتّى أدماه، لكنّه لحاجة في نفسه، تمكّن من أن يهدّئ من روعه ويتظاهر بالهدوء، فقال

متجمّلًا بالصّبر متعزّيًا بالسّلوان: سأتركه وما يشاء، واثقًا أنّه عائدٌ لا محالة، في الوقت الذي يناسبه.

فإنّ للشّباب طبعهم المتوثّب نحو النزّق والانفلات، ولنزواته حوافز قاهرة، وهو ما زال في ربيع العمر، ومن حقّه أن يلهو ما طاب له اللهو.

ثمّ تمتم هامسًا يقول لنفسه: «هذا من تدبير «**الصّاحب بن عبد مناة**»، الويل له إذا وقع بين يدي»..

وعندئذ تحلّبت شفتاه من شدّة القهر، فمسَّها بطرف كمّه مخالفًا بذلك آداب السّلوك واللّياقة؛ مناقضًا ما عليه قاعة العرش من أبّهة وعظمة وجلال؛ حيث تبدو وقد نُصبت في صدرها منصّة كبيرة كالمسرح تمتد بين الحائطين، عرضها عشرة أذرع وارتفاعها ذراعان، يصعد إليها بواسطة ست درجات من صفائح الرّخام النّاصع البياض، عرض كلّ درجة ذراع ونصف الذراع، فرشت مع منصة العرش بالسجاد الأرجوانيّ.

أمّا العرش فمتقن الصّنع من الذّهب الخالص المرصّع بالأحجار الكريمة، يقوم على جانبيه تمثالان لأسدين متحفّزين للوثوب من النّحاس المصقول، وعلى الجانبين ستائر المخمل المشغول بالقصب بلونها العنّبي الفاخر، وقد وضعت مقاعد وثيرة

من خشب الدّردار مبطنة مقاعدها بريش الإوز من تحت جلود الثّيران المشغولة الناعمة، وهي مخصّصة للوزراء والكُتّاب وكبار الحجّاب.

أمّا القاعة فقد فرشت بالبُسط الصّفراء الفاخرة، رُصّت على جانبها الأيمن مقاعد الأسرة المالكة، وعلى جانبها الأيسر مقاعد قادة الفرسان والمشاة وحملة الرّماح والأقواس، ولم يكن الوصيّ يقيم في القصر الملكي لأنّ في ذلك مخالفة لشريعة المملكة على اعتبار أنّ القصر الملكي مخصّص لإقامة الملك وولي العهد ما دام صغيرًا، وأسرة الملك كزوجته الملكة وبناته وأبنائه الصّغار.

لهذا كان قصر الوصيّ الذي يقيم فيه مع أسرته واقعًا في شرقي المدينة، وكان من المفترض وفقًا لشريعة «**أوسان**» ألّا يجلس الوصيّ على العرش أثناء وجوده في القصر الملكي، بل ينصب له مقعد من خشب الورد منخفض عن كرسي العرش.

ولكن الوصيّ خالف شرعة المملكة وتقاليدها المعهودة عندما اتخذ العرش الملكي مقامًا له.

وقد عدّت الحاشية والوزراء والعائلة المالكة تصرفه تجاوزًا

وتجرّؤًا على حق صاحب العرش الغائب، لكنّ أحدًا لم يجسر على مراجعته في هذا الشأن.

وكان القصر الملكي في موقع وسط من «**ذات البهاء**»، محاطًا بأروقة معمدة، من حوله حديقة كبيرة، في الجهة الجنوبيّة منها مراكز للحرس، وتمتد من القصر الملكي سبعة شوارع فسيحة معبّدة بالبلاط، كلّ شارع منها يفضي إلى أحد أبواب «**ذات البهاء**» السّبعة.

ويزيد طول «**ذات البهاء**» على ثلاثة فراسخ وكذلك عرضها.

أمّا الوصيّ ذو السّتين عامًا فقد كان أشهب الشّعر، واسع العينين ربعة بين الرّجال، ما زال يحتفظ بقوّته الجسديّة، ونشاطه، وذكائه وطموحه الخطير.

وفيما عدا هذه الشّكليات والمظاهر المحيطة بالوصيّ، فقد كان المقرّبون إليه يشيدون به عندما كان قائدًا للفرسان في عهد أخيه الملك الرّاحل، ويتحدّثون عن بطولاته كضارب سيف وملاعب أسنة، ورام بالقوس والنشّاب.

لكنّ هذه المفاخر أصبحت مقرونةً بـ«**كان**»، وصارت طللًا يتغنّى بما بقي منه، خصوصًا بعد أن فقد الوصيّ موهبة الحكمة

والنّظر الصّائب في عظائم الأمور، وبعد استبداد الطّمع والأنانيّة بنفسه، ولم يعد يطمح إلّا إلى الاستيلاء على الحكم بالحيلة والخداع، وحرمان ابن أخيه الملك الشّرعي من حقوقه الملكيّة المشروعة.

لم يعد يشغله سوى التفنّن في السّبل الملتوية للحصول على المال، فعمد إلى فرض الضّرائب على رعيّته بين الفينة والأخرى، ومصادرة أموال أنصار الملك الراحل، ومؤيّدي الملك الحالي القاصر، كلما أترعت خزائنه بالأموال فرغت خزائن صغار التّجار والباعة والمزارعين منها. كان ذلك كله وأكثر كفيلًا بإسقاط ميزان العدل، لتحلّ محلّه سيوف الشُّرطة والجلاوزة وسياطهم. وتسود وسائل الظّلم والطّغيان محل العدل والحكمة.

كانت «**أوسان**» تطلُّ على البحر الأحمر من الجهة الشرقيّة وبحر «**العرب**» والمحيط الهندي من الجهة الجنوبيّة، حدودها الشماليّة هي مملكتا «**مأرب**» و«**عاد**». وفي الشّرق منها «**عُمان**»، أمّا الجنوب فيحتضنه المحيط الهندي، والبحر الأحمر إلى الغرب، يفصل بينها وبين «**مصر**» وبلاد «**النوبة**» و«**الحبشة**».

والأخيرة هي العدو اللّدود لمملكة «**أوسان**»، بل لجميع دول

المنطقة بما في ذلك «**مصر**» و«**بلاد النوبة**» و«**مأرب**» في الجزيرة القحطانيّة العربيّة!

تتكئ «**أوسان**» في معيشتها على خمسة موارد: تجارة البخور، وما يرد من مناجم الذّهب والفضّة والنّحاس، وصناعة الغزل والأقمشة وصناعة الأسلحة، وتجارة القوافل البريّة والبحريّة، وعلى الرّغم من ازدهار «**أوسان**» وغناها بكلّ هذه الموارد في عهد الملك الرّاحل، إلّا أنّ هذا الازدهار سرعان ما حلّ محلّه الفساد الذي قضى على كلّ شيء؛ فالرعيّة تشكو من الفقر والحرمان لأنّ الوصيّ وحاشيته يسيطرون على كلّ مواردهم، حتّى على الأسماك والمرجان واللؤلؤ، ولا يتركون للرعيّة إلّا القليل أو ما يتبلغ به. وبالرّغم من وفرة المحاصيل الزراعيّة، فإن الضّرائب تنتهب عائداتها انتهابًا، لذلك راح عدد الفقراء يتزايد باستمرار، فانتشر الفقر المدقع بين أبناء الرعيّة «**الكادحة**» الّتي استمدّت عائداتها من الكسب اليومي كالأعمال الزراعيّة والحرفيّة، وأعمال المناجم ومصائد الأسماك، وتدنّى المستوى المعيشي للكثير إلى أدنى درجات الحاجة والعوز، وازداد عدد المتسوّلين في البلاد وكذلك عدد المهاجرين والنّاقمين، ولم يكن ثمّة سبيل لإصلاح الأمور إلّا بإصلاح جهاز الحكم الفاسد

المتسلّط على البلاد والعباد، الّذي كان يمثله ويرأسه الوصيّ على العرش، ولم يكن ذلك سهلًا في الوقت الحاضر على الأقل، لأن الوصيّ ما زال يحتفظ بجيش المشاة والرّماة وهؤلاء يشكّلون أكثريّة الجيش، أمّا الفرسان فقد هرب معظمهم بأسلحتهم وخيولهم والتحقوا بالملك الشّرعي «**مالك بن عبد شمس**»، والبعض منهم غادر البلاد ليلتحقَ بفيالق الفرسان من أمثالهم في الممالك العربيّة المجاورة.

هكذا تعاظمت النّقمة العارمة على الوصيّ ونظامه الفاسد، مع أنّ السّلاح كان موفورًا وبكثرة، إلّا أنّ بيعه للعامّة كان محظورًا وخاضعًا لرقابة مشدّدة، وقد فرض الوصيّ على صُنَّاع الأسلحة تقديم لوائح شهريّة تفيد بأنواع الأسلحة المُباعة وأسماء المشترين. وغاب عن علم الوصيّ أن معظم مبتاعي السِّلاح اختصّوا بالطّبقة العليا المقرّبة من الوصيّ وحاشيته. فيما راح عامّة الناس يصنعون سيوفهم ورماحهم وأسنّتهم وسهامهم في بيوتهم بأنفسهم، تحت جنح الظَّلام.

وقد يتساءل المرء أين كان الكهنة والحكماء وسدنة الهياكل من كلّ ما يجري، ومع من؟

لقد مالَ أولئك بدايةً إلى تأييد الوصيّ، ومعظمهم من كبار

السّن المعمّرين، فلمّا ماتوا انضمّ الكهنة الشّبان الذين حلّوا محلّهم إلى الملك سرًّا. تلك الظّروف كانت أرضًا خصبةً لانتشار حرفة الوشاية والكذب والنّميمة في أوساط الوصوليّين الصّائدين في المياه العكرة، ومعظم هؤلاء كانوا من الطّبقة المتوسّطة الّتي ترعرعت في مستنقع الفساد، وبين كبار التّجار المقرّبين لحاكم البلاد.

وفي المقابل انتشرت أعمال الاغتيالات انتقامًا من الوشاة والنّمامين والوصوليّين وأمثالهم؛ فتردّى الوضع الأمني للبلاد، فيما اتّجهت أنظار الرعيّة نحو قلعة «**تاريم**» حيث يقيم ملكهم الشّرعي مع ثلّة من القادة والفرسان والجنود الأوفياء.

هناك عقدوا آمالهم وهم يتطلّعون إلى يوم الانتفاضة ويحلمون بيوم يزحف فيه الملك «**مالك**» على «**ذات البهاء**» لاسترداد ملكه واستخلاص عرشه من الغاصبين فمتى تتحقّق هذه الأمنية؟

ومتى تنطلق الشّرارة الأولى؟

ومتى يأتي يوم الخلاص؟

ومتى يعود السّلام إلى «**أوسان**»؟

فالرعيّة المظلومة تئنّ من ثقل القيود، والسّجناء والمعتقلون تشرئبّ أعناقهم إلى يوم الحريّة الموعود!

والأرض تشكو من ثقل الفساد ووطئه فوق أديمها.

والوجوه تتصبّب عرقًا من شدّة التّعب والإرهاق!

والمسخّرون يرسخون بقيودهم تحت السّياط الّتي تلهب أجسادهم.

فمتى؟ ومتى؟ ومتى؟

أسئلة ستحمل لها الأيّام القادمة جوابًا.

الفصل الثاني

كانت قلعة «**تاريم**» في مملكة «**أوسان**» من أكبر القلاع في شبه الجزيرة العربيّة. تبدو من بعيد شامخة كالقمم وقاعدتها كقاعدة الهرم، تحيط بها أربعة أبراج تضفي على ما حولها هيبة وشرفًا ورهبة، وتشيع في نفوس القائمين عليها السّكينة والرّضى والاطمئنان.

بلغت مساحة القلعة حوالي مئة وخمسين ألف ذراع بسبب ما كان يقوم به ملوك «**أوسان**» «**العرب**» القحطانيّين من حدب ورعاية وتوسيع، وكانت بالأصل مكوّنة من برج واحد، ثمّ أضيف إليها في عهود مختلفة ثلاثة أبراج أخرى، وشيّدت فيها غرف عديدة وقاعات، بالإضافة إلى أربعة أدراج كلّ درج يرتفع إلى مستوى أبراجها.

وقد أقام في القلعة مع الملك فرسان الحدود، وبعض المشاة

والكثير من الرّماة، ولم تكن القلعة مزوّدة بشرفات لأنّها قلعة حربيّة في الأصل، بل استُعيض عنها بكوّات ضيّقة نسبيًّا تتّسع للنّظر والمراقبة ورمي السّهام.

ويدور حول القلعة خندق مبنيّ بالحجارة الكبيرة، وأرضيته مبلّطة، عرضه خمسة عشر ذراعًا؛ وهو عرض يستحيل لخيول الفرسان أن تثب من فوقه لاقتحام القلعة، ناهيك عن بابها الكبير المصفّح بالحديد، وفي وسطه باب صغير لمرور الحرس. ويعلو الخندق جسر كبير مصنوع من خشب الدّرداء الصّلب، مثبّت بحبال قويّة ليسهل قطعها عند الضّرورة، فيهوي عندئذ الجسر في أعماق الخندق الذي يتغلغل في خمسة عشر ذراعًا تحت الأرض، وأمام الجسر ميدان فسيح للتّدريبات العسكريّة.

الغريب في هذه القلعة الّتي تختلف عن سائر قلاع الدّنيا أنّها مقامة حول واحة مستديرة، كانت تُعرف من قبل باسم «**واحة تاريم**» تتفجّر منها ثلاثة ينابيع محاطة بأشجار النّخيل، وتسيل مياهها في قناة من الصّفيح، تمرّ من تحت الأسوار لتصبّ في الخندق. والسرُّ في بناء القلعة حول الواحة هو الاحتفاظ بمياه الينابيع في داخلها، فيما لو تعرّضت لهجوم قوي واضطرّت إلى إغلاق بابها الكبير في وجه الأعداء.

وتمتدّ خلف القلعة مباشرة أرض واسعة مزروعة بالنّخيل والتّين والزّيتون، والخضار الموسميّة الضروريّة للحياة، ومضارب وخيام كثيرة، وفي هذه القلعة الضّخمة كان يقيم ملك «**أوسان**» الذي لم يتوّج بعد، لأنّه ما زال دون السّن الّتي تجيز له اعتلاء عرش آبائه وأجداده.

هناك عاش الملك «**مالك**» حياة عسكريّة لا تخلو من تقشّف وإرهاق لخشونة التّدريبات العسكريّة يوميًّا، من الصّباح إلى وقت الظّهيرة. وكان الفرسان يتدرّبون يوميًّا وهم فوق صهوات خيولهم الأصيلة، وكذلك المشاة والرّماة وفقًا لإرشادات وتعاليم قادة الفرسان والمشاة والرّماة الذين قضوا حياتهم يمارسون الأعمال الحربيّة كقادة منذ عهد الملك الرّاحل «**عبد شمس**»، والد «**مالك**» وريثه على العرش.

وكانوا قد ورثوا كفرسان في أوّل نشأتهم حرفة الفروسيّة والأعمال العسكريّة المختلفة عن آبائهم وأجدادهم، لذلك استقلّت بهم «**المؤسسة العسكريّة**»، ولم تخضع إلّا للملك بصفته القائد الأعلى لجميع القوّات المحاربة.

ولطالما ردّد الوزير الحكيم «**الصّاحب**» على مسامع الفرسان والجنود قوله: «إنّ «**العرب**» لن يغلبهم غالب ما داموا يتقلّدون

سيوفهم ويحملون رماحهم، ويتدرّبون باستمرار على فنون الحرب تليدها وطريفها».

لتتألّق عيناه بعد ذلك ببريق مشع إذ يقول: «وما زالت جبهتهم قائمة كالبنيان، ونظامها ثابت خاضع للتّطور والتّجديد، وما زالت الجراية بالفنون مستمرّة، ورايات الفرسان والجنود جاهزة والأعلام مرفوعة دائمًا».

ثمّ يضيف قائلًا: «شرط أن تكون أسلحة البلاد مصنوعة بأيدي أهلها، وليست مستوردة».

أمّا الحكيم «**الصّاحب**» فقد اشتهر عنه ولعه بالخيول المطهّمة، لذلك راح يوصي دائمًا بوجوب الاحتفاظ بفحول الخيل وأنسابها مدوّنة فوق الرّقوق والأراقيم.

فإذا وقف بين الفرسان حثّهم قائلًا: «أحبّوا خيولكم وأحسنوا رعايتها وتدريبها وتهذيبها، ولا ترهقوها بالجهد المتواصل اصطبروا لعيلها لأنّ العزّ فيها والجمال».

ثم يضيف قائلًا: «ولا تحبسوها في الزرائب المغلقة، بل دعوها تشعر بالحريّة وتتنفّس الهواء النّقي، وأرسلوها إلى المراعي كي تنال نصيبها من الرّبيع وأجوائه وجمالاته؛ فالخيول تشعر

بالرّبيع أكثر ممّا يشعر البشر، وتحسّ بالجمال وتشمّ عبير الزّهور أيضًا.

وإذا برزتم بها لملاقاة الأعادي، أطلِقوا لها العنان ولا تشدّوا رؤوسها إلى الخلف فلانطلاقتها هيبة رائعة، ولاندفاعها المطلق مخافة مفزعة، ولوثبها وقع الصّاعقة في قلوب الأعداء، فما خلقت إلّا للكر والاقتحام، والعرب بخير ما داموا يركبون الخيول ويتسابقون بها إلى ميادين القتال، حيث تخفق الأعلام ويتراءى لعيونهم قصب السّبق والمجد والفوز والانتصار.

وفي ذلك اليوم أنهى الفرسان والمشاة تدريباتهم الشاقّة فغادروا إلى معاقلهم لإراحة خيولهم وتزويدها بالعلف والمياه النقيّة بعد تجفيف أجسادها وتنظيفها من العرق والغبار. ثمّ توجّهوا جميعًا إلى تناول الطّعام في سرادقاتهم.

فيما انبرى الملك «**مالك**» يتناول طعامه كالعادة مع قادة الفرسان والجنود في سرادق قائم على اثني عشر عمودًا، فتناول القليل من الطّعام، ثمّ راح يتمشّى بين أشجار النّخيل مفكّرًا متأمّلًا.

كان الحرّ شديدًا، ولكن ظلال الأشجار وتموّجات النّسيم خفّفت من حمّارة القيظ ووقد الهجير.

وأخيرًا مال إلى مقعد خشبي تظلّله شجرة زيتون خضراء باسقة

تداعب أوراقها الصّغيرة الشّبيهة بأوراق اللّوز، الرّياح والنّسائم العليلة.

وكان لا يزال بملابس التّدريب الصباحيّة، متقلّدًا سيفه الطويل، وحمائله من الجلد المرصّع بالأحجار الكريمة، مرتديًا ثوبًا من الكتّان النّاعم، باللّون الإسمانجونيّ، وهو صباغ يستخرجه رجال الصّناعة من الكنعانيّين الذين يعيشون في مملكة «**أوسان**» من أصداف البحر الأحمر.

وقد انسدل شعره الأسود المرجل فوق كتفيه، فمدّ ساقيه الطويلين واسترخى، دون أن يشعر بأي ضيق من درع الزّرد الذي يرتديه في التّدريبات.

فجأة تنبّه إلى تغريد شجيّ، فالتفت إلى شجرة التّين المقابلة متتبِّعًا الصّوت، وإذ ببلبل على أحد أغصانها، يشدو بأعذب الألحان.. صوته قيثارة تسكب السّحر والجمال. وبعد قليل سكت البلبل فتابعت الشّدو الجميل من بعده ورقاء هتوف، شرعت تسجع من فوق شجرة توت غير بعيدة وكان هتافها رنّة حزن ودعوة لأليفها البعيد.

حدّق الملك، ليراها بوضوح بين أغصان التّوتة المتهدّلة

وأوراقها الخضر المحزّزة الطويلة، وهي تمدّ عنقها المطوّق بطوق أخضر طبيعي يخالف لون قوادمها وخوافيها العسليّة اللّون.

وراح يستعرض بعض الذّكريات، وأذناه مصغيتان إلى سجع المطوقة، ومنها ذكرى أمّه الّتي توفيت بعد وفاة والده بمدّة قصيرة. وأخته «**زهرة العُلى**» الّتي تزوّجت ملك «**مأرب**»، وذكرى رفيقة طفولته ـ ابنة عمّه «**شمس**» المقيمة في «**ذات البهاء**»، هيفاء كعود الزّان مكتملة الأنوثة أصغر منه سنًّا بعامين اثنين.

فناجى نفسه قائلًا: «ترى إمّا زالت تتذكّرني ـ كما أتذكّرها ـ أم انقلبت عليّ تحيّزًا لوالدها الوصيّ؟».

وكانت أخبارها منقطعة عنه منذ غادر «**ذات البهاء**» نزولًا عند نصيحة وزير والده الحكيم «**الصّاحب بن عبد مناة**».

وراودته الذّكرى، كيف كان عمّه يحاول أن يكسر عزّة نفسه ويحطّم إرادته ويذلّ كرامته أمام الحاشية وقادة الفرسان في القصر الملكي، وهو يعلم تمامًا أنّه أسلوب يلجأ إليه الغاصبون عادة عندما يعزمون على سلب حقوق الآخرين.

ثمّ هوت عليه صور الذّاكرة في أيّام الطّفولة، عندما كان في الثالثة عشرة من عمره، وكان ينافس «**شمس**» في ركوب الخيل،

ويسابقها على صهواتها بين المروج الخضر في أرياف «**ذات البهاء**».

وابتسم وهو يتذكّر غضبها كلَّما سبقها، وصوتها الطّفولي يهتف به: «لا تسبقني ألم نخرج معًا للتنزّه؟».

وإذا تراخى وشدَّ عنان جواده لكي تسبقه تهلّلت فرحًا وفخرًا وصاحت: «انظر يا بن عمّ كيف سبقتك!».

ثم يسيران جنبًا إلى جنب، يفوح منها على صغرها عبير الخزامى الطيّب، فهمس قائلًا: «ما أجمل أيّام الطّفولة!».

ورفع رأسه نحو الشّمس المشرقة هاتفًا: «أيتها المعبودة، يا ذات الجلال والأضواء البهيّة انزعي من قلبها حبة الكره واملئيه عاطفة وحبًّا!».

وتسلّل إلى مسمعيه وقع قدمين تخطوان خطوات خفيفة هادئة، كما التقط أنفه رائحة البخور السّاطعة، وكان القادم الحكيم «**الصّاحب**»، فالتفت إليه باسمًا ومرحّبًا: «أهلًا بك يا أبتي!».

فردّ عليه الحكيم «**الصّاحب**» بصوته الوقور: «عِمْ صباحًا أيّها الملك النبيل، أبيت اللّعن!».

وكان شعر الحكيم سبطًا دجوجيًّا خطّه الشّيب، وكذلك لحيته

العريضة المخفّفة، ويحمل في يده مجمرة البخور وهي من الذّهب الخالص تلقّاها هديّة في الماضي من الملك «**عبد شمس**» والد الملك الجالس أمامه.

وتقدّم الحكيم «**الصّاحب**» وأمرّ المجمرة فوق رأس الملك ومن حوله، فعبقت رائحة البخور وهو خليط من البخور والمر واللّبان وبعض الأفاوية، فعبقت رائحته في البستان وعطّرت المكان بذلك العطر المقدّس.

فوسَّع له الملك مكانًا إلى جانبه ليجلس، بعدما همَّ بالوقوف إجلالًا واحترامًا للحكيم الذي يجلّه ويحترمه كوالده.

فهتف الحكيم: «أستغفر السّماء، أنا خادمك يا مولاي، وربيب نعمتك ونعمة والدك المعظّم فلتكن الشّمس رفيقة له في عالم الخلود، ولتكن الزُّهرة رفيقتك في عالم الوجود!».

ثمّ استدرك معاتبًا الملك برقّة وإشفاق: «لِمَ تستوحد هكذا وتنفرد بنفسك يا مولاي؟».

فقال الملك «**مالك**»: «كنت أصغي لتغريد بلبل مشتاق، وسجع مطوقة تدعو أليفها».

وقبل أن ينهي جملته عاد البلبل إلى التغريد، وصدح هزار

قريب فأشجيا، وظهر البلبل للعيان بجناحيه الآبنوسيين وذنبه الأسود الطويل الهزّاز، وراح يعزف على أوتار قلبه الخفّاق ليُطلق العزف الشّجي رنّانًا من منقاره الصّغير الأصفر الفاقع.

فقال الحكيم: «لقد برز ليستأنس بجلالتك ويُسمِعك تغريده العذب فالطّيور مثل البشر بعضها يتباهى بريشه وألوانه كالطّاووس والدرّاج، والعصفور القيثارة، والبعض الآخر يختال بصوته العذب، وذلك هو سرّ فخاره، والمغرّد كالمغني لا بدَّ له من سُمّاع ومعجبين. وهو يستطرب لكي يطرب».

فقال الملك: «صدقت أيّها الحكيم! الغناء للاستماع كالجمال للمشاهدة وكلاهما ممتع في السّمع والنّظر».

فهتف الحكيم: «أي وحق السّماء!».

وأضاف الحكيم قائلًا: «أنا مثل مولاي يشجيني ويطربني تغريد الطّيور لأنّه ينطلق من الفطرة والغريزة لذلك أفضّله على كثير من الغناء.

والبلبل المطرب مثل الشاعر الموهوب كلاهما يرتجل ارتجالًا. الأوّل لحنه المميّز، والثّاني قصيدته العصماء، وكلّ يأتي عفو القريحة، وعلى البديهة يكون أشجى وأطرب في السّمع، لأنّ الغناء أحيانًا ما يصطنع اصطناعًا، وقد تستسيغه الأذن أولًا، ولكن

الذّوق السّليم يمجّه ويأباه، لأن الصناعة فيه بارزة مثل القصيدة المنحوتة كالحجارة تمامًا.

والغناء الطبيعي يقترب من الحكمة البِكر الّتي تنطلق ألفاظها المنمّقة في متون معانيها من القريحة الوقّادة عفو السجيّة، فتأتي حكمة نقيّة كمياه الينابيع في الواحات الصّحراويّة.

أمّا تلك المنحوتة الّتي تأتي بعد مخاض وإعمال الذّاكرة، فإنّها في الغالب ألفاظ مسجوعة لها رنين في السّمع، ولكن معانيها غالبًا ما تكون سطحيّة أو غير مألوفة.

ومثل الأمثال والحكم العفويّة الّتي ترتجل ارتجالًا مطابقة لمقتضى الحال، أو لفكرة طارئة مستخلصة من حادثة بعينها. هذه الأمثال وتلك الحكم تعيش طويلًا متألّقة كالنّجوم الوضّاءة في السّماء».

فهتف الملك معجبًا بتحليلات الحكيم «**الفيلسوف**»: «هو ما تقول يا أبتي. وانفجرت فجأة أوراق التّوت عن بلبل آخر ولكن بصوت أنثوي رخيم يتفجّر عاطفة وإشراقًا.

فقال الملك: «إنها ترد عليه وتدعوه إليها».

وذلك ما حدث فعلًا لأنّ البلبل رفرف بجناحيه وانطلق طائرًا

مسرعًا إلى أليفته، فتحاذيا، وراح الطّائران يتودّدان أحدهما يفلّي الآخر ويدسّ منقاره في عنقه.

وفي تلك اللَّحظة برز من بين الأشجار وصِيف الملك «**أمجد بن الصباح**» بقفطانه المقلَّم السّابغ، يحمل في يده اليسرى مستديرة من الفضّة المشغولة، وعليها إبريق من الفضّة المشغولة أيضًا، بالحفر البارز الملوّن حيث ظهرت على جوانبه رسوم وترابيع وأغصان الورد الباسم.

كان للإبريق الفضّي عنق طويل مستقيم يتّصل بإنائه المستدير بحجم البطّة الصّغيرة.

صبّ الوصيف شراب الورد المحلَّى في قدحين من الزّجاج، موضوعين في كوبين من الفضّة، ولولا بروز مراشف القدح الزجاجيّة لظنّ الرّائي الكوب كله من الفضّة.

تناول الملك قدحًا وتناول الحكيم القدح الثاني وراحا يرتشفان ماء الورد، ويستمتعان برائحته المنعشة ومذاقه الطيّب.

ثم أعادا القدحين إلى المستديرة فشكر الملك وصيفه قائلًا:

«شكرًا لك يا «**أمجد**» لقد جئت في وقتك.. بورك فيك».

فهتف «**أمجد**»: «هنيئًا مريئًا يا مولاي». ثمّ التفت إلى الحكيم

قائلًا : «هنيئًا يا سيّدي». فردّ عليه الحكيم «**الصّاحب**» : «شكرًا لك.. شكرًا لك». وانصرف «**أمجد**».

وبعد ذهابه أخرج «**الصّاحب**» من جيب في داخل صداره مخطوطة على رق غزال، موضوعة في أنبوب من الصّفيح وكان الملك مطرقًا وفي يده قضيب من خيزران ينكت به في التّراب فالتفت إليه الحكيم قائلًا :

«أتذكر يا مولاي الخادم «**ماهر**»؟».

فانتفض الملك منتبهًا وكأنّه قد استفاق من حلم وأجاب قائلًا : «نعم أذكره أنّه من الخدم المحترمين في قصر عمّي «**يشجب**»».. واحمرّ وجهه قليلًا.. فابتسم الحكيم ابتسامة أخفى معانيها وقال: «لقد حضر اليوم إلى القلعة، قادمًا من «**ذات البهاء**» حاملًا رسالة إلى مولاي الملك». وقدَّم إليه الرّسالة في أنبوبتها المختومة.

تناولها الملك من الحكيم وفضّ ختمها، ثمّ أخرج منها رقّ الغزال المخطوط بخط أنيق وكلمات واضحة ثمّ راح يلتهم حروفها وقد تضرّج وجهه بالحمرة القانية.

وتذكّر الملك بأنّه سمع صوت أبواق الحرس تلعلع من فوق البرج إعلانًا عن وصول رسول.

أنهى الملك قراءة الرّسالة، ثمّ أعاد القراءة مرّة أخرى متفرّسًا في الحروف، مدقّقًا في المعاني، ثمّ أعادها من جديد إلى أنبوبة الصّفيح، واحتفظ بها في يده ثمّ التفت إلى الحكيم قائلًا: «إنها من «**شمس**»، ابنة عمّي ورفيقة طفولتي».

وهي في رسالتها البريئة كما يبدو، تتشوّق إليّ وتذكّرني بأيّام الطّفولة والحداثة، وأضاف قائلًا: «لقد كانت لي نِعم الرّفيقة في الصّغر، وهي تذكر بأنّها لا تثق بنوايا والدها وتحذرني منه وتقول: «إذا أرسل إليك يدعوك للعودة إلى «**ذات البهاء**» فلا تعد ولا تستجب إليه.. إنّه يضمر مكرًا وشرًّا، حتّى ولو خلط دعوته بالإغراء والوعود فإغراؤه موت عاجل، ووعوده كاذبة وهو يستمع إلى الوشاة والمحرّضين والخائضين».

ثم تقول: إنّها تبكي ليلًا ونهارًا لأنّها واقعة بين نارين.. «إنّه أبي وأنت ابن عمّي ورفيق طفولتي وكوكب آمالي..».

وهنا اختلج صوت الملك، فأشاح بوجهه يخفي دمعة حارّة

سقطت من بين أجفانه، وكانت عصيّة من قبل متعللة بالصّبر والسّلوان.

فقال الحكيم مواسيًا: «لا أشك قط بأنها صادقة، لأنّ وهج الغضب على أبيها ووهج الحزن المتدفّق من فؤادها، ينمّان عن إخلاصها ورسوخ حبّها لك وإيمانها بك، وخوفها عليك».

ردّ الملك بصوت خفيض: «لها اللّه إنّها تتكلم عبر دموعها».

وتابع: «لنا اللّه جميعًا فأمامنا أيّام شداد».

انتهز الحكيم الموقف بفطنته وحسن بادرته فقال: «لقد تحدّثت مع الخادم «**ماهر**» مستطلعًا منه حقيقة ما يجري في «**ذات البهاء**» فأخبرني بأنّ المدينة تجلس على فوّهة بركان، وصدور الناس مضطربة وأفواههم مكمومة، وثورتهم مكبوتة ورغم كلّ ذلك فإنّهم يلغطون ويعبّرون عن انتفاضتهم بالشّكوى والاحتجاج المتواصلين. الشّكوى من الفقر الشّديد والاحتجاج على الظّلم الثّقيل».

وتمتم بصوت مسموع قائلًا: «إنّ البلابل لا تشكو وفي مناقيرها الحَبّ. والأسود المحبوسة في الأقفاص لا تحتجّ إلّا من القمع الشّديد، وضيق الحبوس.

فالقمع الشّديد يزيد النّار اضطرابًا والقهر المكتوم تنبعث منه الثّورة المتأجّجة. أنّه الإعصار الهادر المنطلق بعد سكون مريب، وقد صبرت الرعيّة طويلًا .. وطويلًا .. وطويلًا .. حتّى نفذت طاقات الصّبر. ولم يبقَ أمامها إلّا الهبوب ويُقال بالأمثال: عندما تمتلئ جفان الأغنياء بالطعام تكون جفان الناس ملأى بالدّموع!

وعندما تمتلئ أيدي الحكّام بالأموال تكون شوان الغلال لدى الرعيَّة فارغة!

وما جلت الفئران عن منازل الفقراء إلّا لأنّها لم تعد تجد فيها طعامًا يؤكل».

وأضاف الحكيم: «وأعلمني «**ماهر**» أنّ المثّالين ينحتون تماثيل لجلالتك، وينصبونها ليلًا في الشّوارع والسّاحات فيصادرها ويحطّمها الجلاوزة في الصّباح.

فعمد الحفّارون إلى حفر صورة جلالتك فوق الصّواني والأباريق والأكواب وكلّ وعاء من نحاس أو صفيح، وهم يصيحون ويهتفون ليل نهار وعلى مسمع من الوصيّ «**يشجب**» وجلاوزته: يعيش الملك.. ابن الشّمس..».

وتوقّف الحكيم عندما رأى الملك ينتفض كعصفور بلّله القطر.

أو كبجعة تنفض الماء عن جناحيها.

كانت عينا الملك متّقدتين ومتوهّجتين مثل مواقد النّيران، ووجنتاه محمرّتين كالشّمس عندما تصبغ وجه السّماء بالحمرة القانية ويداه مرتجفتين، كالسّنابل الواقعة في مدارج الرّياح.

ولكن الحكيم عاد إلى مواصلة حديثه فقال: «لقد تمادى الأمير «**يشجب**» في ضلاله، وتعدّى طوره وتجاوز حدوده، ولا بدَّ لنا أن نفعل شيئًا لإنقاذ الرعيَّة قبل انفجار البركان، وقبل أن يداهم البلاد أعداؤها المتربّصون، وقبل اشتعال الحريق».

فنظر إليه الملك متسائلًا، فقال الحكيم «**الصّاحب**»: «أجل يا مولاي قبل أن يزحف علينا «**ترهاقا**» ملك «**الأحباش**» الّذي بثَّ جواسيسه في المملكة، بعد وفاة والدك المعظّم، أو قبل أن يشنَّ علينا «**العرب**» المستعربون غزواتهم بقصد السّلب والنّهب والظّفر بالغنائم والأسرى والسّبايا.

وكلا العدوّين طمّاع، وقويّ. ولا نعرف متى يباغتنا بجيش كالجراد المنتشر».

فسأله الملك قائلًا: «وما خطب هؤلاء المستعربين؟». فقال الحكيم: «أبيت اللّعن» أيّها الملك إنّهم أهل البداوة، لا يحرثون

ولا يزرعون ولا يعملون ولا يجنون. حياتهم كلّها قائمة على الغزو وعلى السّلب والنّهب، والتكرم بهما، وعلى حرق الغابات والأشجار ليستدفئوا بأخشابها ويطبخوا طعامهم فوق مواقدها.

إنّهم أعداء أنفسهم وأعداء بلادهم وأعداء أشجارهم وأصدقاء لبطونهم ولفروجهم.

يأكلون لحوم النّياق ويشربون ألبانها، ومياه الأمطار والينابيع ويعيشون في الخيام على خلف وانقسام».

وسأله الملك قائلًا: «وماذا يعبدون؟».

فأجاب قائلًا: «يعبدون الأصنام، والبلاغة والبيان، ويشربون الخمور ويقامرون بالأزلام، ويئدون بناتهم صغارًا، ويستعبدون أسراهم وسراريهم، ولا يتخاطبون إلّا بالرّمح والحسام».

فضحك الملك وقال: «إنّ أمرهم لعجيب فعلًا!».

فقال الحكيم: «ونحن وإياهم من دوحة واحدة، فنحن من «**قحطان بن عابر**» وهم من «**بلابح بن عابر**» و«**عابر**» من نسل عوص بن أرام بن سام بن نوح».

فقال الملك: «إذًا نحن وإياهم أبناء عمومة».

فقال الحكيم: «أجل يا مولاي منهم من نسل «**إبراهيم**» من أحفاد «**بلابح**» شقيق «**قحطان**»، ومع ذلك فقد كان إبراهيم يقول بأنّه آرامي، وقد سبق وجودنا في شبه الجزيرة العربيّةـ التي سُمِّيت وبقيت بنا ـ وجود نسل «**إسماعيل بن إبراهيم**» بأكثر من ألف ومئتي سنة، فنحن القحطانيون «**العرب**» الأقحاح وهم المستعربون الآراميون أصلًا كما يقول جدّهم إبراهيم».

وأضاف الحكيم: «ونحن الحضر وهم البدو، ونحن لنا ممالكنا العريقة، وهم قبائل تعيش في الخيام في بداوة وارتحال».

وسأله الملك: «وماذا يريد منّا «**الأحباش**»؟».

قال الحكيم: «إنّه الطّمع والأنانيّة يا مولاي.

يريدون إذلالنا والإمساك بمقدّراتنا والهيمنة علينا،

رغم ما وهبتهم الآلهة من غنى لبلادهم، واتّساع لأراضيها، وملاءمتها للزّراعة ووفرة مياهها وأنهارها، ومن عندهم ينبع نهر النيل الَّذي يروي بلاد النّوبة ومصر وغيرها.

هؤلاء قوم متوحّشون يا مولاي.

لا يعرفون كيف يستغلّون أراضيهم الواسعة ومياههم الغزيرة، يحكمهم ملك من نسل «**كوش بن حام بن نوح**»، وهم مثل البدو،

منتشرون في قُرى حول دار الملك، ويعيشون في أكواخ من غصون الأشجار وأوراقها، ولكل قبيلة رأس يحكمها ـ وذلك لقبه ـ وفوق هذه الرّؤوس كلّها الملك.

ومعظم أراضيهم بِكر عذراء لم يزرعوا منها إلّا القليل، وما عداها غابات ملأى بكل أنواع الحيوانات المفترسة وغير المفترسة من الأسد إلى الفيل، ومن النّمر إلى وحيد القرن، ومن الظّبي إلى الزّرافة وحمير الوحش.

وفي بلادهم من الثّيران والأبقار الوحشيّة والماعز البرّي والوعول والغزلان ما يكفي سكّان الأرض لمدة عام، ومع ذلك فإنّ الناس مائعون دائمًا.. ملابسهم أسمال. فيما يملك حكّامهم من المال عدد الرّمال.

وملوكهم المتعاقبون يكدّسون الذّهب والفضّة، ويضعون على رؤوسهم تيجانًا من الذّهب مرصّعة بالدّرر اليتيمة واللآلئ واليواقيت، وقد أصيبت قلوب أولئك الملوك بطاعون الجشع والطّمع، ولحق بهم نهمٌ إلى المال جعلهم لا يشبعون من جمع الثّروات وتكديسها.

وقد حدث للأحباش أكثر من مرّة إفلاس، جعلهم لا يجدون ما يقدّمونه لملكهم ولرؤوسهم، فاشرأبّت أعناقهم إلى مدننا وأملاكنا.

وشنّوا علينا غزواتهم. وما زالوا يفعلون هذا مرّة كلّ خمس أو عشر سنوات. فكانت ممالكنا تردّهم على أعقابهم مدحورين خاسرين. ليعودوا من جديد إلى مغامراتهم المعهودة.

فلنحمد الله على إصابتهم بأوبئة وأمراض معدية، تحصد منهم في كلّ حول المئات. ولولا هذا لطالنا من شرورهم الكثير. . . «فلنعجل باسترداد بلادنا من سيطرة عمّي «**يشجب**» الطّماع، ونعود إلى «**ذات البهاء**» قبل أن يداهمنا الأعداء بغدرهم وغزواتهم وجنودهم العراة الجياع».

قال الملك هذا، ثمّ تقدّم والحكيم يحثّ الخطا نحو القلعة، وهنا اعتكف الملك في غرفته ليكتب رسالة يردّ فيها على رسالة ابنة عمّه «**شمس**»، على رق غزال فلما أتمّ تدبيجها وضعها في أنبوب من الصّفيح، وطلب من خادمه «**أمجد**» أن يستدعي «**ماهر بن العضد**»، خادم ابنة عمّه ومرافقها.

كانت أوشاج الصّداقة تربط بين الخادمين، «**أمجد**» و«**ماهر**»، رغم أنّ «**ماهر**» يكبر «**أمجد**» بكثير. فقد تجاوز الخمسين من عمره، في حين أنّ «**أمجد**» لم يتجاوز الخامسة والثلاثين.

لذا كان «**ماهر**» متفوّقًا في العلم والفروسيّة والسّياسة والحكم. فلما دخل «**ماهر**» على الملك ركع على ركبتيه محيّيًا : «أبيت اللّعن أيّها الملك! ودام عزّك وطال عمرك ومتعت السّماء بلادك بحكمك وعدلك».

فابتسم الملك وردّ عليه التحيّة بقوله : «ومتعتك السّماء يا «**ماهر**» بالصّحة والعافية ، أنت رجل مخلص ولست عبدًا ولا مملوكًا حتّى تركع أمامي ، فأنا لا أقرّ بالعبوديّة ولا بالرّكوع وعندما أعود إلى «**ذات البهاء**» سأحرّر كلّ العبيد من العبوديّة والأحرار من المظالم ، والنّاس من الفقر والحرمان. كانت السّماء في عوني على ذلك.

والآن حدّثني كيف تركت الأميرة «**شمس**»؟».

فنهض «**ماهر**» واقفًا وقال: «إنّها أيّها المولى ـ كالشّمس بهاء، والفجر طلعة وجمالًا ، ناضرة كالأزهار ويانعة كالأثمار. ومع ذلك فإنّها تفسد كلّ ذلك بإقبالها على خشونة التّدريبات والفروسيّة وهي لا تزال طريّة العود، غضّة الجسم وأشدّ ما أخشى عليها من قسوتها على نفسها ، أخاف لجسمها النّحيل أن ينقصف كعيدان القصب!».

وضحك الملك من تشبيهات «**ماهر**» ثمّ قال بابتسامة وادعة :

«لا بأس عليها وإنّي لفخور بها، معجب بجمالها وفروسيّتها فمثلها تكون النّساء وإلّا فلا..».

ثمّ ناوله المرسال قائلًا: «أوصل إليها هذه الرسالة، ولكن حذار من أن تقع بيد غير يدها!».

ثمّ ناوله صندوقًا صغيرًا فيه ياقوتة في حجم بيضة الحمام قائلًا: «هذه هديّتي لها تعبيرًا عن إخلاصي ومودّتي، وإعجابي بشجاعتها وصراحتها وقوّة إرادتها».

تنهّد الملك، ثمّ أضاف: «قل لها بأنّني لم أنسها».. ثمّ منحه وزنة من الذّهب قائلًا: «إليك بهذه هديّة مني، وتمنّى له سفرًا سعيدًا ورحلة موفّقة».

انحنى له «**ماهر**» ودعا له، ثمّ غادر القلعة مسرعًا فامتطى فرسه وانطلق بها ينهب الأرض نهبًا. وبعد انصرافه استدعى الملك الحكيم «**الصّاحب**» وجميع الكَتَبَة الموجودين في القلعة ولمّا مثلوا جميعًا أمامه رحّب بهم، ودعاهم إلى الجلوس، ثمّ التفت إلى الحكيم «**الصّاحب**» قائلًا: «لقد دعوتك يا أبتي لكي تملي على هؤلاء الكُتّاب رسالة إلى جميع الأقيال في المملكة «**وهم شرق الولايات**» تستنفرهم وتطلب نجدتهم لإنقاذ البلاد من حكم الظّلم

والطّغيان، فالظّلم صار شعار الوصيّ «**يشجب**»، بعد أن خدع والدي ونال الوصاية عليّ.

وتخبر الأقيال بأنّ الوصيّ حاد عن النّهج والاستقامة، وشرعة الوصاية واشرأبّ إلى الاستيلاء على المُلك واعتلاء العرش الذي ورثته عن والدي.

وتستحثّ هممهم للقدوم على رأس ما لديهم من جند مدرّبة على القتال ومتطوعين من أبناء البلاد الغيورين إلى قلعة «**تاريم**»، على أن يحضروا معهم من ولاياتهم وأقاليمهم جميع صنّاع الأسلحة والخبراء بصنعها وصنّاع المنجنيقات وأهل الخبرة والذّكاء في كلّ ذلك».

وطلب الملك من الحكيم أن يتوسّع بذكر تفاصيل الحالة العامّة في «**ذات البهاء**» والبلاد بسبب الظّلم والطّغيان والتسلّط على موارد المملكة ومصادرة أموال الرعيّة ومزروعاتهم بدون حق، ومنها مواجهة الوصيّ وتذمُّر الرعيّة واحتجاجاتهم بالقمع والقبض على المتظلّمين وزجّهم في السّجون إلى آخر ما هنالك من إجراءات الجور والإرهاق.

وبعد أن ألمّ الحكيم بتفاصيل رسالة الملك نهض واقفًا شاكرًا

جلالته على اهتمامه بالرعيّة والبلاد، وتمنّى له ولدعوته التّوفيق، ثمّ انتقل مع الكُتّاب إلى قاعة واسعة، وشرع يملي عليهم الرّسائل وهم يكتبون فوق الرّقوق وكلها بلسان الملك الشّرعي وحسب مشيئته.

وبعد أن كُتِبت الرّقوق حملها الحكيم إلى الملك، فمهرها بتوقيعه وختمه الملكي: من «**مالك بن عبد شمس**» ملك مملكة «**أوسان**» الشّرعي المشمول بعطف السّماء وبركاتها.

وبعث الرّسائل مع وفود اختارها الحكيم من الأعيان والفرسان الموجودين معه في القلعة وزوّد كلّ وفد بفرسان أشدّاء، وما يلزم من مال.

وهكذا انطلقت الوفود إلى أقيال الولايات لجمع الفرسان والمتطوّعين من أبناء «**أوسان**» للالتحاق بالجيش الملكي تحضيرًا لحملة تحرير «**ذات البهاء**» من الوصيّ الغاضب وأعوانه.

وفي المساء دعا الملك وزيره الحكيم «**الصّاحب**» وقادة الفرسان والمشاة وشرع يتبادل معهم الآراء المتعلقة بالخطط الحربيّة الّتي يمارسها «**الأحباش**» في بلادهم، لأنّه كان يخشى من هجوم مفاجئ يباغت فيه ملك «**الأحباش**» مملكة «**أوسان**» وهي على تلك الحالة من الفوضى والاضطرابات وفقدان النّظام.

وسأل الملك وزيره قائلًا: «أيها الوزير العاقل العالم بأخبار الأوّلين والآخرين، أعلمنا كيف يحارب «**الأحباش**»؟».

فاعتدل الحكيم في جلسته، واشرأب بعنقه كالزّرافة عندما تشرئبّ بعنقها لشعورها بوجود خطر داهم ثمّ قال: «أبيت اللّعن أيّها الملك العادل، إنّ «**الأحباش**» قوم لم ينالوا حتّى الآن حظًّا من الرّقي كالشّعوب القحطانيّة والكنعانيّة، فالحضرة تقيم في ديار القحطانيّين والكنعانيّين منذ مئات السّنين.

فيما ترى «**الأحباش**» ما زالوا يعيشون على البداوة كالأعراب المنتشرين في شرقي شبه الجزيرة العربية من شمال عُمان إلى نهري دجلة والفرات.

ولأنّ «**الأحباش**» لم يختلطوا بالشّعوب المتحضّرة، عاشوا مستوحشين في نطاق بلادهم على الجانب المقابل لبلادنا عبر البحر الأحمر.

وهم صيّادو وحوش ماهرون يحسنون الرّمي بالقوس والسّهام من جهة، ويجيدون قذف الحراب من مسافة متوسّطة البعد بقصد صيد فرائسهم من جهة أخرى. والقوس والحربة عندهم أهم الأسلحة الّتي يستعملونها في الصّيد كما في الحروب.

كما يمكنهم أن يحاربوا بالسّيوف القصيرة والخناجر عندما يلتقي الجمعان وجهًا لوجه، وهم يتدرّبون على استعمال القوس والحربة منذ نعومة أظافرهم، لذلك كانوا من أمهر الشّعوب في رمي السّهام والحراب.

ولكن معرفتهم بالخطط الحربيّة قليلة جدًّا، وبهذا لا يُؤبه لهم، وهم يحسنون الدّفاع عن أنفسهم من بعيد، ولكن إذا داهمهم الفرسان وانقضّ عليهم المشاة تزعزعت صفوفهم، وتفرّقوا في طلب النّجاة، لذلك يجب عدم إعطائهم الفرصة بالبقاء بعيدين حيث يساعدهم البعد على إجادة الرّمي وتحقيق الإصابات وإنزال الخسائر بمحاربيهم.

وخير طريقة هي إبقاء سهامهم وحرابهم في التّروس الكبيرة والسّعة بالنسبة للمشاة، والفرسان والتجافيف بالنسبة للخيول لحماية أجسادها من الحراب والسّهام.

وعدم إعطائهم الفرصة في ذلك يربكهم، لذلك يحسن بالفرسان أن ينصبوا لهم الكمائن من حولهم ثمّ يباغتوهم من كلّ الجهات، فيأخذوهم على حين غرّة فيتمكّنوا من إرباكهم وزعزعة صفوفهم الأماميّة.

وفي هذه الأثناء تنقضّ عليهم كتائب المشاة بالرّماح

الطويلة، ثمّ الكتائب من حملة السّيوف الطويلة والصّمصامة، ولديّ خطّة».

ما إن قال الوزير الحكيم هذا حتّى حدّقت فيه عيون الجالسين، فقال: «إن «**الأحباش**» لا يحلقون شعور رؤوسهم ولا يحفون شعور ذقونهم وأجسادهم، وكلّ واحد منهم يحمل فوق رأسه غلبة من الشّعر الكث غير المرجل، لذلك يستحسن إعداد كتيبة أو أكثر؛ تكون قريبة من ميدان القتال حتّى إذا التقى الجمعان وجهًا لوجه خرجت الكتيبة من مكامنها، وانقضت على العدو من خلف صفوفه وفي أيديها عيدان طويلة غليظة نسبيًّا، في نهاياتها قطع من أقمشة ملفوفة عليها مغموسة في القار.

وعند الهجوم تشعل ثلث الأطراف بالنّار وتصوّب إلى شعور رؤوسهم.

ومتى اشتعلت شعور رؤوسهم بالنّيران هلكوا وهرب الباقون فزعًا ورعبًا فالجيش يخشى النّار مثل الأسود والذّئاب».

تعالت زفرات الارتياح -حين صمت الحكيم -من صدور القادة، فقد بدا لهم أنّ الخطّة جديدة ومبتكرة، ولم يسبق لأحد أن استعملها في حروب «**الأحباش**» من قبل.

وهكذا انفضّ الاجتماع والجميع أثنى على حكمة الحكيم «**الصّاحب**» وذكائه، واتساع علومه وخبراته في الحياة.

وبوشرت في الصّباح التّدريبات على كلّ ذلك بينما عكف الحدّادون وخبراء الأسلحة على صنع المزيد من أنواع الأسلحة بالإضافة إلى التّروس الطويلة الواسعة والخوذات الحديديّة والدّرع والجواش.

وهكذا بدأت استعدادات القوم للزّحف على «**ذات البهاء**» وأُعدّت الاحتياطات لكل حدث طارئ.

الفصل الثالث

في منخفض من الأرض عميق أشبه بالفراديس، حملت إليه الرّياح الموسميّة أنواعًا شتّى من أجود البذور وألقتها في أحضان تربتها الحمراء الخصبة منذ مئات السّنين، فنمت واتسقت قاماتها أشجارًا، ثمّ غابات ملتفّة الأغصان تروى بمياه السّماء والينابيعـ عديدة الأصناف والأنواع الحرجيّة كان من أبرزها شجر الشّربين والسّرخس والسّرو والدّردار من الأشجار غير المثمرة، والموز والتّين والرّمان واللّوز والكرمة والزّيتون من الأشجار المثمرة في مواسمها. بالإضافة إلى ما لا يعد ولا يحصى من الأزهار والرّياحين البريّة المعروفة في المدن وحدائقها وبساتينها.

كان هذا المنخفض يقع في منتصف سلسلة من الجبال المعروفة بجبال القمر لأنّها تستدير حول ذلك المنخفض، وتبعد عن العاصمة «**ذات البهاء**» بحوالي خمسين فرسخًا نحو الغرب،

وتفصلها عن البحر سلاسل من الجبال والرواسي الشّاهقة. وادٍ عميق فسيح الجنبات يتوسط هذا المنخفض، كان ذات حياة بحيرة واسعة لكنّها جفّت ولم يبقَ منها سوى نهر دافق لا يزيد عرضه عن عشرة أذرع ينبع من أسفل الجبال الشماليّة، وينحدر مجراه حتّى يصل إلى سلسلة الجبال الجنوبيّة، ثمّ يغوص في نفق ويختفي، في هذا الوادي الزّمردي بخضرته الدّائمة وألوان أشجاره وزهوره العجيبة؛ عاشت أنواع وقطعان من الحيوانات البريّة والطّيور في تآلف عجيب، كغزلان المها واليعافير والظّباء وغزال المسك والثّيران والأبقار الوحشيّة والوعول والماعز الجبلي. إنّ ارتفاع الجبال من حول المنخفض وواديه الأخضر خلق حصنًا طبيعيًّا، نأت على إثره الحيوانات المفترسة كالأسود والنّمور ووحيد القرن وغيرها عن المكان. إلّا أنّ بعض أدغاله لم تكن تخلو من الذّئاب وبنات آوى وغيرها من الحيوانات الصّغيرة، ولموقع المنخفض على مقربة من السفوح وطرق القوافل تلك الّتي تحمل الأفاوية من مملكتي «**أوسان**» و«**مأرب**»، بالإضافة إلى «**حضرموت**» الّتي كانت في ذلك العهد البعيد ولاية كبرى تابعة لمملكة «**أوسان**»، كانت القوافل تعرّج في حال ذهابها وإيابها على أطراف المنخفض تلتمس فيه منتجعًا للرّاحة والاستجمام، فتقيم فيه أيّامًا مستمتعة

بهوائه النّقي ونسائمه العليلة الباردة وأغصانه الوارفة وظلاله المنعشة، فضلًا عن ثماره الشهيّة الّتي كانت تلقي بعد موسمها الكثير من بذور الثّمر والفواكه المجفّفة والطّازجة بعضها ينبت وينمو بسرعة مدهشة، وبعضها الآخر تحمله الرّياح أو الطّيور في مناقيرها لتودعَه أحضان الوادي العميق. أطلق البعض على المنخفض اسم «**منخفض النعمة**» أو «**وادي النعمة**»، وبعض آخر أسماه «**وادي الغمر**» نسبة إلى الجبال المحيطة به. وسط الوادي نشأت ملامحُ حياة، فالبذور غدت أشجارًا مثمرة، وعلى غلّتها عاشت بعض الحيوانات وتكاثرت، كما كانت تتردّد على ضفاف النّهر الطّيور الرّائعة الجمال كالفرّي والهدهد والإوز والبط الشّمالي والبجع الأبيض النّاصع البياض واللّقالق وغيرها. وكان من جملة سكان الوادي قبيلة من القرود شبيهة بالنّسانيس لكنّها ليست منها، شديدة الشّبه بإنسان الغاب، لون الذّكور منها كالكهرمان وبعضها لونه مختلط بين اللّونين الأبيض والكهرماني، أمّا لون الإناث فكان في الغالب أبيض ناصعًا، أو مشرّبًا بلون الكهرمان أو مُبقّعًا ببقع كبيرة من اللّون الكهرماني. وبرزت من بين هذا النوع من القرود، قردة بيضاء فروها كثيف مثل نعاج الوادي، صافية اللون مثل الحليب، وجهها جميل أشبه بوجوه إناث البشر

لولا أنفها الأخنس والفرو المحيط بوجهها. وكانت عيناها العسليّتان المستديرتان لا تخلوان من جمال، اعتادت على الجلوس فوق فرع من شجرة بنيان[١] فروعها طويلة عريضة، إمّا عموديّة باسقة أو أفقيّة عالية عن الأرض بحيث يستطيع الإنسان أن يمشي فوقها كما يمشي فوق معابر الأنهر الضيّقة. كانت الشّجرة قريبة من رافد أفقي هو أكبر الروافد المتفرّعة عن النّهر الكبير، وكثيرًا ما كانت تبدو في جلستها وكأنّها تتوقع رؤية قادم من بعيد، تنتظر عودته ووصوله، تلك كانت الحقيقة؛ فأبناؤها غادروا إلى الغابات الجنوبيّة، وقلبها غادر معهم. وكانت تلك القردة كباقي قبيلتها قريبةٌ صفاتها من البشر إلى حدٍّ كبير، الذّكاء والفطنة واللغة الغريبة الّتي تتخاطب بها مع بعضها البعض، وغرائزها النّاضجة وإدراكها وعاطفتها المتأجّجة. هادئة الطّبع إجمالًا، لا تميل إلى العبث مثل القِرَدة المعروفة، مسالمة؛ فلا قتال ولا مشاجرات بين ذكورها، تتحلّى بالأدب وبأخلاق متعارف عليها في مجتمعها القبلي. يسودها السّلام والتّفاهم ذكورها وإناثها، ولم يكن الاعتداء على الإناث واختطافها شائعًا أو معروفًا. التّعاون المثاليّ، الكرم المتبادل واحترام الإناث والصّغار والشّيوخ

(١) شجرة كثيرة الجذوع والفروع، وقد تصل إلى ٣٠٠ جذع أحيانًا.

والمرضى بشكل خاص، كانت أبرز السّمات السّائدة في القبيلة، ولم يكن يُكدّر الحياة إلّا حيوان مخيف من بقايا حيوانات الدّيناصور المنقرضة، يمشي على رجليه منتصبًا، وله يدان صغيرتان معلّقتان من كتفيه، عنقه ضخم، ورأسه صغير إذا ما قورن بضخامة جسمه، فمه كبير مزوّد بأسنان حادّة كالخناجر، وقد اعتاد على أكل اللّحوم على عكس حيوان الدّيناصور الكبير الحجم الذي يمشي على أربع وعنقه كعنق الزرافة! هذا الدّيناصور كان نادرًا ما يخرج إلى مرأى العيون، يقضي نهاره مختبئًا في الأدغال الكثيفة، ويظهر عندما يستبدّ به الجوع، لأنّه ثقيل الحركة بطيء في حلّه وترحاله، لا يستطيع أن يركض وراء قطعان الثّيران القويّة والظّباء والغزلان السّريعة، جلده ناشف كثير التّجاعيد مثل لحاء شجرة النّخل، إذا جاع التصق بشجرة نخيل أو بشجرة أخرى ذات لحاء مجعد خشن، ويتماوت حتّى لا تشعر بحركاته الحيوانات الصّغيرة المتجوّلة في الغابة، مراعيًا أن تكون وقفته في عكس مهبّ الرّيح كي لا تنتقل رائحته إلى الحيوانات، فإذا مرَّ به غزال وكان قريبًا منه انقضَّ عليه وافترسه. بهذه الخدعة الدّنيئة كان يغيظ قبيلة القرود، وبصورة خاصّة القرد «**نولان**» ابن القردة البيضاء «**نايان**»، لذلك كانت القرود الشّابّة تراقبه من فوق الأشجار، لتحذّر الحيوانات من

وجوده. وكانت الطّيور أيضًا تقوم بهذا الواجب، كطائر الكوكو والعقعق والببغاء والسّنونو في موسمي الصّيف والرّبيع. وبمجرّد ظهوره يُخيّم السّكون على الغابات، فلا يسمع فيها إلّا دبيب قدميه الثّقيلتين، وكان «**نولان**» يقدّم إلى الدّيناصور أحيانًا بعضًا من طعامه غير المستساغ، فيلقي إليه ببعض من موزاته وثماره، فيقابلها الدّيناصور بزمجرة هائلة ثمّ يكشّر عن أنيابه ويشيح بعينيه بعيدًا.. ويستمرّ القرد في ذلك علّه يصرف نظر الدّيناصور عن الحيوانات الآمنة الوديعة، فتصطدم ثمراته الطّازجة برأس الدّيناصور وكتفيه، فيعلو صخبه وهديره المرعب. ظلّ القرد «**نولان**» يكرّر محاولاته، إلى أن قذفه مرّة بموزة فارتطمت بصدره، فأسرع والتقطها وراح ينظر إليها بعينيه المتأجّجتين بنار الغضب، ولفرط جوعه وضعها في فمه ومضغها بأسنانه الكبيرة، فطاب له مذاقها، فرمى إليه «**نولان**» بموزة أخرى سقطت أمامه فوقف الدّيناصور وراح ينظر إليها، وما لبث حتّى التقطها بيده نصف المشلولة بعدما انحنى على الأرض بجسمه الثّقيل ثمّ التقمها. راق لـ «**نولان**» استساغة الدّيناصور لطعم الثِّمار، فراح يطارد الدّيناصور، ويرمي إليه الأثمار، والدّيناصور يلتقطها وعيناه مصوّبتان إلى القرد «**نولان**» حائرًا متحيّرًا من بواعث هذا القرد المحسن أو العابث.

ومع الزّمن لم يعد الدّيناصور يثور ويزمجر بوجه «**نولان**»، أو

يجابهه بالعدائيّة، بل صار يلتقط الثَّمرة عن الأرض، ثمّ يصوّب عينيه الشّاكرتين إلى «**نولان**». بعد ذلك صار الدّيناصور يبحث عن الأشجار المثمرة تلقائيًّا كلّما شعر بالجوع، لأنّ الوصول إليها لا يرهقه ولا يفرض عليه أن يقف ساعات طويلة متجمّدًا ساكنًا ملتصقًا بالأشجار. رآه «**نولان**» ذات صباح واقفًا أمام شجرة موز يلتهم أقراطها بشراهة حتّى ازدرد قرطًا كبيرًا كاملًا! وهبّت نسمة ناعمة حملت إلى الدّيناصور وشاية عن وجود «**نولان**» بالقرب منه، فرفع رأسه إلى الشّجرة، وإذ بـ «**نولان**» ممتطيًا أحد الفروع، وهو يرنو إليه مبتسمًا. فجأة غرس الدّيناصور أسنانه بقرط موز صغير، واقتلعه من شجرته ومشى حتّى صار تحت القرد «**نولان**» مباشرة، فوضع قطف الموز على الأرض وانصرف مبتعدًا! وظلّ «**نولان**» يراقبه حتّى أجنّته الغابة الكثيفة، فمضى متعجّبًا من بادرة الدّيناصور، ثمّ استدرك قائلًا: «إنه يقابل صنيعي بمثله». ولكن سروره كان عظيمًا، لانصراف الدّيناصور عن افتراس الحيوانات، وراح يغمغم مخاطبًا نفسه: «إنّه لتحوّل رائع فهل يثبت عليه هذا الحيوان ملتهم الفرائس؟». غاب الدّيناصور يومًا كاملًا لم يره «**نولان**» فاحتار القرد، واستبدّت به الحيرة، وانطلق يبحث عنه بين الأدغال، فوقف بين مفترق للممرّات في الغابة، ثمّ دفع أنفه بين

الرّياح الأربع، وراح يتشمّم رائحة الدّيناصور من التّيارات الهوائيّة العابرة، فالتقط أنفه أثرًا من رائحة الوحش، لكنّ الرّائحة تقول إنّه بعيد جدًّا، وهو ذاهب نحو النّهر. كان الصّيف يوشكُ أن يدخل مخاضه الأخير، الغابة تعجُّ بالطّيور الأوابد والقواطع والحيوانات المختلفة، باضت وفرّخت وهي الآن تزقّ أفراخها وتساعدها على الطّيران، أنّه أيلول الحياة. تحولت الغابة إلى مسارح للشّدو والطّرب، كلّ سرب من الطّيور يشقشق أو يسجع أو يغرّد كما يحلو له، وممرّات الغابة المعشوشبة تفوح منها رائحة الأعشاب والأزهار معًا، وتتضوّع بالعبير النفّاذ من شجيرات الزّنبق الأبيض والأزرق والأحمر، وعطر الخزامى وروائح الأفاوية والنسرين وأثمار الخروب المتدلّية من غصونها بلون أخضر زاهٍ، أو خرنوبيّ عاقد. في ذلك اليوم، قرّر «**نولان**» أن يقتحم بنفسه عالم الدّيناصور الغامض، فراح يتقصّى أثره نحو جهة النّهر، ويناديه بلغته الخاصّة في جرأة قلّ أن تساعده على فعل كهذا. وكان مجرى النّهر يتدفّق بهدوء وينساب انسيابًا ناعمًا كي لا تزعج تموّجات الماء أسراب البط والإوز والبجع الأبيض. والنّسيم العليل يتلاعب بأغصان أزهار الدّفلى والسّوسن واللّبلاب ومظلّات السّرو، وسعف النّخيل، كلّ الأغصان تتمايل مع الأنسام العابثة والرّياح الضّاحكة

في تلك الفراديس الطبيعيّة. ما زالت الحيوانات والطّيور والرّياحين والزّهور تحتفل بمولد يومها الجديد، وبموسم الخصب والنّماء والعبير والأريج، الفراش يطير عابثًا لاعبًا لاهيًا من غصن إلى غصن، والنّحل يطنّ طنينًا متواصلًا يشتمّ الرّحيق من خمل الأزهار. ما أحلى النّهر وهو يخترق الطّبيعة البِكر مترنّحًا فيطرب متمايلًا في عجب، مثرثرًا بفقاقيعه ونفّاخاته! أصبح «**نولان**» عند منعطف اللوى على رأس الخليج النّهري أو الخور، تهادى إلى سمعه أنين خشن تتخلّله همهمة حزن وحشرجة ألم من مكان غير بعيد من حافّة الخليج، فتقدّم بحذر وأنفه مشرع للرّيح مصغيًا إلى أنفاسها، مرتشفًا بأنفه رائحة ذلك الحيوان الجريح الذي يعبّر عن أوجاعه بالأنين المتواصل كما الإنسان عندما يسقط تحت مطرقة الدّهر الغشوم. مضى «**نولان**» فوق الأعشاب النّديّة وراح يدير ناظريه حوله بحذر، فوقعت عيناه على صديقه الدّيناصور بويلان وهو مستلقٍ على حافة النّهر، كجذع نخلة خاوية قصفتها ثورة الرّيح، والدّماء تخضّب كتفه الأيسر وصدره ويديه الصّغيرتين، تنطلقُ من فمه آهات حارّة وحمحمة واهنة وكأنّه يدعو القرد «**نولان**» إلى إغاثته، هتف «**نولان**» بأسى: «**بويلان..**»! ثمّ اقترب منه بحذر شديد وراح يتحسس بأطراف أنامله الدّقيقة كتف الدّيناصور، كان جرحه ثخينًا من جرّاء سقوط جذع ضخم فوق

كتفه تسبّب بكسر عظمته. تجاوبَ الدّيناصور مع لمسات القرد الناعمة، واستراح إليها، ورأى «**نولان**» شفتي الدّيناصور جافّتين كالحطب، فغمغم وانطلق إلى الخليج، واقتطع بضعًا من أوراق النيلوفر(١) ثمّ ثنى أطرافها وغمسها في الماء وهي ملء راحتيه، وأسرع بها إلى الدّيناصور وصبّ الماء في فم الحيوان المفتوح على وسعه فانتعش الدّيناصور قليلًا. عاد «**نولان**» إلى النّهر وكرّر العمليّة عدّة مرّات حتّى ارتوى الدّيناصور، ثمّ قال ما لم يفهمه الحيوان الجريح. أتراه كان يستأذنه في الغياب بضع دقائق؟ هذا ما ظهر، حين أسرع «**نولان**» يخترق الغابة مسرعًا بحثًا عن أمّه «**نايان**»، وراح يستجير بها بلغة القرود، ثمّ عاد بها يحثّان الدّرب نحو الدّيناصور الجريح. هناك حدّقت القردة الأمّ بإشفاق إلى الجريح المسكين، ثمّ مدّت يدها وراحت تتفحّص جرحه الغائر، ثمّ رفعت رأسها وتمتمت بضع كلمات، وانطلقت مع ابنها «**نولان**» إلى ضفاف النّهر، وراحا يبحثان عن بعض الأعشاب الّتي يستعملها القرود في مداواة الجراح الملتهبة والعظام المكسورة. ثمّ عادا إلى الحيوان الجريح، وشرعا يمضغان الأعشاب ثمّ يلفظ كلّ منهما مضغته في راحة يده، ويضعها فوق الجرح الغائر، كانت

(١) نبات مائي معمّر، أزهاره بيضاء كبيرة، كان يستخدم في علاج الجروح.

الحرقةُ تلهب مكان الجرح، لاذعة موجعة، مع ذلك استسلم بخضوع للطّبيبين المداويين. بدأت السّكينة تسري في شرايينه، فاستسلم تمامًا، إلى أن أتمّا ملء الجرح الغائر بالدّواء الممضوغ. بقيت القردة الأمّ إلى جانبه، ويدها فوق كومة الأعشاب الممضوغة فوق كتفه، كي لا تسقط ساعة من الزّمان أو أكثر، في أثنائها انطلق «**نولان**» إلى الغابة، وأحضر كميّة من الموز وشرع يدسّ الواحدة بعد الأخرى في فم الدّيناصور، ثمّ ذهب مرّة أخرى إلى الغابة وعاد بأقراط أخرى وأطعمها للدّيناصور الجائع. وكرّر ذلك بضع مرّات حتّى أسكن جوعه، ثمّ انصرفت الأم وبقي «**نولان**» جالسًا إلى جانب صديقه وراحة يده تضغط على العشب المكدّس فوق كتفه الجريح. جنّ المساء فغفا الدّيناصور، وعاد «**نولان**» أدراجه إلى الغابة، وفي صباح اليوم التالي عاد وأمّه يحملان حزمتين من الأعشاب، لإتمام علاج الجرح. ثلاثة أسابيع انقضت، وهما يثابران على علاج الدّيناصور، ويطعمانه موزًا وعنبًا وتينًا ولباليب الأشجار الطريّة، حتّى تعافى ونهض وعاد يذرع الغابة. تلك مأثرة نادرة، احتفظ بها الدّيناصور في نفسه، فقد نجحت في تغيير طباعه إلى الأبد! ومنذ ذلك الحين وصداقةٌ جميلةٌ تجمعه بجميع القِرَدة وحيوانات الغابة، وليس بنولان وأمّه فقط.

وغمرت «**نولان**» غبطة وسرور جميلان وسعادة مطلقة، لأنّ تجربته السَّاذجة نجحت أيّما نجاح! عاد إلى نشاطه القديم، يتسلّق منخفضات الأرض متنقّلًا من شجرة إلى أخرى ومنطلقًا إلى عنوق النّخيل الّتي أبلحت، فاختطف عينيه عذق كبير متدلٍّ من أصول قضبان السّعف لونه أحمر قان. وكان المساء قد تسرّب وما هي إلّا ثوانٍ حتّى صار بين سعفاتها ليتناول عشاءه من ذلك البلح اللّذيذ بمذاقه المُعسَّل، طالت جلسته بعدما استطاب طعم البلح وليونته تحت أضراسه حتّى خيّم الظّلام. ومن مكانه لمحَ أنوارًا كثيرة منبعثة من مكان بعيد فهجس في نفسه: لا بدَّ أن أذهب مستطلعًا تلك الأنوار لأرى ما عساها أن تكون، إنّها تمتدّ أفقيًّا وليس عموديًّا، إذًا هي ليست من نجوم القبّة الزّرقاء، لكنّه ما لبث أن تراجع عن فكرة ملاحقتها، فليؤجلها للغد، فقد أغلس اللّيل. ما إن تمطّى الصّباح حتّى رافق «**نولان**» أمّه إلى أدغال الغابة، تجوّلا معًا حتّى العصر ثمّ عادا إلى شجرة البنيان لتبقى الأم «**نايان**» في مقرّ إقامتها، ويمضي هو على وجهه إلى أطراف المنخفض البعيدة ليتسلّق تلك النّخلة من جديد، ويرسل بصره في الأرجاء مستطلعًا متفحّصًا، أصبحت الرّؤية واضحة بعد أن انقشع السّراب والضّباب، فرأى بيوتًا من اللبن وأكواخًا كثيرة في السّهل، وسورًا

عظيمًا يتوسّطه بابٌ مفتوحٌ على مصراعيه خلف تلك البيوت، لكنّه لم يرَ الأنوار المشعّة الّتي رآها بالأمس فعاد أدراجه إلى الغابة.
يجيءُ صباحٌ آخر، ليخرج من جديد برفقة أمّه إلى سفوح الجبال الجنوبيّة حيث يغوص النّهر ويغيب بشكل عجيب وسط منطقة بركانيّة، حجارتها سوداء كثيرة مبعثرة في كلّ مكان، وبعض صخورها مسنّنة مثل الحراب، لذلك صعب عليه أن يتوغّل فيها.
رأى أمّه تنحني على الأرض البركانيّة السّوداء وتلتقط «**حصية**» يشعّ منها بريق يخطف الأبصار ثمّ شرعت تتفحّصها، حتّى ملّت منها فمنحتها له وهي تضحك، تناولها والدّهشةُ ترسم على وجهه علامات كلّما لمح أنوارها المشعّة تخمد إذا أغلق عليها راحة يده، ولا تستأنف انطلاقها إلّا بانعكاس أشعّة الشّمس عليها، كانت تلك الدّهشة كافيةً بالنسبة له ليحتفظ بها فتكون رفيق رحلة عودتهما إلى الأرض المنخفضة ليتلذّذا ببلح النّخيل عشاءً، دون أن يغفل عن مراقبة القرية المترامية أمامه تحت السّور الشّاهق وقد شرع الظّلام يزحف على الأرض المنخفضة، لتبدوَ البيوت المنتشرة أمامه مشعّةً بأنوار باهرة. أسرع بالنّزول عن النّخلة وكأنّ ثمّة ما يشدّه لأن ينتقل من شجرةٍ لأخرى مُحكمًا قبضته على حصاته المشعّة، مدفوعًا بالدّهشة الّتي تملّكته عن آخره، حتّى استقرّ فوق

شجرة من البطم كبيرة معبعبة، تشبه شجر الفستق، حبّها مفرطح في عناقيد كالفلفل أو كحصرم الدّوالي، منحه ارتفاعه القدرة على تفحُّص بيوت القرية وطرفه عالق في أطراف السّور، يعلوه ويتأمّل بناءه بإعجاب كبير. لم يكن اللّيل قد ادلهمّ بعد.. والشّمس كانت لا تزال تبتعد وراء البحار فيما اصطبغت السّماء بلون الورد وهو الشّفق، وقد انعكس لهيبه على الأرض فأضاءها، لفت انتباهه حينها كومة من النّفايات في طرف القرية، غريبة الشّكل، كريهة الرّائحة، رجلٌ عجوزٌ يتسلّل إليه بهدوء، ويغرس أصابعه فيها بحثًا عن شيء ما، ثمّ يلتقط ما يدسّه في فمه ويمضغه إلى أن ابتلعه؛ ليشرع في غرس أصابعه مجدّدًا ويرفعها ممتلئة بأشياء غريبة دسّها في جراب يتدلّى فوق كتفه. وما أن انصرف الرّجل حتّى انطلق «**نولان**» إلى كومة النّفايات، فامتلأت خياشيمه بروائحها الكريهة... واشمأزّت نفسه فهي أشبه بمزابل الغابة الّتي تكوّمها الرّياح من السّرجين والسّرقين، وهي مزابل الحيوانات والطّيور، عافت نفسه المنظر، ومشى على الأرض إلى أن أصبح قريبًا من بعض بيوت اللبن فوثب فوق سطح أحدها متّخذًا إياه نقطة بدء لقفزاته المتتالية من سطحٍ لآخر. لم يحدّ من قفزاته إلّا رؤيته للرّجل العجوز الذي كان قبيل قليل يراه وحيدًا بين كومة المخلّفات. بينما

أسماله البالية ووجهه الشّاحب وتعثر خطواته أوحت لنولان بأنّ الطّعام القذر هو ما أدّى بالرّجل إلى هذه الحال، لم يصرف عنه عينيه، بل بقي مراقبًا إياه حتّى رآه يدخل بيتًا متداعيًا، أسرع حينها في امتطاء الرّيح وصولًا إلى سطح ذلك البيت ليجدَ الرّجل جالسًا إلى حصيرة تجاوره امرأة نحيلة ترتدي أسمالًا كأسماله، وولدًا يقارب العاشرة، وبنتًا تبدو أكبر سنًّا، لا أسمال تكسوهما فهما شبه عاريين، يمدّ الرّجل يده في الجراب، يخرجها ملأى بما التقطه من بقايا طعام من كومة النّفايات ويوزّعه على زوجته وولديه، تاركًا لنفسه منه القليل، ليتناولوا طعامهم معًا. مرّة أخرى يشعر «**نولان**» بالاشمئزازٍ؛ لعلمه بأصل ذلك الطّعام، كان عصيًّا عليه تقبّل ما يرى، فالقرود لا تأكل الزبل، والحيوانات لا تتغذّى إلّا بالأعشاب الطّازجة، والطّيور لا تطيب نفسها إلّا بالحبوب والثّمار، فكيف يأكل هؤلاء البشر الزبل والنّفايات؟! كبُر ذلك في نفسه، وتضاعف غثيانها، لا من الفقراء وما هم به من حرمان وجوع، بل من الطّعام الَّذي يضطرّهم جوعهم احتمال تناوله.

لم تكن قبضته قد انفكّت عن الحصية البرّاقة، خطر له أن يقترب من حافة السّطح حتّى أصبح فوق الرّجل تمامًا وألقى بالحصاة بين يديه، ليراه فجأة ينتفض ويتناولها بأصابعه، ويحدّق

فيها طويلًا، بعد أن أدناها من السّراج الزّيتيّ المضيء الغريب العجيب، زوجته وولديه ينظرون جميعًا بدهشة إلى الحصية فينقطع الصّمت بصرخة الرّجل هاتفًا: إنّها ماسة.. ماسة.. صخُب البيت المتداعي فجأة، الزّوجة تصفّق فرحًا، البنت تراقص الهواء بسعادة، والولد يحاول أن يلمس بطرف أغلته الماسة العجيبة! أمّا «**نولان**» فقد خانه ذكاؤه في تفسير ما يرى من عجائب، لكنّه أدرك أنّ ثمّة سرًّا يحيط بتلك الحصية الصّغيرة، وأنّ قيمتها عند البشر كفيلة بأنّ تبدّل أحوالهم وتسعد نفوسهم، واحتفاء الأسرة هو الدّليل. ولم يقطع تفكيره ذاك سوى صوت المرأة وهي تسأل زوجها: «هل هي حقيقيّة؟». فأجاب الرّجل: «إنها من أحسن الماس ومن أغلاه سعرًا». فأردفتْ: «كم تظنّها تساوي ذهبًا وفضّة؟». صمت لبرهة، ثمّ قال: «إنّ ثمنها لا يقل عن مئة وزنة ذهبيّة أو ألف وزنة من الفضّة!». لم يفهم «**نولان**» حرفًا واحدًا من حوارهما!... مجدّدًا يجيء صوت الزّوجة بدهشته الّتي ما برحته منذ سقوط الحصوة أمامها: «ولكن من أين سقطت؟». ليجيبها الرّجل بابتسامة: «سقطت من السّماء». انصرف «**نولان**» مأخوذًا باستكشاف المزيد من لوحات الفقر والعوز تحت أسقف هذه المنازل، يثب ويقفز من سطح إلى آخر ليرى ما تعمى عنه بصائر

البشر وأبصارهم، حتّى أصبح قريبًا من السّور، الذي لم يكن يعرف أنّه قائم حول «**ذات البهاء**» عاصمة مملكة «**أوسان**». استطلع بعينيه الحاذقتين، فرأى رجال الحرس منتشرين عند مدخل باب السّور الكبير، حركة الذّهاب والإياب المنتظمة فوق السّور. فقرّر التريّث قليلًا بعد أن استبدّ به الفضول لمشاهدة الأسوار وما وراء الأسوار. اسودّ وجه الليل، وتفشّى السّواد بين أنفاس الهواء، لكنّ عيني «**نولان**» ما زالتا تراقبان الأسوار، وحين تماثلت شريحة القمر للمغيب، أدرك أنّ الهزيع الأوّل من اللّيل قد مضى... فهبط إلى الأرض واجتاز الخندق العميق بثبات، إلى أن صار تحت السّور فتسلّقه بسرعة عجيبة، ثمّ هبط من حافّته إلى رصيف السّور العلوي العريض، فلم يرَ أحدًا، شجّعه ذلك على التسلّل واختلاس النّظر إلى البعيد، فلمح من بعيد ما أبهر عينيه، واستبى حواسه، حوريّةٌ بشريّة، رائعة الجمال، وضّاءة الوجه، تكوينها الظّاهري يشبه أولئك الذين رآهم يسكنون البيوت الفقيرة، لكنّها تبدو من فصيلةٍ أخرى فوجهها بدرٌ ناصع البياض، جيدها وساعدها كقطعتي ثلج وارفتين، هل هي مصباح القصر؟ أم إنّها جنيّة تقطن أطرافه؟؟ لا بُدَّ أن يرى هذا الملاك عن كثب! هبط بسرعة مجتازًا المسافات الّتي تفصله عن القصر، ووثب فوق سياج قضبانه من الخشب إلى

حديقةٍ أشبه بجنّة خضراء، باب القصر على مقربةٍ منه محاطًا بالحرس، لا بدَّ إذًا من الحذر فيتسلّق الجدران وصولًا إلى سطح القصر، لعلّه يلتقط أنفاسه ليستأنف المغامرة. اقترب من حافّة السّطح، أطلّ فرأى الشّرفة خاويةً، بابها مواربًا، لم يتردّد في الاقتراب، وما إن وصل جهة الباب حتّى فغر حواسّه دهشة، غرفة واسعة مضاءة بالشّموع، في قلبها يستقرُّ الأثاث الوثير والمقاعد، وسريرٌ أشبه بغيمة قرب الجدار، السّتائر مسدلة فوق نافذة كبيرة، وعلى مسافة منها، تنتصب مائدة تضمُّ مزهريّة محتضنةً باقة من الورد الأحمر، ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة، دنا من الباقة واستنشق رائحة أريجها فاستطابه، ليقطع دهشته فجأة وقع خطوات مقبلة، فتوارى خلف السّتارة. ثمّة فتاة تدخل إلى الغرفة تتناول أنبوبًا طويلًا وتغادر، لكنّها لم تكن هي ذاتها تلك الحوريّة الّتي خطفت بصره وهو على إفريز السّور العالي، تبعها ولو إنّها التفتت إلى الخلف لأصيبت بالجنون، فرآها تدخل إلى بهوٍ كبير مفعمٍ بالرّياش الفاخر، وتتّجه إلى الحوريّة الحسناء الّتي سبق أن رآها في الشّرفة، وقد بدت أشبه بملاك بثوبها القطني الأبيض الناعم، والضّوء يطوّق عنقها عقدًا ماسيًّا حبّاته صغيرة شبيهة بحصيته «**الماسيّة**»، فهزّ رأسه، وتتبّع بعينيه المنبهرتين حبّات العقد حتّى

وصلت إلى ياقوتة حمراء لم يرَ لها شبيهًا من قبل سوى عيني الدّيناصور، فهزّ رأسه مجدّدًا. تقدّمت الفتاة وسلّمت الأنبوب إلى الحوريّة فأخرجت منها رقًّا وشرعت في قراءته، ثمّ أعادته إلى أنبوبه وركنته جانبًا، اعتدلت في جلستها فوق مقعد وثير من خشب الورد، وضعت ساقًا فوق أخرى فتكشّف فخذاها الأبيضان!، بلع ريقه وشعر بلذّة لم يفقه لها معنىً، فهذان الفخذان لا يشبهان فخذي والدته المغطّيين بالفرو الأبيض. لكنّه أيضًا لم يفهم شيئًا من كلّ ما رأى، فازدادت حيرته من كلّ تلك الخوارق الّتي لم يستطع أن يكشف ما يحيط بها من غموض. وبينما هو غارقٌ في مزيج الدّهشة والحيرة والانبهار، نهضت الفتاة هيفاء ممشوقة القوام، تختلف شكلًا وقامةً وجمالًا عن جميلات قبيلته. ودخلت غرفة أخرى جانبية، فتسلّل «**نولان**» عائدًا إلى الغرفة الّتي خرج منها ثمّ انطلق إلى الشّرفة وتسلّق حائطها، حتّى بلغ السّطح، متّخذًا السّبيل نفسه الذي دخل عبره إلى القصر، نظر بحذر إلى الدور الأرضي، ومن الحديقة انطلق إلى السّور ومنه نحو بيوت الفقراء، قفزًا ووثبًا، حتّى وصل إلى أوّل المنخفض الأرضي، ليعودَ إلى الوادي الأخضر، وشجرة البنيان، معتليًا غصنها المفضّل عنده، ثمّ حانت منه التفاتة فرأى عيني أمّه تتلألآن كالياقوتة الّتي شاهدها مدلّاة من

جيد فتاة القصر. .. فأشار إليها بأنامله، ثمّ أحنى رأسه على صدره وغرق في النّوم والأحلام. استيقظ «**نولان**» صباحًا وخيوط الشّمس تداعب جبينه، فتح عينيه بخمول فلم يرَ أمّه بالقرب، فانطلق من مكانه فزِعًا، وبدأ القفز من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى أخرى، وكأنّه طائر النّهر يتجوّل بين أغصان الشّجر، إلى أن حطّ على التّينة الّتي تعوّد أن يتناول فطوره من تينها النّاضج، فوجد أمّه قد سبقته إليها، فألقى عليها تحيّة الصّباح: «طاب صباحكِ يا أمّاه!». لكنّها لم ترد التحيّة بل سألته معاتبة: «أين كنت ليلة البارحة؟». فأجاب قائلًا: «كنت أتجوّل في الغابة الشرقيّة». فسألته بدهشة قائلة: «أتتجوّل في الظّلام؟ ألا تخشى الأفاعي المتسلّلة بحثًا عن العشاء!؟» ردّ «**نولان**» ضاحكًا: «الأغصان الّتي كنتُ بينها لا تجرؤ الأفاعي على الاقتراب منها، فهي تفرز رائحة تنفر منها الحيّات، ولو تسلقتها وشمّت رائحتها لسقطت ميتة». مطّت الأمّ شفتيها ونظرت له بطرفها حانية معاتبة. أمّا «**نولان**» فأسرع نحو التّين يأكل منه بنهمٍ حتّى شبع، ثمّ انطلق إلى النّهر فغمس جسمه في مياهه الباردة، لعلّه يزيل الغبار المتلبّد بين شعيرات جسده، تسرّب الانتعاش إلى نفسه، فقفز من الماء إلى كومة من الرّمل الأصفر يُدلّك به جسمه لينغمس في النّهر مرّة أخرى بمرح،

وفرك شعر جسده بيديه، حتّى زالت الرّمال وازداد انتعاشًا، فصعد من النّهر إلى شجرة خرّوب ضخمة بعد أن نفض جسمه عدّة مرّات ممّا علق به من ماء واستوى فوقها ساعة من الزّمان حتّى جفَّ جسده تحت أشعّة الشّمس الحارّة، وصار كالعقيق صافيًا نظيفًا متوهّجًا. على مقربة منه كان ثمّة عندليب يغرّد بصوته الرّخيم، بينما أسراب طيور الخطّاف تعلو وتهبط فوق رأسه بسرعة خارقة، فهي تعشق أوّل الرّبيع، تأتي في رحلةٍ شاقّة طويلة من المنطقة القطبيّة الشماليّة إلى نهر النّيل محتفيةً به، ثمّ تعود أدراجها في أوّل تشرين. على شجرة التّين قبالته حطَّ هدهد شمسيّ اللون، أنيق الشّكل، جناحاه متعدّدا الألوان يهبانه فتنة وألقًا، لا سيما بوجود تاجه المنقّط على شكل مراوح بنات الملوك، هو آية من آيات الجمال. من بعيد أقبل سرب من القبابير ليروي ظمأه من مياه الخليج الرّاكدة، فشرب وارتوى ثمّ أطلق أجنحته للرّياح وهو يهتف بأثوابه المتموّجة بغنج ودلال. ذكر القبرة عادة لا يفارق أنثاه بتاتًا، فهما يرحلان معًا من سهول البلاد الباردة في أقصى شمال القارّة إلى سهول دجلة والفرات ونهر النّيل، وشبه الجزيرة، وذلك عبر رحلتين ذهابًا وإيابًا كالطّيور القواطع. عالم الطّيور حافل بالأناقة الّتي لا يفهمها البشر، يفكرون في الطّيور فقط حين يفكرون في

ملء بطونهم، ولا يدركون أنّ منها ما خلق لتلوين الطّبيعة وإسباغ الجمال والحياة عليها، ولا يكلّفون أنفسهم عناء معرفة نمط حياتها، عاداتها، تقاليدها، مواطنها، احتياجاتها، ولا يعلمون أنّ لها في الحبّ منطقًا يعلو منطق البشر؛ تشعر وتتألم، تفكّر وتتأمّل. إنّ مجرّد فكرة وضع السّكين على عنق الطّائر تجعلني أرتعد، فهو مخلوق حي، بل أنّه أكثر حياة منّا نحن المسمّون عبثًا «**بشرًا**». لو يتخلّى البشر عن أنانيّتهم ووحشيّتهم في معاملة المخلوقات الأخرى، لو يعاملونها معاملة زوجاتهم وأطفالهم، وأحبّائهم، لعاشت الطّيور مع البشر دون خوف من أيديهم وسكاكينهم، في مودّة مجرّدة من الأثرة والأنانيّة، وفي حبّ متبادل، تلك رؤية أحد الفلاسفة الحكماء... اختلط المشهد بالمشهد، والطّير بالطّير، والفنّ الإلهي ينبئ عن ذاته في المكان، و «**نولان**» أمام ذلك كله لا يمتلك إلّا أن يتأمّل بسعادة وبإقبال على الحياة يعلو لحنه ويتموسق في ذاته، مُطعّمًا ذلك كله بالوجه الملائكي الذي لم يفقه منه أكثر من ملامحه الجميلة.

الفصل الرابع

غادر «**نولان**» مجثمه متوجّهًا إلى الأرض البركانيّة في رحلة ذهاب وإياب استغرقت من يومه ساعتين، ثمّ عاد وفي يده ثلاث «**حصيات**» كتلك الحصاة الماسيّة؛ اثنتان منها بحجم بيضة العصفور الدوري والثالثة وهي ماسة رائعة بحجم بيضة الحمام الزّاجل.

حين أمالت الشّمس وجهها انطلق «**نولان**» إلى غابة الموز فأكل واستمتع حتّى شبع، ثمّ راح يتجوّل فوق الأغصان والفروع ليهب عينيه بهجة بجمال طيور الشرقرق[1] بلونها الزمرديّ الزّاهي، ويدعى الطّائر منها بالأخيل؛ لأنّها تتخايل في الجو أسرابًا كثيرة التّحليق واللّعب والتّصويت، إذا ما خلا الجو من الصّقور والبواشق. استرقته السّاعات وهو يتأمّل تلك اللّوحة الربانيّة، قبل

(١) ما يُعرف اليوم بـ«**الوروار الأوروبي**»

أن يتوجّه إلى الأرض المنخفضة ويكمل لذّة حواسه بتناول البلح والتّمر العاقد.

لم تنسِه تلك اللّذة أن يمرّ بشجرة البطم المطلّة على منازل القرية الفقيرة، يراقب الآتي والغادي منها وإليها، يمعن في ضوئها وإظلامها، ألبسَ بصره هذه المرّة على مشهد امرأة بأسمالَ رثّةٍ برفقة بنتين لم تتجاوز كبراهما الثانية عشرة من عمرها، وغلامٍ يجرّ الخطوات معهن، متّجهين نحو أكوام النّفايات. كانت المرأة تتأبّط شيئًا ما بدا كأنّه جرابٌ، وتبحث مع أولادها عن طعام سائغ لم يتعفّن بعد، تملأ به الجراب، ويغادرون معًا إلى البيت الذي لم يكن بعيدًا عن مكان النّفايات.

تسرّب الأسى إلى نفس «**نولان**»، إذ كيف يمكن أن ينام البعضُ على الغيم، بينما هناك من يتوسّد الأشواك؛ كان عليه انتظار حلول الظّلام، هبط حينها إلى الأرض بحذر شديد، ومشى تحت جناحه متسلّلًا إلى بيت المرأة الفقيرة، ووثب إلى السّطح واقترب من حافّته، وأطلّ برأسه نصف إطلالة فشاهد العائلة المتكدّرة الحظ تتناول عشاءها بصمت.

اقترب والحزنُ يستبدُّ به لحال هذه الأسرة الصّغيرة، إذ كيف

لإنسان أن تغدو له النّفايات مصدر غذاء . . .!؟ كان عليه أن يفعل شيئًا ما ليهبهم السّعادة والابتسامة، ولم يجد ثمّة خيار سوى حصواته الماسيّة، نقلها إلى يده اليسرى والتقط بأصابعه الدقيقة إحدى الحصيات الصّغيرة الّتي استقرت في حضن المرأة، فجزعت لكنّها أخذت تقلّبها كخبير في الأحجار، ثمّ عرضتها على ضوء الشّمعة وأخذت تتفحّصها بعناية.

ثمّ هتفت بفرح: «وحق السّماء إنّها من الماس. . . أيّتها السَّماء ما أكرمك**!**».

لم تكن تعلم أنّ الكريم فعلًا هو «**نولان**» وليست الآلهة، حدّق الأطفال بأعينهم البرّاقة في الماسة، وتساءلت البنت: «أحقًّا هي ماسة يا أماه**!**؟».

فردّت عليها أمّها قائلة: «إي وحق الآلهة، انظري إليها كيف تتألّق في نور الشّمعة».

شعر «**نولان**» بسعادة بالغة لأنّه قام بعمل جيد، وهبَّ من مربضه إلى سطح آخر وأطلّ من فوقه، فرأى في عقر الدّار بنتًا مراهقة وولدين صغيرين يبكيان من فرط جوعهما، والبنت تُصبّر أخويها وتعلّلهما قائلة: «الآن تعود أمّنا ومعها الطّعام».

ثم هبّت على قدميها فجمعت أجذالًا من العيدان النّاشفة وبعض الحطب، ووضعتها في حفرة بين ثلاث أثاف ثمّ دفعت فوقها قدرًا فيه ماء، وأدنت شمعتها من الأعشاب الجافّة فاشتعلت النّار.

في هذه اللَّحظة دخلت الأم، فأسرع الولدان وتعلّقا بأمّهما، قال أكبرهما: «أخي الصّغير لم يكف قط عن البكاء لأنّه جائع».

فسألته أمّه: «وأنت، ألست جائعًا؟». فاستحى وأطرق برأسه.

وأردفت قائلة والحزن يعصر قلبها: لحظات يا أولادي ويكون العشاء جاهزًا».

وأخرجت من جرابها وعاء، ثمّ تناولت بأصابعها منه بعض الدّهن ووضعته وسط الماء في القدر وذرّت فوقه قليلًا من الطّحين اللَّبن المجفّف. ثمّ نثرت جعبتها فتساقطت منها قطع الخبز اليابس. كانت المسكينة تتسوّل لجمع ما تيسّر من الطّعام لإطعام فلذات كبدها.

فسألتها ابنتها: «ألم تذهبي إلى باب الهيكل الأعظم؟» تنهدت الأم وأجابت قائلة: «ذهبت وانتظرت طويلًا، ولكن الناس كانوا

غافلين عن الفقراء باستقبال الأمير «**يشجب**» الذي جاء ليؤدّي الصّلاة في هيكل «**بلو**».

واسترسلت أمّها قائلة: «لقد حضرت اليوم إلى الهيكل كلّ حاشية الأمير وأقرانه وقادته والتّجار في الحلل والأثواب البرّاقة من الكتّان النّفيس والقطن النّاعم، والرّوائح العطريّة تفوح من أردانهم، لكنّ رائحة البخل المنبعثة من جيوبهم كانت أقوى، وكذلك رائحة اللّؤم والكزازة والكذب والنّفاق».

وأردفتْ: «وبعد قليل انقضّ علينا الجلاوزة والأشراط وطردونا عن باب الهيكل.. بعدما أشبعونا ضربًا وشتائم، والمتسوّلون يصيحون: تصدّقوا علينا من أموال «**بلو**».. أليس «**بلو**» كبير آلهة «**أوسان**»؟!

يا آكلي المال الحرام!

ثم أقبل الأمير «**يشجب**» في موكبه الفخم منتفخًا كالقربة، وحول رأسه قلنسوة من ديباج الصّين مرصّعة بالماس واليواقيت، ممتطيًا جوادًا كريمًا اغتصبه من اسطبل أخيه الملك الرّاحل. مرّ على الناس المقموعة بسياط مرتزقته، ليشرف على الذّبائح، ممرّرًا عليها يديه، على أنّها تقدمة منه، ثمّ أدّى وحاشيته الطّقوس

وروائح البخور تتصاعد تزهق الأنفاس وانصرف دون أن يتصاعد من أفواه الجماهير والمشاهدين صوت أو هتاف أو دعاء، لشدّ ما هو مكروه ذلك المخلوق المتغطرس الذي سحق أنظار الناس بعجرفته وكبريائه وطغيانه».

رفعت المرأة القدر عن النّار وألقت محتوياته في قصعة كبيرة، وزّعت الخبز على أطفالها فتلاصقوا ومدّوا أيديهم يأكلون، وحين أنهوا طعامهم ورفعوا ما تبقى منه على أمل أن يعودوا لأكله فيما بعد، جلست البنت أمام أمها والولدان على جانبيها، لتجيء ماسة «**نولان**» في حجرها، هبّت لمرآها ثمّ تناولتها بأصابعها وهي خائفة، وراحت تقلّبها غير مصدّقة، وعيون أطفالها ترمقها بلهفة وفضول.

ندت عن صدرها تنهيدة حارة وقالت: «شكرًا لمن أسقط علينا فضلة من إحسانه وكرمه» ورفعت رأسها إلى الأعلى، ولكن «**نولان**» ردّ رأسه بسرعة فلم تره في الظّلام الحالك.

وسألتها البنت: «ما هذه الخرزة يا أمّاه؟».

فضحكت وقالت: «إنها خرزة من عيون الماس».

وبقيت الماسة الكبيرة في قبضة «**نولان**»، فأسرع وارتقى

السّور بحذر وبعد لحظات كان في حديقة القصر يتطلّع إلى شرفة الفتاة، في الدور الثاني، فرأى غرفتها مضاءة، وبوثبات سريعة وصل إلى سطح القصر.

وأطلّ من حافّته فرأى باب غرفة الفتاة مواربًا والسّتائر فوقه مسدلة، وبينها فرجة، فنزل إلى الشّرفة وأطلّ من بين السّتائر، رأى الفتاة واقفة أمام مرآة كبيرة من الفضّة المصقولة، تكاد تكون في طولها، ثمّ شرعت تخلع ملابسها قطعة بعد أخرى حتّى أصبحت عارية تمامًا فلم يرَ منها سوى ظهرها.

لكنّه رأى وجهها مع سائر قوامها الرّشيق منعكسًا في المرآة فتعجّب. . . لا من عريها، لأنّ كلّ القرود عراة إناثًا وذكورًا، ولكن لخلوّ جسدها من الشّعر أو الفراء كان ظهرها أبيض مشربًا بالحمرة، ناعمًا كالبريم، وردفاها أكبر من ردفي أمّه «**نايان**»، رأى جيدها الأغيد مطوّقًا بعقد من اللؤلؤ يختلف شكله ولونه الأبيض عن لون الماس النيلي، ونهديها متحفّزين للوثوب من صدرها و. . . !

راحت الفتاة تدور لتشاهد ظهرها في المرآة فأصبح وجهها مقابلًا له، ورأى ما رأى. . . .! ثمّ غادرت الغرفة بسرعة، فولجها «**نولان**» ورأى فوق السّرير رق غزال مخطوط بكلمات سود، وإلى

جانبه كيس صغير تناوله بيده، فسقط منه حق من العطر، ترك الحق فوق السّرير وأخذ الكيس الأزرق الصّغير وثنى عليه أصابعه ثمّ وضع الماسة الكبيرة فوق الرّق وعاد إلى الشّرفة متجنّبًا أن تعود الجميلة وتراه.

وبعد لحظات عادت الفتاة إلى مخدعها وهي تحمل في يدها صندوقًا من الخشب المطعّم بالفضّة؛ فانتزعت من جيدها عقدها اللؤلؤي ووضعته في الصّندوق وأغلقته.

أدارت وجهها إلى السّرير وهي في منامتها الورديّة الّتي زادت توهّجًا لالتصاقها بجسدها الأبيض المشرب بالحمرة، فظهر كلّ ذلك الجمال الأنثوي فاتنًا أمام الشّمعدان الفضّي وشموعه المتوهّجة.

وقعت عيناها على الماسة المتألّقة فوق الرّق فجفلت وعادت خطوة إلى الوراء ورفعت عينيها إلى سيفها المُغمد في غمده الذّهبي المعلّق على الجدار ثمّ ضحكت ساخرة من نفسها.

«أتخافين من ماسة؟».

خاطبت نفسها وهي تهمس بهذه الكلمات، ثمّ اقتربت من الفراش وتناولت الماسة بأناملها وراحت تتفحّصها بعناية وتدقيق

ثمّ تمتمت بصوت خفيض: «إنها ماسة رائعة.. ولكن من أُتى بها؟ كيف وصلت إلى سريري في مخدع نومي».

ولاحت منها التفاتة إلى مرآتها الفضيّة فرأت عينين عجيبتين تنظران إليها من خلال السّتائر، فابتسمت، ورفعت عينيها مرّة أخرى إلى السّيف لكنّها أمسكت يدها وتراجعت ثمّ توجّهت نحو السّتائر، لكن «**نولان**» رآها وهي تدنو من السّتائر فوثب إلى سياجها الخشبيّ وتسلّق الجدار متشبّثًا بحافّة السّطح، ولما اعتلى الحافّة رأى الفتاة الجميلة الهيفاء تنظر إليه فاستحى وانطلق مولّيًا، مسرعًا في الهبوط من فوق أفاريز الشّرفة إلى أن حطّت قدماه على أرض الحديقة، فرأته «**شمس**» وهو يعبر الشّارع الطويل مستترًا بالأشجار والجدران حتّى بلغ السّور فتسلّقه برشاقة وخفّة، ولما اعتلى السّطح أرسل نظره إلى شرفة الفتاة فرآها تراقبه، فتابع مسيرته وانحداره وتوثّبه عائدًا إلى غابته.

استثار القرد الأشقر تفكير «**شمس**»، فقد تكبّد كلّ تلك المشاق للوصول إلى شرفتها ورؤيتها ليقدّم لها ماسة نادرة، فتمتمت: «يا له من قرد أشقر جميل».

وكان الرّق في حجرها وهو الرّسالة الّتي أرسلها «**مالك**»، الملك المنفيّ.

وكانت قد قرأتها مرارًا عديدة واستوعبتها حتّى حفظتها عن ظهر قلب، وظلّت تكرّر قراءتها، ليخفق قلبها مع كلّ مرّة بشدّة، وتتحرّك في حناياها لواعج الغرام، لكنّها كانت فارسة قويّة، رابطة الجأش، تتحلّى بالصّبر والجلد، وتعلم جيدًا أنّ ابن عمّها يجتاز مرحلة دقيقة، لأنّ والدها مصمّم على إزاحته عن العرش بإحدى مكائده الشّريرة، ولو إنّها نظرت إلى مرآتها الفضيّة في تلك اللّحظة لرأت وجهها أصفر كالكهرمان، فقد كانت تحب مالكًا. . . وتشعر بالأسى وخيبة الأمل من تصرفات والدها المستهجنة بعد أن بلغ أرذل العمر.

وهكذا شغلت نفسها بالتفكير في حبيبها «**مالك**»، والأخطار المتربّصة به. . و. . والدها الطمّاع.

وأخيرًا مرّ تفكيرها بالماسة والقرد، فهتفت: «ليت شعري! من أين جاء بها». لكن ذكاءها أنجدها بسرعة بعدما عادت إلى تفحّصها فتمتمت قائلة:

«هذه ماسة خام عثر عليها القرد الأشقر، في تربة بركانيّة قريبة من غابته. .».

وبقي في نفسها بعض الشّك، فوضعت الماسة في الصّندوق الصّغير، فوق عقدها اللؤلؤي، ونامت.

استيقظ «**نولان**» بعد طلوع الشّمس، وانتشار أشّعتها الذّهبيّة فوق عالمه الأخضر الحافل بالجمال والعجائب، فأسرع لتناول فطوره من توت شجرة عليق، ثمرها عنّابي اللّون وشرابه حامض على حلو مستساغ، ثمّ انتقل إلى شجرة تين أسود فأكل منها مليًّا وأسرع بعد ذلك إلى النّهر، فاغتسل بمياهه الباردة واستلقى فوق الشّاطئ ريثما يجفّ فراؤه العقيقي الأشقر.

وراح يستحضر أخيلته ومشاهده في الليلة الفائتة، محاولًا التّمييز والمقارنة بين خلقته وتكوينه، وخلقة وتكوين الفتاة البشريّة الجميلة، فوجهه الأشقر يختلف عن وجهها الأملس الخالي من الشّعر، وكذلك جسدها المورد، لا يشبه أجسادهم.

كان «**نولان**» ذكيًّا بما يكفي ليدرك إنّها من فصيلةٍ أخرى، هو لم يعرفْ قطّ شيئًا عن البشر، ولم يدرِ بهذا المخلوق المناقض لتكوينه ولا بوجوده حتّى، لكنّه تمتم بينه وبين نفسه: ما أنت إلّا مجرّد قرد، وأين الثّرى من الثُّريا؟!

لم يكُن يدرك أنّه بما يتمتّع به من كرمٍ وأريحيّةٍ ونبلٍ خيرٌ من بعض البشر وأنانيّتهم وجبروتهم، عطفه على الفقراء من الناس، ومبادرته الخيّرة لمساعدتهم وإسعادهم، كانت في الوقت الذي فيه

يمارس الطّغاة أعتى أنواع الظّلم والخِسّة، لم يعلم أنّ في جوهره خيرًا حقيقيًّا بما تحمله الكلمة من معانٍ.

وفي طريقه للعودة مرَّ من أمامه قطيع من الحمر، أو ما يعرف بحمار الزّرد، فرآها تتوثّب سعيدة بحريّتها واستقلالها وجمال جلودها وسرعتها الفائقة، وأيقن أنّها ممتلئة الخواصر من الريّ والشّبع، وذلك حسبها، فالغابات كلّها عالمها لا أرسال ولا براذع ولا عِصيّ ولا مطارق تلهب ظهورها، لم يحدثه أحد بقصة ذلك المكاريّ الذي كان يؤجّر حماره ويعيش هو وأسرته من أجرة الحمار، وفي المساء يقدّم لذلك الحمار المظلوم نصف وجبة من الشّعير.. معلّلًا ذلك بقوله: «إذا أشبعته أصيب بالتّخمة والكسل والخمول..» قتل الله المكاري ما أكفره!...راح «**نولان**» يشحذ أفكاره، ويقلُّبُ في ذهنه ما مرّ به وما رآه، فبات على قناعة بأنّ من حسن حظّ الحيوانات البرّيّة إنّها لم تقع تحت رحمة البشر؛ وإلّا استعبدوها كما استعبدوا الإبل والجياد والحمير والبغال، وغيرها من الحيوانات الّتي تآلفت مع دنياهم.

كان كيس «**شمس**» إلى جانبه وهو يتشمّس على ضفّة النّهر الجميل وكلّما جفّت يداه تناوله بين أصابعه ورفعه أمام عينيه، ثمّ

أدناه من أنفه وراح يشمّه، ليسكر من رائحة الخزامى الفوّاحة من ديباجه.

تذكّر بأنّه يعرف جيدًا أين توجد أحواض الخزامى في الغابة، وشعر بأنّ النّعاس يوشك يحكم عليه قبضته، فآثر الانطلاق إلى الأرض البركانيّة بحثًا عن مزيد من الحصيات المتلألئة..عثر على خمس منها فوضعها في الكيس وعاد أدراجه إلى الغابة، وهو يعدّ نفسه لمغامرته الثالثة بين البشر، أمّا «**شمس**» فقد كانت تترقّب هبوط الظّلام وهي موقنة بأنّ القرد الأشقر الجميل سيعود، فقرّرت أن تترك باب الغرفة مواربًا، وتتّخذ لنفسها موضعًا قريبًا من النّافذة.

في طريق عودته عرج «**نولان**» على أحواض الخزامى وألقى بجسده فوقها متمرّغًا جذلان .. ففاحت من شعره وجلده رائحة الخزامى النفّاذة، وأسرع عائدًا إلى الغابة فأكل بضع موزات، ثمّ انطلق إلى غابات المنخفض، تسلّق شجرة البطم وكمن في داخلها.

بعد وصوله بقليل، تجدّد المشهد أمام عينيه، وكأنّما قد بات مشهدًا مبرمجًا، رأى رجلًا عجوزًا يدنو من أكوام النّفايات باحثًا عن شيء من الطّعام على وجه القمامة، ملأ من الموجود جرابه وانصرف مطأطئ الرّأس، مكسور النّفس، مجروح العزّة، كحال

أيّ رجل يعود إلى بيته المتداعي. وتلته امرأة فقيرة، صادر الأغنياء بستانها الذي كانت تعيش من ريعه، فعثرت على كسر من الخبز، وضعتها في سلّة صغيرة من الخوص، وعادت أدراجها نحو بيتها وهي تتنهّد وتتحسّر على فقدان بستانها المثمر، راقبهما «**نولان**» بأسىً وحسرة، حتّى دخل كلّ منهما منزله متواريًا عن الأنظار.

مرّ الوقت وأسدل الليل سرباله، الليل ساتر العيوب والمخازي، وساتر خطوات «**نولان**» الّتي لم تكن ترمي لغير الخير، انتقل إلى سطح الرّجل الفقير فوجده يتناول عشاءه برفقة زوجته العجوز، فألقى حصاته الماسيّة في حضن الزوجة، وهرول نحو سطح جارته، الّتي كانت برفقة بناتها الجميلات، بالرّغم من الفقر والفاقة، والأسمال المهترئة يتناولن عشاءهنّ من كسرات الخبز الّتي عثرت عليها الأم، فرمى في حضنها حصاة الماس وعدا واثبًا يراقب الطّريق.

عندئذ رأى رجلًا أعمى يسير في طريقه مهتديًا بعكّازه، كشكوله متدلٍّ من تحت إبطه، مما يوحي بأنّه متسوّل، فاحتار كيف يمكن أن يصل إليه ويضع الماسة في يده، انتظر حتّى صار الأعمى قريبًا من جدار السّطح الّذي يراقب من فوقه، فوثب إلى الأرض، ودسّ الحصاة الماسيّة في يده، ثمّ عاد إلى السّطح، بحثًا عن

الفقراء والمعوزين والمهمّشين، فكانت إحدى الماسات من نصيب فتاة راقه جمالها ولم ترقه أسمالها.

لم يبقَ في كيسه سوى كبرى الماسات، الّتي يماثل لونها زرقة السَّماء، وذلك أجود أنواع الماس، وقد صمّم أن يبقيها في الكيس ليهديها إلى فتاة القصر.

في ذلك المساء أقام الوصيّ «**يشجب**» وليمة كبرى لمؤيّديه ومناصريه من الأغنياء والتّجار والكهنة، قدّم خلالها الأطعمة في صحون وصحاف من الفضّة، تتوسّطها جفان الفضّة رصفت فيها الخرافُ المشويّة، والعجول المقليّة، وأخرى مفعمة بأنواع مختلفة من الأطعمة والفاكهة ومياه الورد المحلاة، يطوف حول الحاضرين غلمان يحملون المباخر المذهّبة، الّتي ملأت المكان بالعطور والرّوائح الزّكية.

أمّا «**شمس**» فقد أعدّت لضيفها طبقًا من الفاكهة، وآخر من الحلوى، لعلمها بأنّ القرود لا تتناول سوى النباتات والفاكهة، وراحت تتردّد على الشّرفة مصوّبةً عينيها نحو السّور، لعلّه يجيء بصديقها الطّارئ.

وقبل أن ينتصف الليل، رأته فوق السّور يتسلّل بحذر بعيدًا عن الحرّاس، ثمّ ما لبث أن هبط فوق الطّريق العام متواريًا بالأشجار

القائمة على جانبيه، فغادرت إلى غرفتها وتركت الباب مفتوحًا، وما هي إلّا لحظات حتّى كان «**نولان**» فوق السّطح مطلًا برأسه الصّغير على الشّرفة، فوجدها خالية، نزل واقترب من الباب فرأى «**شمس**» جالسة أمامه، بثوبٍ عنابيٍّ من القز، وعيناها تشعّان بهجة وسرورًا، جمع أطراف شجاعته، ودخل الحجرة، فبادرته بابتسامة، وردّ بابتسامة، ورأى حصيته الماسيّة بين أصابعها تشير بها إليه شاكرة.

ففتح قبضته ليظهر كيسه الصّغير وأخرج منه الماسة الزّرقاء ونزل عن المقعد وقدّمها إليها فتناولتها منه شاكرة، وسمعها تقول كلامًا لم يفهم منه حرف، وخاطبها بلغته، فعسر عليها فهمها، ولم يكن أمامهما سوى التّخاطب بإشارات اليدين.

قالت له «**شمس**»: «أشكرك على هديّتك الجميلة، ولوّحت له بماسته الزّرقاء، ثمّ قبّلتها ووضعتها على رأسها..».

ولما كان التّقبيل مألوفًا عند القرود فقد أدرك بأنّها تحيّيه وتشكره على هديته الماسيّة، فقبّل أطراف أنامله ورفعها إلى رأسه، وتناولت الجميلة طبق الفاكهة وقدّمت له كمثرى ناضجة شهيّة تناولت منها واحدة وراحت تأكلها أمامه فجاراها.. وتناول بدوره حبّة كمثرى وراح يقضم منها بشهيّة، ثمّ أطعمته تفّاحًا وبعض

الحلوى فراقته الحلوى، والتهم منها كثيرًا وقضيا وقتًا يتفاهمان خلاله بالإشارة والأصابع، إلى ما بعد منتصف الليل.

وفجأة رآها تتثاءب فعلم إنّها تريد أن تنام، فتثاءب بالمثل ونزل عن المقعد، وقبّل أطراف أنامله ووضعها فوق جبينه، ففعلت مثله وانطلق خارجًا نحو الشّرفة ومنها إلى السّطح.

أسرعت إلى الشّرفة لكي تشيّعه بنظرها، فرأته يعبر الشّارع ويتسلّق السّور بسرعة مدهشة، ثمّ وقف والتفت نحو الشّرفة وألقى نظره عليها واختفى في الظّلام عائدًا إلى مملكته العذراء في الوادي الأخضر.

الفصل الخامس

بعد شهرين من إرسال الوفود المحمّلة بالرّسائل من قبل الملك «**مالك**» إلى أقيال ولايات مملكة «**أوسان**»، يستنهض فيها هممهم ويستثير نخوتهم لمساعدته على استرداد عرشه وحقوقه، استجاب الأقيال لدعوته؛ وأقبلوا بكتائبهم ومتطوّعيهم وما لديهم من صُنّاع الأسلحة نحو قلعة «**تاريم**».

وكان الملك يخرج يوميًّا مع الحكيم «**الصّاحب بن عبد مناة**» وكبار القادة إلى خارج القلعة لاستقبالهم في موكب ضخم احتفاءً وتكريمًا لمقاماتهم ومراكزهم السّامية في المملكة، حتّى بلغ عدد الأقيال الملبّين لاستغاثته خمسة وعشرين قيلًا يقود كلّ واحد منهم ما بين كتيبتين وخمس كتائب، بالإضافة إلى الشّبان المتطوّعين من ذوي الخبرة والحميّة، وأسندت قيادة الجيش لصباح الجذلي وقيادة الرّماة لزهير بن الأصبح.

وبهذا العدد الكبير أصبح لدى الملك أربعون ألف فارس

وجندي، منهم خمسة آلاف فارس وأكثر من خمسة وثلاثين ألف جندي من المشاة والرّماة، وقد عيّن الملك للفرسان قائدًا هو «**أسد الجشمي**»، أمّا المشاة فكان قائدهم «**جندل الخزاعي**». ومع ذلك لم تنقطع سيول الوافدين من المتطوّعين.

وأحضر كلّ قيل معه ما يكفي من الخيام والسّرادقات والأسلحة والمؤن، كما حضر العديد من صنّاع الأسلحة بمعدّاتهم وما لديهم من خامات الحديد والنّحاس والمصنوع منها كالبرونز.

فضُربت الخيام والسّرادقات خارج القلعة بنظام أشرف عليه القادة، كما ضُربت الخيام الواسعة لرجال الصّناعة وذوي الحرف، وجُمعت المؤن وصُنفت وخُزنت في داخل القلعة وصارت توزّع بأوقاتها على الكتائب، وبوشر في تدريب المتطوّعين، وهكذا دبّت الحياة في جميع المعسكرات، وضمّت فيالق الفرسان إلى بعضها البعض وكذلك كتائب المشاة من الرّماحة والرّماة.

وعكف القادة على دراسة ومراجعة خططهم الحربيّة، وتنظيم المناورات الحربيّة وتطبيقها على الأرض.

كما عكفت التّشكيلات العسكريّة على شن معارك صوريّة في

الميدان من مبارزات وقتال ومطاردات واقتحام، وكرّ وفرّ ونصب كمائن، وما تتطلّبه الأعمال الحربيّة من جد واجتهاد ومثابرة.

وفي هذه الأثناء وصلت أنباء مقلقة من «**ذات البهاء**» تنبئ بأنّ ملك «**الأحباش**» «**ترهاقا الثاني**» اقتحم حدود مملكة «**أوسان**»، بعد أن عبر إليها عن طريق البحر الأحمر، فوجلت القلوب واصفرّت الوجوه، ثمّ انفجرت عاصفة الحميَّة في جميع الصّدور وانسلّت السّيوف، وأشرعت الرّماح واهتزّت قبضات الأيدي غضبًا وتحمسًا، وارتفعت الأصوات تهديدًا للعدو بدحره وهزيمته.

لكن الحكيم «**الصّاحب**» ما لبث أن هدّأ ثائرة الجيش الصّاخب النّاقم، وأعاد إليه السّكينة والنّظام عندما قال: «ليست هذه هي المرّة الأولى الّتي نحارب فيها «**الأحباش**»، وقد كنّا دائمًا على حذر منهم، مستعدّين لملاقاتهم، بالسّيوف القواطع الّتي هزمناهم بها من قبل».

وأضاف بصوته الهادئ الوقور: «لقد كنا نتوقّع غدرهم وزحفهم على بلادنا لذلك تأهّبنا لكل الاحتمالات؛ واتّخذنا استعداداتنا اللازمة».

وطلب الملك من جميع القادة أن يكونوا في أتم استعداد للانتقال إلى «**ذات البهاء**» قبل وصول الأعداء إليها.

في تلك الأثناء كان «**يشجّب**» ممتطيًا صهوة العرش الذي اغتصبه، يعدّ مع وزيره «**ابن مرشد**»، مؤامرة جديدة للإيقاع بالملك، وكمائن تنطوي على قسوة بالغة لاصطياده، حين جاءت الرّسل من الحدود الجنوبيّة الغربيّة تحمل إليهما أسوأ الأنباء عن ظهور القوّات «**الحبشيّة**» المفاجئ على شواطئ المملكة، فانقلبت مؤامراته وكمائنه رأسًا على عقب وأسقط في يده، لعدم استعداده واتّخاذه الاحتياطات من قبل لكل الطّوارئ والمفاجآت، فجمع قوّاده وأركان المملكة لاستشارتهم.

ولأنّه لم يضع هذا الأمر ضمن حساباته، فقد أهمل تقوية الجيش وتعزيز التّحصينات كما لم يهتمّ بإرسال الجواسيس للجانب الآخر من البحر الأحمر، ليكون على علم واطلاع دائمين بما يجري في الممالك المحيطة من استعدادات وتأهّب لغزو بلاده ونهبها واحتلالها أيضًا، لذلك تحوّل الغزو غير المتوقّع إلى مفاجأة مروّعة، فلم يدرِ كيف يتصرّف؛ وهو الذي أمضى السّنوات العشر الماضية في إعداد المؤامرات والكمائن للانقضاض على الملك الشّرعي ابن شقيقه والإطاحة به، بعد أن ائتمنه والده على الوصاية ووضع مقاليد المملكة بين يديه، والآن وبعد أن بُوغت بالغزو، لم يعد يدري ماذا يفعل!!

فلما اجتمع قادة الجند والأعيان؛ لم يستطع مقاومة نظرات الاتهام وخيبة الأمل الّتي واجهه بها قادته ورجال المملكة، ولما اقترحوا عليه وجوب إرسال وفد عاجل محمّل برسالة إلى الملك الشّرعي، ودعوته لتحمّل المسؤوليات الجسام والعودة إلى «**ذات البهاء**» وتسليمه زمام الحكم ليدافع عن البلاد، استخزى واستسلم وأقرّ الاقتراح.

كان يعلم أنّ القادة الذين قدّموا الاقتراح يستهزئون به، ويسخرون من عجزه، وقد هتف بعضهم في وجهه متحدّين: «مملكتنا في خطر، وماذا عساك أن تفعل؟ والرعيَّة ناقمة عليك والأسرة المالكة تهاجمك في السر والعلن!».

أدرك أنّ عجزه وشيخوخته المبكّرة وعدم لياقته للحكم، وتقصيره في مجابهة الأخطار المحدقة بالبلاد، هي السّبب لهذه النّقمة، إذ أنّ تلك الأخطار تحتاج إلى رصّ الصّفوف، وإعادة الثّقة في قلوب القادة والجنود والرعيَّة بصورة خاصة، وإلى قائد شجاع حازم ليملأ الفراغ، يقود الجيوش للدّفاع عن «**أوسان**»، وفي ذلك إشارة واضحة إلى ملك البلاد الشّرعي.

الصّيحة كانت مدوّية أكثر مما يمكنه مقاومتها؛ فطلب من وزيره «**ابن مرشد**» كتابة رسالة عاجلة إلى ملك البلاد وإرسالها مع

وفد من الأعيان والقادة الحامين للعرش والأسرة المالكة إلى الملك الشّاب الذي يعيش في منفاه. كُتبت الرّسالة وفيها رجاء حار للملك، ودعوة صريحة بوجوب عودته حالًا للدّفاع عن الوطن المهدّد بالغزو، والإشراف على أجهزة الدّفاع وقيادة الجيش وتحمّل المسؤوليّة الكاملة.

وانطلق الوفد الكبير بالرّسالة إلى ملك البلاد الشّرعي، وهذا يعني انقضاء عشرة أيّام على الأقل حتّى يصل الوفد إلى قلعة «**تاريم**» لإقناع الملك بالعودة، وما يتطلبه ذلك من استعداد وتأهّب حتّى يتمكّن الملك من اتّخاذ القرارات الحاسمة لمجابهة كلّ الاحتمالات.

حينئذٍ كان سكان القُرى على الحدود وفي داخل البلاد قد أخلوا قراهم وهجروها، وهم في حالة ذعر شديد.

كان الرجال يسوقون مواشيهم محمّلين بما خفّ حمله في تلك الرّحلة الطويلة المجهولة الّتي فرضها عليهم الغزو، والنّساء يحملن أطفالهنّ الرّضع، ويسقنَ أمامهنّ صغارهنّ من أبناء وبنات، وهنّ مسرعات، حتّى إن وقع منهنّ شيء، تجاهلنَ سقوطه، مبتعدات عن طريق الغزاة؛ كي لا يقعنَ سبايا في أيدي «**الأحباش**».

غادر «**يشجب**» القصر حزينًا يائسًا متوجّهًا إلى مقر ابنته «**شمس**» للاسترشاد بآرائها الصّائبة، على أمل أن تساعده على حلّ مشاكله المتوقّعة مع الملك والأسرة المالكة والرعيّة النّاقمة عليه. استقبلته الأميرة بشجاعة وتجلّد، مرحّبة به بعد أن طوت أحزانها في أعماق جوانحها، فقبّلها في خدّيها قائلًا: «لم يبقَ لي إلّاكِ في هذه المدينة الحاقدة النّاقمة».

فقالت: «إنّ البلاد على عتبة محنة شديدة يا أبتي، افتح قلبك يغمرك الحبّ والعطف».

فهزّ رأسه بيأس قائلًا: «لقد سبق السّيف العذل، لم أستمع في الماضي إلى نصائحكِ عندما وضعتُ زمامي في يد الطّمع، وقد صدمتكِ في أعزّ أمانيك؛ وعاديت الشّاب الذي كان ينبغي أن يكون الآن خطيبك».

فاعتصمت «**شمس**» بالصّمت، لأنّها كانت تعلم أنّ اعترافات والدها جاءت متأخّرة جدًّا، وتراءت له زاوية من زوايا الماضي، كان قد تركها في الظّلام، وهي الآن تشعّ فيها الأنوار بعد أن انتقلت الظّلمة إلى جوانب أخرى من عقله كانت من قبل مضيئة فقال:

«ما زلتُ أذكر ذلك اليوم البعيد؛ وأنا أجلس إلى جانب أخي الملك «**عبد شمس**» والد «**مالك**»، كنتِ حينها في الحادية عشرة

من عمركِ، يكبركِ «**مالك**» بسنتين، وكنتما معًا في ميدان السّباق تتدرّبان على ركوب الخيل، فالتفتَ إليّ شقيقي الملك قائلًا: «عندما يكبران سأزوّج ابني من ابنتكَ فهل توافق؟».

فأجبتُ أخي قائلًا: «إنّه لشرف عظيم يا أخي أتقبّله بكلّ سرور».

فقال أخي: «احفظ ذلك.. فإنّها وصيّتي.. فإن متّ قبل أن يبلغا مبلغ الزّواج، فاعقد أنت قرانهما.. ودع الأسرة تنمو وتكبر حتّى يكون حفيدي من صلبي وصلبك».

وأتبع قائلًا: «لكنّني نسيت كلّ ذلك عندما صرت وصيًّا على ابن أخي،عاديته ووقفت حجر عثرة دون أمانيكما، وأعرف أنّ الآلهة لن تغفر لي هذه الزّلّة».

ثمّ صوّب إليها نظرة حزينة وسألها قائلًا: «هل تغفرين لي؟».

تجلّدت «**شمس**» وأجابته قائلة: «إنّ الابنة الحُرّة لا تحقد على أبيها، لذلك ما فكرت يومًا بأني سأضعك في حالة الاعتراف بالذّنب يا أبتي.. دعكَ من هذه الظّنون».

وفي تلك اللّحظة دخلت خادمتها لتخبرها أنّ الطّعام ينتظر!

فأخذت «**شمس**» يد والدها الباردة وقادته إلى غرفة المائدة.

* * *

كان الملك «**ترهاقا الثاني**» قد أرسل مراكبه فرست على شواطئ مملكة «**أوسان**» منذ بضعة أيّام، وهو عازم عزمًا أكيدًا على اجتياح المملكة، والثأر للهزيمة القديمة الّتي ألحقها الملك السّابق «**عبد شمس**» بوالده «**ترهاقا الأول**»، لكنّ الشّواطئ الجنوبيّة الغربيّة لأوسان لم تكن أرضًا رمليّة ليّنة تحت أقدام جنوده، الذين كان عليهم أن يسيروا فوق الشّعاب الصخريّة والممرّات الجبليّة شديدة الوعورة، قبل الوصول إلى الطّرق الرّئيسة الممهّدة والمفضية إلى العاصمة «**ذات البهاء**»؛ لذلك أخذ جواسيسه على عاتقهم قيادة طلائعه وكتائبه عبر الممرّات الجبليّة الصّالحة للعبور.

واستطاعت الكتائب الحبشيّة شقّ طريقها بصعوبة بين القلاع والتّحصينات القويّة لعجزها عن اقتحامها وهدمها حتّى لا تفلت من يد الملك «**ترهاقا**» فرصة المباغتة والمفاجأة، فترك بعض قوّاته لمناوشة القلاع الحصينة، إلى أن يتمكن من مباغتة «**ذات البهاء**» واحتلالها وفقًا لخطّة المباغتة الّتي اعتمدها.

هكذا اندفعت القوّات الحبشيّة نحو «**ذات البهاء**»، وهي تمنّي النّفس بالصّيد الثّمين من الأسرى والسّبايا والذّهب والفضّة والأحجار الكريمة، باعتبار أنّ معظم ثروة المملكة موجودة في عاصمة «**أوسان**».

ولكن معسكرات الجيش والقلاع الحصينة لم تقف مكتوفة الأيدي، والقادة والفرسان الشّبان والجنود البواسل جعلوا صدورهم قلاعًا، وكانوا يصيحون بأعدائهم لن تمروا إلّا من فوق صدورنا، لذلك تمكنت شجاعتهم الصّادقة ودماؤهم الحارّة من تأخير وصول الأعداء ولو لبضعة أيام إلى «**ذات البهاء**»، ما جعل الزّحف يفقد كلّ عناصر المفاجأة الّتي كان يعتمد عليها.

وقطع جيش «**ترهاقا الثاني**» نصف الطّريق المفضية إلى «**ذات البهاء**» عندما وصلت رسالة الوصيّ إلى يد الملك في قلعة «**تاريم**»، وطلب من «**الصّاحب**» أن يقرأ على القادة والأقيال رسالة الوصيّ، فراح يقرؤها بصوته القوي المتهدّج حتّى استوعب الجميع ما فيها.

واشرأبّت الأعناق نحو الملك في انتظار كلمته، فوقف منتصبًا بقامته الفارعة، عاري الرأس، مرتديًا درعه الزرديّة، وحسامه الطويل يتدلّى من حمائله على جانبه الأيسر والشّمس المشرقة تحصّنه بأضوائها الذهبيّة، ودون أن يطرف له جفن شرع يلقي كلمته الهادئة المتفجّرة كالشّلال فقال:

«أيها القادة والفرسان والجنود البواسل أيّها الأقيال

المقاديم، في مثل هذا الوقت قبل بضعة عشر عامًا هاجم «**الأحباش**» مملكة «**أوسان**»، لكنّهم لم يتمكّنوا من الوصول إلى «**ذات البهاء**» لأنّ والدي الملك «**عبد شمس**» تصدّى لهم بآبائكم من قادة وفرسان وجنود في منتصف الطّريق، فضيّعوا عليهم مفاجأتهم وهزموهم هزيمة منكرة، وأنتم الآن أبناء أولئك المنتصرين، ولست أشكّ قط بأنّكم ستهزمون الأعداء المغرورين بالطّريقة نفسها؛ بل ستسحقونهم سحقًا، وتلقّنونهم درسًا سيظلّ راسخًا في عقول أبنائهم وأحفادهم لأجيال وأجيال.

أيها الأبطال لقد حان وقت القتال للذّود عن بلادكم، إنّنا لن نزحف لملاقاتهم فليس في صدورنا متّسع للزّحف، إذ أن عناصر المفاجأة الّتي كانت في أيديهم انتقلت إلى أيدينا، ونحن الآن مستعدّون للذّهاب إليها ركضًا ووثبًا».

فانبعث هدير عاصف من صدور الجنود: «الموت للأعداء قُدنا أيّها الملك لنريهم عجائب قتالنا». عندئذ أصدر الملك أمره إلى «**الحازم بن المضاض**» بأنّ يقود سريّته في الطّليعة على أن يرسل إليه الأنباء عن مشاهداته تباعًا.

فرفع «**ابن المضاض حازم**» يده اليمنى تحيّة هاتفًا: «**أمر مولاي مطاع**». وانطلق إلى سريّته وكانت جاهزة للقيام بالواجب.

ثمّ أصدر الملك أوامره إلى القادة بالاستعداد، وتقويض الخيام والنّوم في العراء، استعدادًا للتقدّم والمواجهة فأسرع القادة إلى تلبية الأوامر بحماس مشتعل، بجلبةٍ كان لا بدَّ منها في تلك اللحظات الحرجة.

وقبل منتصف الليل وجّه الملك سريّة ثانية من المشاة، لتسير في أعقاب سريّة الفرسان الأولى على أن تظل بين السريّتين مسافة.

ثم أرسل فرقة الخدمات والطبّاخين لإعداد الطّعام وتحضيره في الأماكن الّتي سيمرّ منها الجيش أو يقرّر الاستراحة والمبيت فيها.

وقبل الفجر بقليل انطلق فيلق كامل من الفرسان وراء الطّليعتين لحمايتهما، ولشقّ الطريق أمام الجيش المتقدّم. هكذا بدأ الجيش انطلاقته لردّ المعتدي؛ وبقيت حامية قويّة في قلعة «**تاريم**» تنتظر الأوامر.

وبُعَيْدَ الفجر بقليل خرج الملك في موكبه الفخم يرافقه «**الصّاحب**» والقادة والأقيال، وتوقّف في جانب الطّريق مستعرضًا فيالق المشاة والفرسان والرّماة وهي تؤدِّي له التحيّة هاتفة بحياته وحياة مملكة «**أوسان**» العظيمة.

سار موكب الملك في مكان وسط بين جميع الكتائب، تتبعها

قوافل الإبل والبغال والحمير المحمّلة بالمؤن والماء والخيام والسّرادقات؛ بالإضافة إلى الاحتياطي من خيول الفرسان والأسلحة.

تتابعت الأنباء من الطّليعة الأولى مرّة كلّ خمس ساعات، أو أقلّ من ذلك في بعض الحالات، ومضت ثلاثة أيّام والجيش يتقدّم جادًّا لملاقاة العدو قبل وصوله إلى «**ذات البهاء**» بدت وكأنّها ثلاثة دهور..

وفي اليوم الرابع تلقّى الملك رسالة من طلائعه تخبره بأنّ أعدادًا غفيرة من مهاجري القرى والعاصمة قد بدأت بالظّهور على قارعة الطّريق المفضية إلى قلعة «**تاريم**»، والمهجّرون في حالة رعبٍ يرثى لها، خصوصًا النّساء؛ فعضّ الملك على شفته ألمًا، وأمال خوذته على عينيه وأعطى الرّسالة إلى الحكيم «**الصّاحب**»، فاصفرّت وجوه الأقيال السّائرين في موكب الملك لا من الخوف، بل لأنّ عائلاتهم؛ قادة وجنود، كانت تقيم في تلك القرى والمدن المتناثرة بين الشّواطئ والعاصمة.

وكانت بعض الأسر والعائلات من ضعاف القلوب قد غادرت «**ذات البهاء**» بعد أن سمعت بأنّ الوصيّ قرّر إغلاق أبواب «**ذات البهاء**» وعدم الخروج إلى القتال.

شرع القادة في «**ذات البهاء**» يحصّنون أسوارها وأبراجها، أمّا سكّان الرّيض «**الأحياء الفقيرة**» القاطنون خارج أسوار «**ذات البهاء**» فقد أخلوا منازلهم، ودخل بعضهم «**ذات البهاء**» للمشاركة في الدّفاع عنها.

والضعفاء من الشيوخ والعجائز والمرضى آثروا الرّحيل والتوجّه نحو قلعة «**تاريم**» على الحدود، وعدم الاستسلام أو فتح أبواب «**ذات البهاء**» للعدو.

في الوقت نفسه أرسل الملك رسالتين، الأولى إلى الوصيّ وأهل «**ذات البهاء**» يطمئنهم فيها عن قرب وصوله على رأس جيش جرّار لإنقاذهم، والثانية إلى القائد الأعلى «**جبر بن مزيد**» يوكل إليه فيها مسؤوليّة الدّفاع عن «**ذات البهاء**»، ويأمره بأن لا ينفّذ أيّ أمر من أوامر الوصيّ «**يشجب**» لحين وصوله، ويحمّله مسؤوليّة مخالفته لهذا الأمر!

كانت رسالة الملك على درجة عالية من الأهميّة، بحيث طمأنت الوصيّ قليلًا، فأذاعها على سكّان «**ذات البهاء**» بواسطة المنادين، ونافخي الأبواق الذين انطلقوا يبشّرون النّاس بقرب وصول الملك على رأس جيش للدّفاع عن «**ذات البهاء**» والمملكة بأسرها.

وما لبث الوصيّ أن علم بالرّسالة الأخرى الّتي تلقّاها القائد العام «**جبر بن مزيد**»، الّتي أصبح بموجبها المسؤول الأوّل في الدّفاع عن «**ذات البهاء**».

كان انتقال المسؤوليّة من الوصيّ إلى القائد العام بمثابة صدمة قاتلة، أصيب على إثرها بالشّلل خوفًا وذُعرًا. واستسلم لأمراضه وعلله، وماذا عساه أن يفعل بعدما جرت الأقدار على عكس ما كان يحلم ويتمنّى؟!.

ثمّة مخلوق واحد في «**ذات البهاء**» ظلّ محتفظًا بهدوئه ورباطة جأشه وشجاعته!

إنّها «**شمس**»... ما أسعدها وهم يخبرونها أنّ ابن عمّها الملك الشّاب يقود جيشًا عرمرمًا قادمًا للدّفاع عن «**ذات البهاء**» والمملكة، فقدّرت شجاعته حقّ قدرها.

وأكبرت فيه غيرته على بلاده وأهله، وقدّست مكانته الّتي باتت في قلبها توازي الآلهة، لكنّ ذلك لم يحُلْ دون حزنها على ما آل إليه والدها، وحمدت الآلهة على أنّه جُرِّد من الوصاية والمسؤوليّة، إذ كانت خائفة من أن يعمد إلى الانتقام فيسلّم «**ذات البهاء**» إلى الأعداء.

أمّا الأموال الّتي كانت في قصر الملك، فقد تكلّمت بشأنها مع القائد العام ووضعتها تحت تصرّفه، شرط أن يجمع المؤن ويوزّعها على الرعيّة بالعدل والمساواة أسبوعيًّا، حتّى لا يكون هناك ثمّة متخم وسغب في وقت واحد. فأكبر فيها القائد العام «**ابن مزيد**» ذلك، وشكّل هيئة للإشراف على جمع المؤن وتوزيعها بالقسط والمساواة بين الرعيَّة.

لم يقتصر دور «**شمس**» على ذلك، بل وجدت أنّ واجبها يقتضي تشجيع الجنود، وتنمية حماستهم، فاتّخذت لنفسها من فوق الأسوار والأبراج مكانًا، تتابع من خلاله مجريات العمل في ترميم الحصون وتعزيز التّحصينات، يرافقها في كلّ ذلك خادمها ومرافقها الأمين «**ماهر**».

وأخيرًا وصل «**ترهاقا**» ملك «**الحبشة**» إلى خارج الأسوار؛ ورأته الأميرة «**شمس**» واقفًا تحت مظلّة كبيرة من ريش النّعام، يرتدي قفطانًا سابغًا من الكتّان، فوقه درع من جلد النّمور، مبطّن بالنّحاس، ويعتمر خوذة من عفرة أسد من الأسود «**الحبشيّة**» متمنطقًا بحسام مثلّث عريض تلتقي صفحتاه بنتوء بارز ينحدر من مقبضه إلى ما قبل ظبّته ومقبضه وغمده من الذّهب.

وكان «**ترهاقا**» طويل القامة عملاقًا ممتلئ الجسم، عريض

الصّدر، عيناه واسعتان حمراوان تنبئان بمدى انفعاله وغضبه، ورأته وهو ينظر إلى الأسوار بعينين ينبعث منهما لهب الغضب، ربّما توقّع المسكين أن يخرج الوصيّ لاستقباله مستسلمًا، كما أخبره بذلك جواسيسه.. لكن أمله خاب، فقد وجد أمامه أسوارًا مرتفعة مئة ذراعٍ عن الأرض، محاطة بالأبراج وحماتها فوق ظهورها كأسراب كثيفة من النّسور.

أدرك «**ترهاقا**» وهو المحارب القدير أنّ الأسوار منيعة قويّة، فأطال رنوّه نحوها معجبًا ومتعجّبًا، ثمّ: أصدر أوامره بمحاصرة «**ذات البهاء**» من كلّ الجهات، فاستعصت عليه محاصرة الجهة الجنوبيّة الغربيّة لأنّ ثمّة جبل عموديّ التّكوين من الصّخر الأصم الأملس، واقع على مسافة خمسمئة ذراع من الأسوار، لا تستطيع أن تحطّ فوقه إلّا النّسور، أمّا الصّعود إلى قمّته من الأرض فمستحيل!

وأتبع أوامره بإعداد الأكباش لمهاجمة الأبواب، كلّ كبش من هذه الأكباش مؤلّف من ثلاثة جذوع من شجر السّرو، وقد شدّت إلى بعضها حتّى أصبحت كتلة واحدة بقضبان النّحاس والحديد، رُكِّب في رأسها رأس مثلّث من الحديد والصّلب على شكل رأس السّهم يبلغ وزنه عشرين رطلًا.

ثم أرسل قادته الخبراء بمحاصرة المدن وقوّات الأسوار للبحث عن مواطن الضّعف في بعض أجزاء تلك الأسوار، وأمر بضرب خيامه وسرادقاته على مسافة نصف فرسخ من «**ذات البهاء**»، وأمر جنوده بالاستراحة لأنّ الهجوم على الأسوار سيبدأ في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

في هذه الأثناء وصل القائد العام «**جبر بن مزيد**» فانضمّ إلى الأميرة «**شمس**» وقدّم لها التحيّة، فردّت عليه بمثلها قائلة: «مرحبًا بك أيّها القائد الشجاع، هو ذا «**ترهاقا**» أمامك يبرق ويرعد وكأنّه إعصار مدمّر».

وأضافت: «ولكن لا يهولنّك منظره الشّبيه بالكركدن الحبشي العنيف، إنّه بالرغم من حجمه وقوّته لا يملك إلّا سلاحًا واحدًا ـ القرن الغليظ البارز فوق أنفه، ومع ذلك فإنّ الصّيادين «**الأحباش**» يصيدونه بسهولة بعد أن يسدّدوا إليه طعنات نافذة في عنقه وبطنه.

و«**ترهاقا**» مثل أيّ «**كركدن**» لا يعجز عن اقتناصه الصّيادون «**العرب**» الأقوياء».

ثمّ أردفت: «ألا ترى كيف يخفي عيوبه الخلقيّة وضعفه بذلك الصّياح المدوّي المستمر، وتلك الزّمجرة الّتي تكاد لا تنقطع. إنّه

لجلف يفتقر إلى سّمات الفرسان؛ وصمتهم البالغ وهو عنوان شجاعتهم وفروسيّتهم، وهيئتهم الّتي تشعّ منها الهيبة والجلال.. بينما يبدو «**ترهاقا**» مثل الطّبل الدّبداب الذي يصمّ الأسماع بقرعه، وما هو إلّا أديم مجوّف البطن».

ولفتت نظر القائد إلى أنّ معظم محاربيه من القبائل المدرّبة على صيد الوحوش وليس على الحرب والقتال! وقالت له: «إنّهم قبائل شتّى من أبرزها ثلاث قبائل، تلك القبيلة الكثيفة من الرّجال الطّوال، ويتسلّحون برماح طويلة مثل رماحنا لكن أسنّتها من البرونز، وهي سريعة الكسر والقصف عندما تصطدم بالتّروس الحديديّة ...

أمّا القبيلة الثانية فإنّ قامات رجالها مثل قامات رجالنا، ويحملون رماحًا أقلّ طولًا ومتانة من رماح زملائهم العمالقة.

والقبيلة الثالثة من الأقزام، وكما ترى لا يزيد طول المخلوق الواحد منهم على الذّراعين ونصف الذّراع، وهم حملة الحراب، لكنّهم من أمهر الخلق في رمي الحراب من مسافة تتراوح بين عشرة وعشرين ذراعًا.

وما تبقى منهم قبائل شتّى، يتوسّط رجالهم في الطّول، وبما

أنّهم يحاربون على الطريقة القبليّة البدائيّة المجرّدة تمامًا من الفنون الحربيّة وفنون القتال، فإنّ هزيمتهم مؤكّدة بالرّغم من مظاهرهم الوحشيّة».

كان لهذه الملاحظات وقع حسن لدى القائد العام وفرسانه، فازدادوا ثقة بأنفسهم وهم الذين قضوا حياتهم، رهن التّدريبات اليوميّة الشّاقّة على فنون الحرب والقتال فرسانًا ومشاة.

وكذلك ازدادوا ثقة بتفوّقهم وشجاعتهم وممارساتهم، وقام القائد بصحبة «**شمس**» بجولة مركّزة على جميع الأسوار والبروج متفقّدًا تحصيناتها، مستمعًا إلى ملاحظات الأميرة، الّتي قضت اللّيل بين القادة والجنود وتناولت العشاء من طعامهم ولم تذق النّوم إلّا قليلًا.

وعند الفجر قرع «**الأحباش**» طبولهم فهبّوا في جلبة وصياح، ثمّ وقفوا صفوفًا تحت إمرة رؤوسهم؛ وهم رؤساء قبائلهم في مواجهة الأسوار ثمّ علا صوت أبواقهم، وهي من قرون الثّيران المجوّفة ثمّ صدرت إليهم الأوامر بالهجوم على الأسوار الشّاهقة أمام عيونهم؛ وخصوصًا ذلك الرّتاج الكبير أي باب المدينة الرئيسي الموصد بدرعه المصفّحة بثلاث طبقات من الحديد

الصرف، وكان عليهم أن يجتازوا الخندق الجاف فلم يتمكّنوا لعمقه الكبير، فأمر «**ترهاقا**» بردمه بالحجارة والتّراب فاستغرق ذلك بضع ساعات، وأصلحوا الجسر وأعادوا ربطه بالحبال، واستعدّوا للهجوم، وكان عددهم كبيرًا جدًّا، معظمهم من الأقزام تحت حراسة الرّماة الذين شرعوا يرمون بأقواسهم سهامًا غير مشتعلة في البداية؛ فقابلهم الرّماة فوق الأسوار بزخّات من السّهام أشدّ كثافة من زخّات الأمطار، وكان الرّماة فوق الأسوار يتألّفون من صفّين، جثا الرّجال على ركبهم، على أن يهبّ رماة الصّف الأوّل على أقدامهم فيرموا ثمّ يعودوا إلى الإقعاء في أماكنهم، فيهبّ رماة الصّف الثاني، فيرمي الجنود أقواسهم وهكذا دواليك.

تسرّب الضّيق إلى نفوس «**الأحباش**» من كثافة السّهام المنهالة على أجسادهم فأثخن معظمهم بالجراح، وولّى الباقون هاربين عائدين إلى المعسكر، فالتهب «**ترهاقا**» غيظًا، وأصدر أوامره إلى جلاوزته العتاة بأن يردّوا المتراجعين بالأسواط والهراوات.

فانقضّ الجلاوزة على المتراجعين يعنّفونهم بالضّرب والزّجر، حتّى عادوا إلى الأسوار حانقين متذمّرين؛ ثمّ عُزّزوا بكتيبة أخرى من الرّماة، فاستُقبلوا من الأسوار بوابل من السّهام

راحوا يتلقّونها بالدّرق، وهي مصنوعة من الجلود الجافّة؛ وبعضها مبطّن بالخشب فصارت جلود الدّرق مثل جلود القنافذ لكثرة ما غرس فيها من السّهام، وتراجعوا مرّة أخرى عن الأسوار فارتفع هدير «**ترهاقا**» بالتّهديد والوعيد، وراح يبرق ويرعد ويملأ ساحة القتال بزمجراته المتواصلة حتّى بُحّ صوته، وانهال جلاوزته على المتراجعين بالضّرب الوجيع، فعادوا إلى الأسوار ليقعوا من جديد فرائس تحت السّهام المنصبّة على أجسادهم من علٍ.

وساور «**ترهاقا**» القلق فأمر حملة الكبش الأوّل بالهجوم على الباب وتحطيمه.. برز حملة الكبش وهم يحملون أعمدته الخشبيّة الثلاثة تحت آباطهم والدّرق معلّقة في أعناقهم لتحمي ظهورهم بدلًا من رؤوسهم وصدورهم!.

واندفعوا به نحو الباب وهم يرطنون رطانة قبليّة يتذامرون بها، وأعينهم مصوّبة إلى الرّتاج الحديديّ الهائل المدرّع بثلاث طبقات من الحديد مسمّرة بمسامير كبيرة رؤوسها مفلطحة بارزة كلّ رأس أكبر من حبّة الجوز.

فتصدّى لهم الرّماة من فوق السّور، وأمطروهم بوابل من السّهام المشتعلة الأطراف، وحميَ وطيس المعركة، كان الواحد

منهم إذا عثر وكبا سقط المتدافعون خلفه وفوقه، وفي لحظات بدت الدّروع الجلديّة فوق ظهورهم من كثرة السّهام المنغرسة فيها كأشواك القنافذ.

ثم هبّوا على أقدامهم يتدافعون نحو الباب، فانهالت على صدورهم ورؤوسهم السّهام المشتعلة، وفاحت روائح جلودهم والشّعور المحترقة، وانتشرت روائح النّتن الّتي حملتها الرّياح إلى كلّ الأنوف والمعاطس، فأصيب حملة الكبش بالسّعال والكحاح، واحمرّت عيونهم وضاقت صدورهم، ومع ذلك انقضّوا برأس الكبش الحديديّ على الباب ولطموه به لطمة هائلة ارتجّ لها الباب، وانقدح منه الشّرر وتتطاير، وأحدثت اللّطمة صوتًا فظيعًا صكّ الأسماع صكًّا، كما اصطكّت ركبهم من الخوف والذّعر.

وتراجعوا بالكبش إلى الوراء لمسافة قصيرة ثمّ عادوا وصدموا برأسه الحديديّ الباب الكبير صدمة مروّعة فتطاير منه الشّرر من قوّة الصّدمة وهولها.

صاحت الأميرة «**شمس**» من فوق الأسوار قائلة: «صبّوا على رؤوسهم الرّصاص المصهور»... فسارع الجنود «**العرب**» إلى أحد المراجل وأدخلوا عمودًا من الخشب في عروتيه الكبيرتين وحملوه إلى الثّقوب الواسعة الموجودة فوق المدخل المفضي إلى الباب من

الخارج؛ وأهرقوا رصاصها الذّائب في الثّقوب فانهمرت أمطار اللّهيب والحمم فوق رؤوس وأجساد حملة الكبش كمشابيب النّيران، فاحترقت رؤوسهم وجلودهم وصدورهم وعلا الصّياح والصّراخ، وسقط ميتًا من سقط، وفرّ الباقون مذعورين بعد أن رموا الكبش من تحت آباطهم وانطلقوا عائدين وهم يصيحون ويولولون فزعًا وألمًا من عظم الكوارث المنصبّة على رؤوسهم، فتصدّى لهم الجلاوزة بهراواتهم وأمروهم بالعودة إلى الكبش، ودفعوا إليهم بنجدة من المدرّبين على حمل الأكباش لمساعدتهم على حمل الكبش المطروح أرضًا.

فتأبّطوا الشّر الممثل بالكبش، واندفعوا به منقضين على الباب الحديديّ في محاولة ثانية، ثمّ ثالثة، والرّصاص المصهور يحصدهم ويحرق أجسادهم بنيرانه الحامية، انصهرت أجسادهم فسقطوا موتى فوق بعضهم بعضًا.

كان صوت «**شمس**» يلعلع فوق كلّ الأصوات، وهي تحرّض الجنود والرّماة وتحثّهم على القتال والصّبر والجلد صائحة: «أيها «**العرب**».. هذا يوم يبرز فيه الرجال ليصيروا أبطالًا مقاديم في مستوى العزّ والشّرف والبسالة والإقدام، والموت في ميدان العزّ والكرامة أفضل من حياة الأسر والعبوديّة».

وتضيف مهيبة بالمدافعين متنمّرة قائلة: «في هذه المعركة يُضحّى بالنّفوس لدوام العزّة والخلود لأوسان، ومن هذه النّيران المتّقدة تنبعث البطولات، والصّبر في هذه المعركة ثبات، والجلد صمود، وأمام هذا الجلد والصّمود المثاليين ينهزم الأعداء ويتراجعون عن الباب في حالة يرثى لها من الرّعب والفزع، ويسجّل التاريخ أسماء المدافعين في سجل الأبطال الخالدين سواء أكانوا أحياء أم أمواتًا».

وتتابع الأميرة «**شمس**»: «أيّها «**العرب**» الأحرار يا أبناء «**قحطان**» أذيقوهم طعم الموت الزّؤام، طعم الهزيمة المرّة، وأروهم عيانًا الشَّجاعة الّتي ينبعث لمرآها الخوف والفزع، فتنهار قلوبهم، وتنهزم أرواحهم، ويفقدون رجولتهم».

وكان مرافقها «**ماهر**» يكاد يكون ملتصقًا بها التصاقًا، لا يجعلها تغيب عن ناظريه يقدّم لها السّهام بعد أن يغمسها في القار ويشعل أطرافها من النّيران المتأجّجة تحت مراجل الرّصاص المصهور.

وإذا رآها اندفعت هائجة نحو حافة السّور هرع إليها وأعادها بلطف ولباقة.. وهو لا يقلّ عنها حماسة وبطولة.

كان «**الأحباش**» من أمهر الرّماة، ولهم طريقة فذّة برشق

السّهام المشتعلة الأطراف إمّا رشقًا مباشرًا، أو تسديدًا بعد إمالة الأقواس إلى الأمام قليلًا، فتنطلق عنها السّهام إلى أعلى السّور ثمّ تنحني رؤوسها إلى أسفل لتنصبّ على أجسام المدافعين من فوق الأسوار.

استمرّ التّراشق طول النّهار إلى أن آذنت الشّمس بالمغيب، وأقبلت طلائع الليل لتحلّ محلّ مؤخّرة النّهار المتراجعة، وعلق اللّهب المشتعل والشّرر القارح بأثواب الليل، فتوهّجت النّيران وعندئذ، قرعت طبول «**الأحباش**» فعادوا بجموعهم وكبشهم مرتدّين عن الباب والأسوار وهم يجرّون أقدامهم جرًّا، ويحاولون إطفاء الحرائق المشتعلة بألبستهم ودروعهم الجلديّة.

وبعد ساعة من الزّمان أطبق الظّلام على الميدان في أسفل الأسوار وبقي الأبطال المدافعون من فوقها في أماكنهم متربّصين كامنين تحت عيون النّجوم.

وأطلّت الأميرة «**شمس**» من فوق البرج على ساحات المدينة من الداخل؛ فرأتها تعجّ عجيجًا بالفتيات والصّبايا وقد أقبلن من بيوتهنّ ومنازلهنّ بعد أن علمنَ بأنّ الأميرة «**شمس**» تحارب مع الرّجال من فوق الأسوار، فأسرعنَ إلى الأسوار ليؤدّين واجباتهنّ نحو الأمّ الرّؤوم، وتوزّعنَ بين الجرحى لمواساتهم وتضميد

جراحهم حسب إرشادات الأطباء والحكماء، وحملن المصابين إلى المنازل القريبة، والقتلى إلى السّرداب، وبعضهنّ اشتغلنَ بنقل المياه وإعداد الطّعام لمنحه وتقديمه إلى الأبطال المدافعين.

في هذا اليوم تساوى الجميع، واختفت الطّبقات بين النّاس، وانزاحت العنجهيّات والشأنيات والنّفاخات البشريّة.

تساووا بالواجب والتّضحية وأصيبت الكثيرات من بنات الفقراء ومن بنات الأغنياء برؤوس السّهام المتطايرة حولهنّ، فقضت منهنّ من قضت وجُرحت من جُرحت!

فلم تكن هناك فروق بين أنين جريح وأنين جريح آخر، كما لم يوزّع القتلى في السّرداب حسب مراكزهم ومناصبهم، وأقبل بالمثل المتطوّعون من الشّبان ليقدّموا الواجب، وشرع الجنود يدرّبونهم على القتال بمختلف أنواع الأسلحة، في مساواة انعدمت فيها الامتيازات الطبقيّة، وشعر أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء وربّما لأوّل مرّة بأنّ الدّفاع عن البلاد يتساوى فيه الجميع..

وكان هدف الجميع واحدًا، هو الدّفاع عن «**ذات البهاء**» والحفاظ عليها، وصيانتها من السّقوط والأسر والعار لأنّها قلب المملكة.. فإذا سلم القلب سلمت المملكة كلّها..

ثمّ حملت الفتيات القدور والصّحائف، وصعدنَ بالأطعمة إلى أفاريز الأسوار وأبراجها. وبعضهنّ حملنَ المياه وما تيسّر من الحلوى والفاكهة إلى المدافعين.

وكنّ إذا مررنَ بالأميرة الشّابة «**شمس**» أحنينَ رؤوسهنّ احترامًا للفتاة الباسلة ابنة العاصمة «**ذات البهاء**»؛ لا لأنّها ابنة أمير البلاد وحاكمها، بل لأنّ شجاعتها تستحقّ الاحترام، وكنّ يحيّينها باستحياء مثنيات على جهودها وبطولتها..

تناولت الأميرة «**شمس**» بعض الطّعام مع مرافقها «**ماهر**»، ثمّ وزّعت الأسلحة والسّهام على المحاربين، حيث حلّت أفواج جديدة من المحاربين والرّماة محلّ الأفواج الّتي حاربت طيلة النّهار.

في تلك اللّيلة مات الأمير «**يشجب**» الوصيّ على العرش في فراشه، وبلغ خبر وفاته الأميرة «**شمس**»، فاضطربت واصفرّ وجهها، ولكنّها أسرعت مع مرافقها «**ماهر**» إلى منزل والدها، تبكيه وتمطره بوابل من دموعها وحزنها.. وقضت شطرًا من الليل جالسة إلى جانب سريره تحت أضواء الشّموع..

وعند منتصف الليل أصدرت أوامرها إلى الخدم ورجال الحرس بحمل والدها إلى مثواه الأخير، بعد أن تحدّثت مع قادة الحرس ومن حضر من الوزراء والأعيان، فتقرّر أن يُدفن في حديقة

القصر الخلفيّة دون جنازة أو مراسيم، لأن «**ذات البهاء**» في حالة حرب.

ثمّ ألقت على وجه والدها نظرة أخيرة مليئة بالدّموع وهو مسجّى في داخل قبره الذي أُعدّ على عجل،غُطّي جثمانه بأغصان الغار. ثمّ أهيل عليه التّراب وهكذا تحوّل الرّجل في بضع دقائق إلى قبر بعد أن كان حاكمًا ووصيًّا ملء السّمع والبصر والأفواه..

وعادت الأميرة إلى الأسوار في الهزيع الأخير من الليل، وإلى جانبها مرافقها «**ماهر**» وهي ملتفّة بعباءتها، انتحت ناحية فجلست على الأرض وأسندت رأسها إلى جدار السّور، وأغمضت عينيها لتختلس من رمق الليل ولو غفوة واحدة، وبقي «**ماهر**» ساهرًا مع قادة الجند يعدّون العدّة لمعركة الصّباح، ويزيح الفجر عن منكبيه وشاح الظّلام الدّامس.

برزت الشّمس من خدرها المشرقيّ مع أوّل الصّباح، شاحبة الوجه كليلة العينين، وكأنّ الحرب قد وصلت إليها، فأشرقت وهي تتحيّن معركة ضروسًا.

استؤنف القتال بهجوم جديد شنّه «**الأحباش**» على الأسوار، وانقضاض عنيف بالكبش ذي الرّأس الحديديّ على باب «**ذات البهاء**» الكبير.

وكان «**ترهاقا**» قد أقسم «**بكوش**» كبير آلهة «**الحبشة**»، على أن يحطّم الباب في الصّباح مهما كلّف تحطيمه من أرواح وخسائر، ثمّ التفت إلى قادته مزمجرًا ومهدّدًا متوعّدًا فقال: «**اخلعوا الباب أو حطّموه ولو نطحتموه برؤوسكم أو أنشبتم فيه أصابعكم وأظافركم حتّى تقتلعوه من قواعده**».

انقضَّ جنوده على الباب حتّى تحطّمت أضلاع الكبش فسقط من تحت آباطهم مُكسّرًا محطّمًا.

فأحضروا كبشًا آخرًا وشنّوا به هجومًا جديدًا على الباب، ولم يتمكّنوا من الوصول إليه إلّا بخسائر فادحة في الجند، ولم يعد بوسعهم الثّبات والصّمود، فالرّصاص المنصهر يُصبّ صبًّا على رؤوسهم وأجسادهم، والسّهام تحصدهم حصدًا كسنابل القمح، فألقوا الكبش أرضًا وولّوا متراجعين يصرخون صراخًا عاليًا من جروحهم المتصبّبة دماءً وأبدانهم المحترقة، وكما هي العادة استقبلهم الجلاوزة بالعصي والسّياط وجرت معركة جانبيّة بين «**العرب**» و«**الأحباش**»، كانت عاقبتها وخيمة على «**العرب**» فسقطوا قتلى بالبلطات والرّماح المثلّثة الرؤوس فحلّ محلّهم جنود آخرون.

وهكذا بدأ الهجوم الثّالث على الباب في ذلك اليوم

العصيب، كان أشبه بالصّواعق، يطير منه الشّرر ويرتفع صوت تصادم الحديد بالحديد إلى عنان السّماء، ويتردّد الصّدى في «**ذات البهاء**»، حتّى وصل إلى مسافات بعيدة، فتزعزع الباب وانحرقّت دعاماته قليلًا عن قواعدها، لكن الرّصاص المصهور والزّيت المغلي المنصبّين على رؤوس المهاجمين من ثقوب السّور وفتحاته العليا، أحرقت رؤوسهم ووجوههم وأبدانهم فأطلقوا أصواتهم بالعويل والولولة والصّراخ والأنين وهم يتراجعون عن الباب في فوضى كبيرة وجلبة مهولة، فتركوا الكبش طريحًا أمام الباب تشتعل فيه النّيران، ثمّ ما لبثت الرّياح أن زادته ضرامًا وتأجّجًا، فلم يستطع أحد من جنود «**ترهاقا**» العودة لحمله، فصار حجرًا متّقدًا وما تماسك حتّى أصبح رمادًا! جُنّ جنون الملك «**ترهاقا**»، لذا أمر بإحضار الكبش الثّالث، فانقضّ به «**الأحباش**» مجدّدًا على الباب واحتدمت المعركة احتدامًا مهولًا!.

وتفجّر غضب «**ترهاقا**» كما تتفجّر الأعاصير فوق المدن والغابات، فأصدر أوامره للقادة بشنّ هجوم عامّ على جميع الأسوار، على أمل أن يفطن القادة «**العرب**» على توزيع قوّاتهم على سائر الأسوار والأبواب حتّى يقلّ عدد المدافعين عن الباب الرئيسي الكبير.

وفيما بين احتراق الكبش الثاني وإحضار الكبش الثّالث، تمكّن الحدّادون الواقفون خلف الباب المتزعزع من إصلاحه بالعتلات والمطارق الحديديّة الضّخمة وإعادة دعامته إلى قاعدتها السفليّة.

وحمي وطيس معركة السّهام المتطايرة وكأنّها أسراب كثيفة من طيور السّنونو والزّرازير تحلّق في الأجواء، ثارت ثائرة الأميرة «**شمس**» لمشاهدة الرّماة يتساقطون فوق الأسوار، فاندفعت نحو حافّة السّور وشرعت ترمي الأعداء بسهامها الناريّة، بيدين لم يتطرّق إليهما التّعب والوهن. ولم يستطع «**ماهر**» ردّها عن الحافّة لشدّة حماستها وغليانها، فراح يساعدها بتقديم السّهام إليها.

وفجأة انقضّ عليها سهم حادّ مسدّد أصابها في كتفها الأيمن، وانغرس رأسه كلّه في لحمها، فجمدت لحظة في مكانها ثمّ تهاوت على الأرض فأسرع «**ماهر**» وحملها بين يديه وتراجع بها عن السّور والجند يساعدونه، واندفع ـ وهي بين يديه مغمًى عليها ـ هابطًا الدّرج، والجنود يشيّعون البطلة بعيونهم ودموعهم.

وكان جواد «**شمس**» مربوطًا في مكان غير بعيد عن الأسوار، فأحضره بعض الجنود إلى «**ماهر**». ثمّ ساعدوه على امتطائه ورفعوا

الفتاة بأناة، وأركبوها أمامه على السّرج مضرّجة بدمائها، ليعدو بها سريعًا نحو القصر، وساعده الحظ في الطّريق فرأى أحد الأطباء المختصّين بنزع السّهام وتطهير الجروح، فطلب إليه مرافقته إلى القصر.

وعند باب القصر ترجّل «**ماهر**» عن الجواد، وألقى عنانه لأحد الحرّاس، ثمّ حمل الفتاة الجريحة بمساعدة الطبيب وصعدا بها إلى القصر، فسجّاها فوق أريكتها بينما كان الطّبيب يستخرج أدواته الطبيّة من حقيبته فأحدث شقّين متعاكسين حول السّهم في كتفها بمشرطه، وراح يعالج السّهم بيده المدرّبة حتّى انتزعه، فبدرت منها صيحة ألم عظيمة، لكن ذلك لم يوقفه، بل عمد إلى تطهير الجرح الغائر فرشّ عليه مسحوقًا من الأعشاب، ثمّ خاطه بوترين نظيفين وضمّده ولفّه بما لديه من القماش النّظيف.

وترك حقّ المسحوق المطهّر في يد مرافقها «**ماهر**»، وطلب إليه علاجها وتطهير الجرح صباحًا كلّ يوم، ووعده بأنّه سيتردّد على الأميرة حتّى تتماثل للشفاء إذا بقي على قيد الحياة، ثمّ عاد إلى الأسوار لتأدية واجبه بين الجنود.

وفيما تبقّى من ذلك النّهار التّعس شنّ «**الأحباش**» هجومين

على الأسوار والباب الكبير، لكنّهم لم يتمكّنوا من خرقه وتحطيمه، فارتدّوا خائبين مثخنين بالجراح والنّدوب.

ولمّا خيَّم الظّلام دقّت طبول الانفصال وارتدّ «**الأحباش**» إلى خيامهم في حالة يرثى لها من التّعب والإرهاق، فشاهدوا صفوفًا كثيفة من الجرحى مطروحين بين الخيام، يعالجهم السّحرة والمشعوذون بنزع السّهام من أجسادهم بعنف، والكثير منهم قضى نحبه على تلك الصّورة المأساويّة.

وتولّى الأطبّاء «**العرب**» المدرّبون معالجة جنودهم المصابين بالجروح الثّخينة وأرسلوهم إلى السّرادقات المُعدّة للمعالجة والتّطبيب، أمّا القتلى فحُملوا إلى السّراديب العميقة.

استراحت الأميرة «**شمس**» بعد العلاج فنامت ملء عينيها، وبقيت خادمتها إلى جوار سريرها، فيما هبط مرافقها «**ماهر**» إلى الطّابق الأوّل، وألقى بجسده المتعب فوق إحدى الأرائك، مسلمًا جفنيه إلى النّوم العميق، لقد قضى ليلتين طويلتين ساهرًا بالقرب من الأميرة فوق الأسوار، وآن له الآن أن يستريح.

استيقظت الأميرة «**شمس**» من نومها بعد منتصف الليل، وقع نظرها على خادمتها الأمينة، فابتسمت في وجهها وتمتمت

بكلمات لم تفهمها الخادمة، لكنّها سألتها: «هل أحضر إليكِ بعض الشّراب يا سيدتي؟».

هزّت رأسها إيجابًا، انصرفت الخادمة وعادت بكوب من الماء المحلّى الممزوج بماء الورد، قدّمته إليها فشربت الكوب دون أي تردد.

وتذكّرت الخادمة أنّ الأميرة لم تذق طعامًا منذ الأمس، فأحضرت إليها إناء من الحساء بقطع من اللّحم، قدّمته إلى سيدتها راجية منها أن تتناول قدر ما تستطيع لأنّ ذلك سيساعدها على استرداد قوّتها وحيويّتها.

ثمّ جلست إلى جانبها على السّرير وراحت تساعدها على احتساء المرق بملعقة فضيّة، استطابت الأميرة الحساء واللّحم، وكانت جائعة جدًّا، ثمّ مدّت يدها إلى كتفها وتحسّست بها ضمادها، دون أن تنبسَ ببنت شفة.

كان «**ماهر**» قد استيقظ حينها، فصعد إلى سيّدته ليجدها جالسة في فراشها، تسند ظهرها إلى بعض الطنافس.

خاطبها محيّيًا منشرحًا: «عمتِ مساءً يا سيدتي!».

فردّت التحيّة بمثلها: «عمتَ مساءً يا «**ماهر**»». وابتسمت في وجهه ابتسامة الثّقة والطمأنينة، لأنّها كانت تثق بإخلاصه وولائه.

ثمّ أمرت الخادمة بأنّ تحضر له ما يكفيه من الطّعام، فقال مشجّعًا ومطمئنًا : «إنكِ تحتاجين إلى راحة طويلة لأنّ الرّاحة تشفي الجراح وتسرّع بالتآمها».

فأجابته متنهّدة: «وهل تشفي جراح القلوب؟».

فضحك «**ماهر**» وقال: «إنّ جرحك ثخين؛ ولكنه ليس خطرًا، ولحسن الحظ فإنّ أعداءنا لا يغمسون سهامهم بالسّموم».

في هذه الأثناء وصلت الخادمة ومعها الطّعام، قدّمته إليه. قالت الأميرة: «هذا خبر طيّب، فقد كنت أفكّر في ذلك رغم عدم شعوري بسريان السّم». وسألته: «ولكن ما أخبار المعركة؟».

فأجابها: «لقد تكبّد أعداؤنا كثيرًا من الخسائر بجنودهم خلال هجومهم».

ثمّ راح يتناول طعامه وأتبع قائلًا : «إنّ «**ذات البهاء**» محاصرة الآن بقوم جبّارين، يدفعهم ملكهم إلى الموت دفعًا، وليس لديهم من وسيلة سوى خلع الباب وتحطيمه، وإذا خلع الباب تعرّضت «**ذات البهاء**» لخطر ساحق ماحق، وقد نضطرّ إلى الرّحيل، لا للنّجاة بأرواحنا؛ ولكن تحاشيًا من وقوعك سبيّة في أيدي الأعداء

وهم قبائل متوحّشة لا تقيم وزنًا للأخلاق ولا للأعراف، ولا لمقامك السّامي».

قالت: «وهل تظن أنّ بوسعنا أن نغادر «**ذات البهاء**» المحاصرة؟» فقال: «أجل عن طريق النّفق السّري». فسألته قائلة: «أين الحرس الخاص؟».

أجابها: «لقد سحبهم القائد العام وأرسلهم إلى الأسوار ليدافعوا عن الباب الكبير».

وبعد فترة صمت قصيرة مدّت يدها إليه قائلة: «إليكَ بهذا المفتاح الصّغير، افتح به هذا الصّندوق القريب من السّرير، تجد فيه صندوقًا صغيرًا أصفر اللّون، إليّ به».

كان «**ماهر**» قد أنهى طعامه في تلك اللَّحظة فهبّ يتناول من يدها المفتاح، وأسرع نحو الصّندوق.

فتحه واستخرج منه مفتاحين كبيرين..

قالت الأميرة مشيرة إلى أحد المفتاحين، هذا مفتاح باب النّفق، أمّا الثاني فهو مفتاح السّرداب، أعطني مفتاح السّرداب، وتناولته من يده الممدودة ومضت تقول: «إنّ النّفق يفضي إلى خارج الأسوار من تحت الخندق المحيط بها، وهناك خندق أفقي يمتدّ من باب النّفق إلى مسافة مئة ذراع قريبًا من الهضبة العموديّة

الصخريّة وحول النّفق غابة كثيفة من الأشجار الباسقة والنباتات الشّوكيّة واللّبلاب المدّاد وغير ذلك أوتظنّ بوسعنا المرور بعيدًا عن أعين المحاصِرين؟».

فقال «**ماهر**»: «الأعداء غير موجودين في تلك البقعة الوعرة الواقعة بين السّور والهضبة الصخريّة لاستحالة الوصول إليها».

فإذا تمكّنا من إخراج الخيول عبر النّفق السّري إلى الباب الخارجي فقد نتمكّن من المرور بهدوء، وأردف: «هل ترين أن تصطحبي معك بعض خادماتك؟».

فأجابت قائلة: «يستحيل ذلك، لكنني سأمنحهنّ ما يكفيهنّ من المال ثمّ أسرحهنّ ليعدنَ إلى بيوتهنّ».

في اليوم الثّالث كانت المعركة خارج الأسوار رهيبة، لكن العدو فشل ولم يستطع أن يحطّم الباب بالكبش الثّالث، فارتدّ على أعقابه بخسائر فادحة.

وما أن حلّ الظّلام حتّى كان «**ماهر**» قد أعدّ خطّة الخروج من «**ذات البهاء**»، فأدخل عبر النّفق السّري ثلاثة من الجياد الكريمة، ومؤنًا تكفي لبضعة أيّام، وخرجًا مفعمًا بالوزنات الذّهبيّة والفضّيّة ومجوهرات سيدته وحُليها الثّمينة، والملابس الضّرورية للرّحلة وقرَبًا ممتلئة بالمياه وأدوات الطّبخ وأموالًا كثيرة. أمّا الأميرة

«**شمس**» فقد أعطت خادمتها مفتاحًا سريًّا لحجرة سرّيّة موجودة تحت القصر وقالت لها: «هذا المفتاح! سلّميه يدًا بيد إلى ابن عمّي الملك «**مالك**» بعد دخوله «**ذات البهاء**» ودلّيه على موضع الغرفة السّريّة الّتي كان والدي يحتفظ فيها بأموال الأسرة المتوارثة منذ مئات السّنين»، ثمّ قبّلتها وأذنت لها بالذّهاب إلى حيث تشاء بعد أن منحتها أموالًا طائلة وعقدًا من اللؤلؤ النّفيس.

تناولت الأميرة ثلاث وجبات من الطّعام والفاكهة أثناء النّهار فاستردّت قوّتها ونشاطها إلى حدّ ما، ولكنّها أصبحت جاهزة لمغادرة «**ذات البهاء**».

عند عودة «**ماهر**» في المساء أخبر سيّدته أنّ الجيش يدافع عن المدينة ببسالة نادرة فاطمأنت إلى ذلك..

أما القرد الوفي «**نولان**» فقد كان يحضر في كلّ ليلة إلى أطراف «**ذات البهاء**» لكنّه كان يرتد خائبًا لعجزه عن اختراق الحصار المفروض عليها ولعدم تمكّنه من اقتحام معسكرات الأعداء المحاصرين للمدينة.

لذلك كان يبتعد عن جيش «**الأحباش**» لوجوههم المدهونة بالألوان وأشكالهم وأنماطهم المخيفة، وكان يقضي سحابة الليل

جاثمًا فوق شجرة البطم ثمّ يعود قبيل الفجر إلى شجرة البنيان ليجد أمّه مستيقظة تترقّب عودته، وفي نظراتها الكثير من الحيرة والعتاب.

وفي مساء ذلك اليوم حضر مستشارو ملك «**الحبشة**» إلى سرادقه الكبير، ونصحوه بأن يأمر الجند بجمع عوارض كثير من الأخشاب وأبواب المنازل في الضّواحي وأمثال ذلك، بالإضافة إلى كمية كبيرة من الحطب وكلّ ما بوسعهم حمله ونقله من الأعشاب الجافّة.

ولما سألهم «**ترهاقا**» عن الأسباب الدّاعية لذلك، قالوا: «فأمّا العوارض الخشبيّة والأعشاب الجافّة فمن أجل وضعها بمحاذاة باب السّور وإضرام النّار فيها، وأمّا الأبواب فلإقامة سقف منها فوق أيدي المحاربين ليعبر من تحته حاملو العوارض الخشبيّة والأعشاب إلى الباب كي يشعلوا النّار فيها، بذلك نتمكّن من صهر الباب الحديديّ».

شاع السّرور في وجه «**ترهاقا**» وراح يصفّق بيديه إعجابًا بالفكرة قائلًا: «إنّها لنعم الطّريقة لصهر الباب واقتحام «**ذات البهاء**»».

في الحال أصدر أوامره من أجل إحضار العوارض والأعشاب الجافّة والأبواب من المنازل والضّواحي الّتي هجرها

سكاّنها، واستغرق جمع هذه المواد القابلة للاحتراق من الجنود كلّ ساعات الليل فأقاموا أمام معسكرهم أكوامًا هائلة منها، وفي فجر اليوم الرّابع دقّت طبول الحرب فاصطفّ الرّماة «**الأحباش**» في ثلاثة صفوف طويلة أمام السّور والباب الكبير، وأسرع الجنود يحملون الأبواب فوق أيديهم ورؤوسهم وتقدّموا بحراسة الرّماة نحو السّور، فاجتازوا الخندق ورفعوا فوق رؤوسهم الأبواب ورموها بالعرض، وبذلك تمكّن حاملو العوارض الخشبيّة من المرور من تحتها والوصول إلى الباب وتكديسها إزاءه، فتحوّلت الأبواب المحمولة إلى رواق مُعمّد، يمكّن حاملي العوارض الخشبيّة والأعشاب الجافّة من المرور تحته بأمان.

لكن المدافعين عن الأسوار لم يقفوا مكتوفي الأيدي للتفرّج على هذه الخطّة الخبيثة، فأصلوا أعداءهم نارًا حامية بالسّهام المشتعلة.

وفيما كان الأعداء يكدّسون العوارض والأعشاب الجافّة بحذاء باب السّور رشقوهم بوابل مدرار من السّهام المشتعلة، لكنّها لم تحدث الأثر المطلوب، عندئذ أحضر «**الأوسانيون**» براميل القار وقذفوا بها فوق الأبواب المحمولة فاشتعلت النّيران في الأبواب وحامليها، وسرعان ما علقت النّيران بأكداس العوارض الخشبيّة، والأعشاب الجافّة المحاذية للباب فتسعّرت

نيران الجحيم تحت الباب الكبير، وزاد هبوب الرّياح النّيران اضطرابًا فارتفعت أمواج اللّهب حتّى وصلت إلى حافّة السّور، ما اضطر «**العرب**» إلى التراجع قليلًا إلى الخلف لتجنّب وهجها الحار اللّافح، وما لبث الباب الحديديّ أن انصهر لقوّة النّيران المشتعلة إزاءه حتّى ماثل الشّفق حمرة وتوهُّجًا.

تهلّل وجه «**ترهاقا**» من عظم شروره، وصاح آمرًا حملة الكبش بالهجوم على الباب المتداعي، لم يكن الوصول إلى الباب سهلًا كما توهّم، لأنّ الأخشاب المحترقة والجمر فوق الأرض أحرق نعال وأقدام المهاجمين فعادوا بالكبش وهم يصيحون من آلامهم وأوجاعهم فجُنَّ جنونه، واضطرّ إلى إرسال فوج من الجنود يحملون المياه يصبّوها فوق الجمر والأخشاب المحترقة، فصبَّ عليهم «**العرب**» من فوق الأسوار شواظًا من السّهام المشتعلة.

وبعد لأي نجح «**الأحباش**» حاملو الكبش في هجومهم على الباب المنصهر.

عندئذ بدأت المعركة وجهًا لوجه لأوّل مرّة بين «**العرب**» و«**الأحباش**»، فاخترقت الرّماح الصّدور المدرّعة، والتطمت البلطات بالرّؤوس، وانهالت السّيوف الحادّة فوق رقاب

المهاجمين، وصاح «**الأوسانيون**» «**العرب**»: «لن تمرّوا إلّا فوق أجسادنا».

حمي وطيس القتال، وتقدّم قادة الجند «**العرب**» بسيوفهم المسلولة وانهالوا بها على رؤوس العدو المهاجم ورقابه؛ وسدّد جنودهم رماحهم إلى صدور أعدائهم فنفذت منها.

وكان كلّما سقط فوج من «**العرب**» حلّ محلّه فوج آخر، وكلما أبيد صفّ من صفوف «**الأحباش**» المهاجمين حلّ محلّه صفّ آخر. عمد المدافعون «**العرب**» من فوق الأسوار إلى براميل القار وقذفوها فوق صفوف الأعداء المتراصّة أمام الباب فاشتعلت فيهم النّيران، فولّوا منهزمين وصياحهم يعلو على قعقعة السّلاح، وقرع السّيوف بالسّيوف، واشتباك عوالي رماح المدافعين بعوالي رماح المهاجمين.

ومرّة أخرى فَقَد «**ترهاقا**» صوابه وراح يصيح كالذّئاب الجائعة في ليالي الشّتاء الباردة، آمرًا جنوده بمواصلة الهجوم: «الباب أمامكم مفتوح فاهجموا.. اهجموا الويل لمن تراجع..»، فجدّد «**الأحباش**» هجومهم وهم يستشيطون غضبًا.

أثناء القتال، وبعد انصهار الباب الكبير، تسلّل «**ماهر**» من بين

المتقاتلين وعاد مسرعًا إلى القصر يخبر الأميرة «**شمس**» بما رأته عيناه من تلك المعركة الرهيبة، وحثّها على الرّحيل، فانطلقت أمامه وهي حزينة دامعة العينين، دخلا النّفق وأمسكا بعناني الجوادين الباقيين منطلقين في ذلك النّفق المظلم على ضوء مصباحين صغيرين حمل كلّ منهما واحدًا إلى أن وصلا إلى الباب الخارجي، فتحه «**ماهر**»، وخرجا معًا نحو الخندق المحاط بالأشجار والعرائش الشوكيّة متّجهين نحو الشّرق.

ولما بلغا الطّرف الآخر من الخندق، ساعد «**ماهر**» الأميرة «**شمس**» على امتطاء جوادها ثمّ امتطى جواده وإلى جانبه الجواد الآخر وانطلقا نحو السّهل بعيدًا عن الأسوار وميدان المعركة.

بعد بضع ساعات اجتازا السّهل القريب من ضواحي «**ذات البهاء**»، فالتفتت «**شمس**» نحو المدينة لترى أسوارها الشّاهقة غارقة في سحب الدّخان الأسود الكثيف، والمدافعون عن الباب يصيحون: «لن تمرّوا أيّها الأنذال»، ودفعوا صدورهم إلى الأمام لتحلّ محل الباب المنصهر، وغرسوا رماحهم في عيون المهاجمين وسيوفهم في صدورهم.

كانت جلبة المعركة وصيحات المتحاربين تشقّ عنان السّماء،

ففرّت الطّيور من أجوائها بعيدًا لتختفي وراء الغابات الكثيفة حيث الأمن والسّلام يرفرفان على عالم الغابات وحيواناتها وطيورها، وبقي عالم البشر غارقًا في الحروب وبرك الدّماء.

في معركة اليوم الرابع اشترك أهل المدينة في القتال رجالًا ونساء وأولادًا إلى جانب أبنائهم الجنود، فالمعركة كانت تساوي حياة أو موتًا بالنسبة إليهم جميعًا.

واقتضت مهمّة النّساء أن ينقلنَ السّلاح والمياه وبراميل القار إلى المحاربين ويحملنَ الجرحى إلى أماكن العلاج، والقتلى إلى السّرداب الذي يحتفظ بالجنود القتلى.

في هذا اليوم أعربت عن ذات أنفسها «**العرب**»، إذ الرجال يموتون أحرارًا وسيوفهم ممتشقة في أيديهم، ورماحهم مشرعة مغروسة في عيون الأعداء وصدورهم، وفشل الهجوم.

غابت الشّمس وهي مطمئنة إلى أنّ «**أوسان**» ما زالت قويّة وحصينة، وفي الليل راح الكثير من النّاس ينقلون الحجارة الكبيرة من أسوار الحدائق والمباني الكبيرة، ويكدّسونها صفوفًا متراصّة، أمام الباب الكبير وفي مدخله من الجدار، ومن الأرض إلى سقف الباب، فبلغ عدد صفوفها ثلاثين صفًّا، تمكّنوا بها من سدّ مدخل

الباب البالغة مساحته خمسة وسبعين ذراعًا وهي مساحة رواق الباب من الداخل.

وقد استطاع أهل «**أوسان**» ببسالة أن ينجزوا هذا العمل الجبّار في ساعات شاقة مضنية، ولكنهم أغلقوا رواق الباب بما هو أشدّ وأعتى من الباب الحديديّ.

ثمّ أحضروا براميل القار وصفّوها في خمسة صفوف، أمام رواق الباب من الدّاخل لإشعال النّيران فيها إذا دعت الضّرورة.

كما نقلوا إلى الأسوار كلّ ما يحتاج إليه المدافعون من أسلحة وأطعمة ومياه للشّرب وبراميل القار.

ولما خفيت عن عيني «**شمس**» أسوار «**ذات البهاء**» بقي قلبها ملتفتًا، وعقلها وتفكيرها مشبعين إلى أن دخلت مع مرافقها «**ماهر**» إلى الأرض المنخفضة.

الفصل السادس

أقفلت الشّمس هاربةً نحو خدرها، فاحمرّ وجه السّماء، واصفرّت أطرافها وهي تشيّعها كمن يودّع عزيزًا عليه متمنيًا ألا يغادره، هل هي لوعة توديع الأميرة لمدينتها الجميلة قد انعكست على صفحة السّماء فأوجعتها؟ أم هو حبّ السّماء لشمس وحنوّها عليها ومؤازرتها لها؟ من المؤلم حقًّا أن تبرح مكانًا كلّ ما فيه يشهق بك، فذات البهاء، مدينتها الجميلة الّتي شهدت فيها الحياة؛ ونمت وترعرعت بين أسوارها وساحاتها.

شرد ذهنها حينذاك إلى القرد الأشقر فحدّثت نفسها: هل تراه يعيش في هذه الغابات؟ إذا كانت هذه الأشجار الباسقة مستقرّه ومأواه، وفي هذه الأرض المنخفضة ملاعبه ومسارحه، فلا بدّ أن يظهر فجأة، ويكون أوّل من يستقبل صديقته الّتي طوّح بها الدّهر وألقتها الأحداث القاسية في هذا المعتزل النائي عن «**ذات البهاء الفيحاء**».

ثم التفتت إلى مرافقها «**ماهر**» قائلة: «هل تصدّق أنني أتوقّع لقاء صديق عزيز في هذه الغابات الملتفّة؟»

فقوّس «**ماهر**» حاجبيه وقال بصوته الهادئ الحزين: «ما أحوجنا للقاء الأصدقاء في هذا المكان الموحش يا مولاتي!».

وأضاف بصوت هامس: «ولكن... من يكون هذا الصّديق العزيز؟».

فرنّت ضحكة رقيقة من بين شفتي الأميرة «**شمس**» وأجابته قائلة: «إنّه إنسان نبيل في ثوب قرد من قرود الغابات!».

فقهقه «**ماهر**» ضاحكًا ثمّ أمسك فجأة وقال: «يا مرحبًا به، ولكن لم يسبق لسيدتي أن عرّفتني به». ردّت «**شمس**»: «على رسلك يا «**ماهر**»؛ ستراه عمّا قريب وسأقدّمه إليك، وأعرِّفك به، ولكن عليك أن تعدني بأن تعامله كأنك تعامل صديقًا وفيًّا حميمًا!».

فقال «**ماهر**»: «إذا كانت الأميرة تريد أن أمنحه صداقتي فهو منذ الآن صديقي الحميم».

هبّت رياح الخريف المسائيّة فشعرت «**شمس**» بألم يحزُّها في كتفها المجروح، وتنبّهت إلى أنّ أحداث اليوم أنستها كم يحتاج كتفها إلى اهتمام وعلاج بحسب ما أوصى الطبيب.

فطلبت من «**ماهر**» أن يساعدها على الترجّل قائلة: «دعنا نقضي هذه الأمسية في أطراف الغابة فالشّمس على وشك الغروب»، فوثب عن ظهر جواده بخفة شاب في العشرين، وتقدّم نحو جوادها ليساعدها على الترجّل عن ظهره، وما إن استقرت قدماها على الأرض، حتّى رأت شبحًا يتوثّب بين الفروع والأغصان قادمًا من بعيد.

فانطلقت تلك الضحكة الرّنانة من ثغرها وقالت لـ «**ماهر**»: «لقد أقبل صديقنا، فالتفت «**ماهر**» فلم يرَ أحدًا فدوّر عينيه فيما حوله، فلم تقعا على الصّديق القادم».

وتحوّل بناظريه إلى الأميرة فرآها تبتسم، وعيناها تستقبلان الصّديق العزيز بسرور وترحاب، ومرة أخرى التفت نحو الغابة فرأى القرد الأشقر الجميل مقبلًا.. كنسمة ريح باردة في يوم قائظ.

وأسرع «**نولان**» إلى الأميرة وألقى بنفسه بين ذراعيها وهو يرطن بلغة القرود الّتي لم تفهم منها سوى صيحة تنبعث من قلبه: «يا.. يا.. يا..»، لكنّها كانت تشعر بمودته الحارة من دقات قلبه السّريعة، أمسكت به بحنان وراحت تربت بأناملها على الفرو الكثيف الذي يكسو ظهره هاتفة: أخيرًا يا صديقي المخلص، ها أنت هنا.

استسلم «**نولان**» لذراعيها، ودسّ رأسه تحت عنقها الدافئ وهو ينتفض كغصن لعب به النّسيم فاهتزت أطرافه، فالشّوق حين يتعاظم يصبح كفيفًا لا يفرق في السّن أو النّوع، فلهفته لمقابلتها لا يمكن أن تُوصف، ثمّ رفع رأسه فرأى الضماد الذي يحيط بكتفها، شمّه فأدرك أنّه جرحٌ، فصار يهمهم ويوَهوه لاغيًا: «هو.. هو.. هو..».

ثم التفت إلى «**ماهر**»، فأسرعت الأميرة وقدّمته إلى مرافقها قائلة: «هذا هو صديقي الأشقر الجميل».

مدَّ «**ماهر**» يده: «مرحبًا بك أيّها الصّديق». وأشارت الأميرة إلى القرد بيديها، بعد أن ضمت راحتيها معًا قائلة: «وهذا مرافقي وصديقي «**ماهر**»: أيّها الأشقر العزيز».

ووضع القرد راحة يده اليمنى في راحة «**ماهر**»، وظلّت يده اليسرى مضمومة الأصابع، فقالت «**شمس**»: «إنّه يطبق راحة يده على هديّة نفيسة، فرفع «**ماهر**» حاجبيه متعجّبًا، فتح «**نولان**» أصابعه ليكشفَ عن كيس صغير من القطنيّة ثمّ سحب يده من يد «**ماهر**»، ودسّ أصبعيه في الكيس الصغير مخرجًا منه ماسة نفيسة قدّمها إلى الأميرة»، فتناولتها منه شاكرة، انبعث من بين يدي الأميرة وهج مهيب بمجرّد احتضان أنار القمر للماسة.

فصاح «**ماهر**»: «هذا أعجب شيء رأيته في حياتي».

ثم دسّ أصابعه وراء أذن القرد «**نولان**» وهمس قائلًا: «كان ينبغي أيّها الصّديق أن تكون بشرًا.. وليس قردًا..».

فقالت الأميرة: «وما الفرق؟! لو كان مخلوقًا آدميًّا لاختلفت الصّورة واختلف الصّنيع!».

فهزَّ «**ماهر**» رأسه بدهشةٍ، عاجز عن تصديق ما تراه عيناه. كانت الأرض جافّة من حرارة الشّمس لكن الأعشاب والغصون كانت تتمايل كعرائس المروج، فأنزل «**ماهر**» عن ظهر الجياد أحمالها، ورفع السّروج وانتزع أعنّتها ثمّ شكّل قائمتي كلّ جواد بالشكال وتركها حرّة ترعى العشب.

ومدَّ على الأرض بساطًا من صناعة «**أوسان**»، فجلست «**شمس**» و«**نولان**»، وأشارت إلى كتفها، فأسرع «**ماهر**» وأحضر الأدوية، فكّ الضماد فإذا بالجرح قد ازرقّ على إثر ارتجاج جسدها أثناء عدو الجواد، لكنّه ما زال نظيفًا. ذرّ فوقه بعض الدواء، غطاه بالضماد مجدّدًا ليحول دون تعرضه لأي تلوّث.

مدَّ «**ماهر**» بساطًا آخر، جعله أشبه بمائدة تليق بشمس، حيث رصّ عليه آنية فيها من التّمر والزيتون والتّين المجفّف المشبّع بزيت

الزيتون، كما قدّم الفواكه المجفّفة المختلفة الّتي حوّلت المائدة الصغيرة إلى دائرة ملوّنة، وضع كلّ ذلك أمام الأميرة، وهمّ بالجلوس بعيدًا، لكنّها دعته إلى تناول الطّعام معها قائلة: «**«ماهر»** لم يعد بيننا منذ اليوم سيد ومرافق، نحن سواء في المحنة، وصديقان مغتربان تجمع بيننا مآس مشتركة، وصداقة قديمة وحقوق قديمة، لم أنسَ أنكَ مدرّبي ومرافقي منذ الصغر، هلمّ نتعشَّى معًا برفقة ضيفنا العزيز الأشقر» .

ضحك «**ماهر**» وانبسطت أسارير وجهه: «إنّنا والحق يقال ضيفان على صديقنا، على عالمه، ولا شكّ في أنّه سيكون عند حسن الظَّن».

فقالت الأميرة: «وإنّه لكذلك».

شرعا يتناولان الطّعام بهدوء، وقدّمت لنولان بعض الفاكهة فاستطاب التّمر والتّين فأكل منهما، وهو يغمغم كلامًا غير مفهوم، ولم تغفل عن تقديم الماء الممزوج بماء الزّهر لصديقها الودود، بعد أن شربا منه. كانت تلك الأحداث المتسارعة مفاجأة ما زالت تربك «**نولان**» وهو الذي اعتاد أن يقطع المسافات كرمى لها، فإذا بها أمامه الآن. ولم تكن «**شمس**» أقلّ منه قلقًا، لكن أسبابها

تختلف تمامًا، فتفكيرها مأخوذٌ بابن عمّها «**مالك**» الذي كانت تخشى تأخُّر وصوله إلى عاصمته الرّازحة تحت الأهوال، فسألت «**ماهر**»: «ترى ما الذي عاق الملك عن الوصول؟».

فأجابها قائلًا: «الجيش يا سيدتي والمشاة لأنّهم لا يستطيعون مجاراة الخيول في عددها، المشاة يمتطون أقدامهم».

فهزّت رأسها وأردفت: «صدقت». ثمّ سألته: «متى تتوقّع وصول الملك؟».

فأجابها: «خلال اليومين القادمين».

قالت: «أتوسّل «بلو» في أن يكون إلى جانب الملك، ويسهّل وصول جيشه قبل وقوع الكارثة».

فجاءها ردّ ماهر: «لو كان للملك وللجيش أجنحة لطاروا بها، والملك أوّل من يعلم بأنّه ليس من الصواب إنهاك الجيش الثقيل بالعدو والمشي السريع، وإلّا أُنْهِكَ الجنود وتبخّرت قدرتهم واستنزفت حماستهم، لا سيّما أنهم مندفعون نحو المعركة اندفاعًا قويًّا، وأنهم سيخوضونها حال وصولهم، وقد يهاجمهم «**ترهاقا**» فورًا حتّى لا يتيح للفرسان والمشاة أن ينالوا ولو قسطًا ضئيلًا من

الراحة، إنّ قوائم الخيول وأقدام المشاة تحتاج إلى الراحة بعد قطع تلك المسافة الطويلة الممتدة بين قلعة «**تاريم**» والعاصمة».

فقالت «**شمس**»: «كلّما فكّرت بترهاقا المجنون وعصبيّته وغضبه الجارف وقسوته، شعرت بالخوف لما قد يصيب سكان «**ذات البهاء**» لو تمكن ذلك المجنون من اقتحامها».

ثم همست: «لقد فقد «**ترهاقا**» ألوفًا مؤلّفة من خيرة جنوده في الأيام الأربعة الماضية».

عقّب «**ماهر**»: «إنّه مخلوق شرس، وشراسته ستدمّره، لأنّ الحرب تتطلّب قادة يتمتعون بفضائل الصّبر والجَلَد والهدوء والتمعّن والتفكير، والغضب على عكس ذلك تمامًا، فهو يطفئ مصابيح العقل. لهذا أنا واثق من أنّ الملك سيتغلب بهدوئه وحكمته على «**ترهاقا**» المجنون».

وأضاف مؤكّدًا: «إنّ الملك الشاب سينتصر... وما شكّكت في ذلك قط. لأنّ خصائص المعركة وشروطها ومتطلباتها متوفّرة كلّها في قلب ذلك الملك الشاب العاقل».

فهتفت الأميرة: «بُشّرت بالخير أيّها الصّديق، فإنّك لنعم الرّفيق الحصيف».

وعندما توسّط البدر السّاطع قبّة السّماء، تمكّن النّعاس من الأميرة، واستبدّ بها التثاؤب الذي لم تفلح في تجاهله، فهي بحاجة ماسّة إلى الرّاحة والنوم. أسرع «**ماهر**» بإحضار أغطية ثقيلة ووسادة، فاضطجعت مستسلمة للنوم، وضع الوسادة تحت رأسها وسحب فوقها الأغطية، ومضى ببساطة، يتأمّل المكان لكنّه لم يبتعد عنها، وجلس على مقربة من «**نولان**» وكلّ منهما غارق في أفكاره وخواطره.

مضى وقت طويل حتّى بدأ النّدى يندف ندفًا سحريًّا رقيقًا، فاخضلّت الأعشاب الخضر والجافّة، وترطّبت أفواه الجياد وأحشاؤها، وظهرت بلورات الندى على وجه الأعشاب والغصون، وصارت تتألّق في الهزيع الأخير من الليل كحبيبات الماس الدّقيقة.

لاحظ «**ماهر**» أنّ «**نولان**» يرنو إلى دلو صغير من الجلد، كانوا يصبّون منه الماء في أكوابهم، فظنّ أنّه يشعر بالظّمأ، فأسرع وملأ له طاسة بالماء، وراح يساعده على الشّرب، لكنّ «**نولان**» اكتفى ببضع رشفاتٍ لأنّه ما كان يشعر بالعطش، إنّما شرب منه تأدُّبًا ثمّ هبَّ واقفًا، وأدخل يده في الجلدة الّتي تحمل فيها الدلو، ووثب إلى أقرب الغصون إليه واختفى بين الأشجار الكثيفة،

تعجّب «**ماهر**»، لكنّه لاحظ الفجر الأبيض يسطع من وراء الأفق، فأدرك بأنّ القرد انطلق ليحضر شيئًا ما.

في هذه الأثناء أفاقت الأميرة من نومها، فبلّلت وجهها بشيء من الماء ثمّ جفّفته بمنشفتها، بينما شرع «**ماهر**» يوقد نارًا من عيدان الحطب والأعشاب الناشفة النديّة، ووضع وعاء فيه ماء فوق أثافي الموقد ليُحضِّرَ شرابًا ساخنًا من الأفاوية، ثمّ صبّ الشراب في كوبين قدّم أحدهما للأميرة، في ذلك الحين عاد «**نولان**» والدلو معلق في ساعده ووضعه أمام الأميرة، حيث كان ممتلئًا تينًا ناضجًا ورطبًا جنيًّا، وكان الرّطب في أوّل موسمه بينما التّين في آخر موسمه.

فأعجبت الأميرة بذكاء القرد الأشقر وسرعة خاطره وقالت: «إنّ الأشقر الجميل يخبرنا بأنّنا ضيوفه...».

وهكذا تناولا فطورهما مما لديهما من طعام، ومن الفاكهة الطازجة الّتي أحضرها القرد الذّكي.

بعد الفطور نهض «**ماهر**» للاهتمام بإطعام الجياد من علفها، ثمّ سقاها قليلًا من الماء، ولمّا طلعت الشّمس وانتشرت أشعتها الذهبيّة فوق الأغصان والأعشاب، ملبسةً إياها لونًا عسجديًّا

مضيئًا، شدّ «**ماهر**» السّروج على ظهور الجياد، وألبسها أعنّتها وساعد الأميرة على امتطاء جوادها، ثمّ اعتلى صهوة جواده وانطلقا في الغابة ومعهما «**نولان**»، وهما على بصيرة من أمرهما ووجهتهما؛ فنولان الآن يتولّى القيادة ويقود الجواد إلى حيث يريد هو، لأنّه أكثر منهم خبرة في عالمه الزاهي.

حين توسطوا غابات الأرض المنخفضة استقبلتهم أسراب الطّيور بالصّداح والتّغريد، وكانت الغابات تبدو أشبه بمدينة كبيرة، لكنّها من حروج وقصور شجريّة، تعانقت أغصانها عناقًا لا فكاك منه، والتفّت فروعها وتشابكت أطرافها وكأنّها تتخاصر في حفلة راقصة مشتركة من النّسائم والطّيور والحمائم. إنّها أشبه بالرقصات الشعبيّة الّتي تؤدّيها فلاحات القرى على مسارح الرّبيع.

وقد يشتدّ العزف وتقوى نبرات الألحان إذا اشتركت في الحفلة الرّياح الهوجاء، فتتمايل الأغصان في عنف وحركة سريعة دائبة تجاوبًا وامتثالًا لعزف الرّياح الصاخبة، لتبدو شبيهةً برقصة الزّنوج على قرع الطّبول والأبواق.

بدا الصباح مختلفًا بكلّ ما فيه، وكأنّ الطّبيعة تحتفي بضيوفها القادمين، فتمايلت مرحًا مظلات الصنوبر.

وتعانقت ضاحكة أشجار الأرز الباسقة بمظلاتها المتراكبة وكأنّها رفارف الحروج، وتغنّجت غصون السّرو والشّوح والسّنديان، وترنّم الشّجر منسجمًا مع تغريد البلابل والعنادل، ونداءات طيور الخطّاف والسنونو الداعية إلى الرّحيل؛ تجاوبًا مع غرائزها الّتي تدفعها إلى الطّيران والتحليق أسرابًا أسرابًا لتقوم برحلتها الطبيعيّة إلى بلاد الغيوم والسّحب والبرد في الأصقاع الشماليّة المتراكمة الثلوج والجمد.

وكانا كلّما اقتربا من نهاية الأرض المنخفضة اتضحت الصورة أمام أعينهما وأشرفا على مناظر أكثر جلاءً ولمعانًا ورونقًا.

ها هما يقتربان من الوادي الأخضر وهو أكثر عمقًا، وغاباته أكثر كثافة، وأثماره أكثر حلاوة وأصنافًا وأنواعًا، لأنّه واد مرويّ بمياه النّهر الدافقة وجداوله المنسابة فوق التربة كالجذور المنسابة من تحتها، وشلالاته عجب من العجائب؛ تبدو من بعيد وكأنّها ستائر من الحرير النّاصع البياض، مساقط مياهها كأنّها زبدة الحليب واللبن؛ أو أزهار وردٍ مخملي أبيض.

إنّه الوادي الأخضر، عالم الغصون والفروع الرّاقصة، الّتي ترقص مرحًا دون انقطاع، وتتمايل تغنّجًا ببراءة طبيعيّة غير

مصطنعة، هنا توجد الطّبيعة النقية المجرّدة من العيوب والأعراف والأمزجة البشريّة المتقلبة فالأشجار لا تغزو، والحيوانات لا تعتدي، والأزهار لا تفحّ سمومًا في الوجوه، والطّيور تقوم مقام العذارى في المروج.

هنا حيوانات كغزلان المها والظّباء والآرام والماعز والوعول الجبليّة تحيا سعيدة دون خوف أو وجل من الحيوانات المفترسة لعدم وجودها. تتلألأ الفرحة في عيونها لمولد كلّ يوم جديد، وتقرأ آية الطهر والبراءة في تلك العيون الصافية كمياه الجداول المترقرقة والينابيع المتفجرة. حيوانات جميلةٌ متآلفةٌ، وقد تتناصح أحيانًا أثناء اللهو واللعب.

فالأرزاق موفورة من الأعشاب الطازجة النديّة وأوراق الأشجار المتساقطة من مداعبات النّسائم والرياح.

في فصل الخريف يُخيِّم الصمت على الوادي، ويشيع في أساريره السّكون، وهو يبتسم دائمًا، لكنّه لا يقهقه قهقهة المعربدين، خصوصًا بعد أن رحلت الطّيور القواطع إلى بلاد الثلوج والصقيع، وبقيت الطّيور الأوابد، وهي الطّيور المحليّة الّتي لا ترحل ولا تقطع.

لقد أمِنت الطّيور من الغوائل، لذلك اتّخذت من ذلك الوادي

الأخضر الآمن موطنًا للطّيور الأوابد ومنتجعًا للطّيور القواطع، فالقتل والافتراس غير موجودين في عالم الطّبيعة الأخضر وفوق مسارحها الزّاهية، هنا تتألق كلّ الأحجار الكريمة بألوانها المتماوجة، ما عدا حصيّات الماس الّتي يلعب بها «**نولان**».

الدّماء في الوادي الأخضر لا تراق إلّا لحادث طارئ، كأن يقع غصن على حيوان مار، أو تسقط شجرة معمّرة على سرب من الغزلان أو ثور وحشي أو سرب من الأرانب المتوثّبة لهوًا ولعبًا.

دخل الركب حرم الوادي المقدّس الخالي من الكهنة والسدنة وتجّار الدين، فوقفت الأميرة «**شمس**» يجاورها «**ماهر**»، وأمامها وقف «**نولان**» ولسان حاله يقول: «أقدّم لكما أيتها السّيدة وأيها السيد عالمي الأخضر الجميل».

وهبّت النّسائم العليلة مضمخة بطيوب الأشجار وعبير الأزهار وكأنّها أفرغت ألوفًا من قوارير العطور تحت أقدامهما.

وقف «**نولان**» بتواضع على حافة الوادي وهو يهمهم بلغته الطّبيعيّة، الّتي بدت معبرة، وتزداد تعبيرًا عن خواطره حركات شفتيه وإشارات يديه وأصابعه، والفرح والمرح يتجاوبان مع اهتزازاته وتوثبه ونشاطه.

وقعت أنظارهما على أشجار البنيان في أسفل الوادي، وهي أكبر من الحروج والقصور البشرية، تعلو إلى ما يعلو على خمس طبقات من قصور البشر، وتمتد جذوعها ما يقرب من مئة وخمسين مترًا في الاتجاه الأفقي أي في قاعدتها الهرميّة، وتظلّ جذوعها الضخمة تعلو وترتفع على شكل قصر مؤلف من خمس طبقات، بحيث يستطيع الإنسان أن يقيم لنفسه منزلًا في تلك الجذوع دون أن ينقصف غصن من أغصانها.

والتفتت الأميرة إلى غزلان المها فهتفت: «ما أجمل هذه الغزلان!». وكان «**نولان**» يعرف أكثر منها بأنّ عينيها أقرب إلى عيون المها من عيون البشر، فوجهها جامعٌ لكل أنواع الجمال في هالته المشرقة؛ يفوق جمال الغزلان، أمّا التاج المركّب فوق رأسها من شعر الأبنوس فقد رآه حرًّا طليقًا حول وجهها كإطار من أبنوس حول أيقونة رائعة الجمال. كانت ترى عيون المها بريئة صافية، لكن «**ماهر**» رأى إنّها تحاكي البراءة في عينيها.

وصمتت الجياد الثلاثة أمام مناظر الوادي الخلابة فقد كانت أجدادها في الأزمنة الغابرة تعيش في مثل هذه المسارح والمراعي.

وعجبت غزلان المها وغيرها من الحيوانات المارّة والطّيور

المصفّقة بأجنحتها حتّى الأرانب، من وجود «**نولان**» مع هذين المخلوقين العجيبين، لكنّها شعرت بالطمأنينة لأنّ وجود «**نولان**» معهما يعني أنّه لا خطر منهما.. فالقرود في الغابات العذارى أوّل من يحسّ بالخطر عند وجوده أو حدوثه وهي ـ أي القرود ـ قبل طيور العقعق والببغاوات تحسّ بالخطر وتعلن عنه بأصواتها محذرة منذرة.

فتنت «**شمس**» بمنظر غزلان المها وعيونها الحور وأجيادها المشرئبّة، وما يتمايل فيها من غيد طبيعي، ومن انسجام متوازن بين وجوهها المستطيلة وقرونها المنتصبة، وذلك الصوف الشّبيه بالفرو المنسجم على أجسامها بلونيه الأبيض والأسود.

ولم تكفّ الجياد عن الحمحمة، وهي تشرف من علٍ على ذلك العالم العجيب؛ عالم الأغصان والأزهار والجداول والشلالات والأعشاب النديّة الّتي سال لها لعابها، فراحت تستنشق عبير الغابات والأزهار بشراهة، وتحاول أن تطهر أنفاسها من روائح الإسطبلات والمزارب والشّوارع المغبّرة وروائح عرق البشر و...

تقدّم «**نولان**» ضيوفه في طريق منحدر بين أشجار الدّردار الشامخة بقوّة جذوعها وأغصانها وصلابتها، فهو دليلهم إلى

الطّريق الصّحيح، ووثب فوق الأشجار يطير من غصن إلى غصن مستعينًا بيديه وقدميه إلى أن أصبح الرّكب في حضن الوادي، فأطبقت على الأميرة ومرافقها حناياه وجوانحه .

لقد بدا الوادي وكأنّه قد فُرِشَ بسجادة ساحرة الألوان، من أوراق الشّجر المتساقطة لحلول فصل الخريف، وقد طرأ عليها الاصفرار الذي مسّ الأوراق المعلّقة بأغصانها استعدادًا لاتخاذ مكانها على أرض الوادي.

ظلّ «**نولان**» يقود ضيوفه في ممر الوادي الأخضر الطويل إلى ما بعد الضّحى العالي، ورأته الأميرة «**شمس**» ينتقل إلى شجرة تين باسقة معبعبة على جانب الطّريق تسلّقت جذعها وأغصانها دالية عنب، تتدلّى قطوفها العنبيّة بحجمها الكبير لذّةً للناظرين.

ورأته يقطف قطفين من العنب، ويتدلّى من أحد الأغصان بعد أن لوى حوله ساقيه إلى أن أصبحت هي ومرافقها «**ماهر**» تحته مباشرة، فمدّت يدها وتناولت منه قطف العنب واقتدى بها «**ماهر**»، فتناول منه القطف وبينما راحا يلتهمان حبّاته النّاضجة ويتذوّقان بشهيّة شراب العنب البارد، اعتدل «**نولان**» في جلسته فوق الغصن وراح بدوره يلتهم القطف اللّذيذ الذي اختاره لنفسه.

والتفتت الأميرة إلى صديقها طالبة منه أن يساعدها على الترجّل ـ فأسرع إلى تلبية طلبها، ومدّ لها فوق الأعشاب بساطًا من صنع البشر، فجلست تأكل حبات العنب بشهيّة وتلذّذ.

والتقط «**ماهر**» عن ظهر الجواد سلّة صعد بها إلى شجرة التّين فملأها عنبًا وتينًا، ثمّ نزل وجلس على العشب الجاف قريبًا من الأميرة ليأكلا معًا..

ثمّ تسلّق «**ماهر**» الشجرة مرّة أخرى ليملأ السلّة من جديد، ولكن هذه المرة سيكون التّين والعنب زاد طريقهما، حيث استأنفا مسيرتهما، وغاب «**نولان**» بضع دقائق وعاد وهو يحمل في يديه جانبًا من قطف الموز يزيد طول الموزة الواحدة منه عن الشبر.. وقدّمه إليهما فأكلا موزًا بعد العنب والتين، وهما يضحكان ويداعبان «**نولان**» ويثنيان على جوده وكرمه.

واستأنف الرّكب مسيرته في الوادي الأخضر، حتّى تربّعت الشّمس فوق قبّة السّماء وهي تصب أشعتها الذهبيّة عموديًّا على الغابات، فقادهما «**نولان**» إلى نبع رقراق تتدفق مياهه في جدول منسابٍ بين الأوراق المتساقطة، فتوقّفت الأميرة «**شمس**» مبتهجة بمرأى المياه الصّافية، ساعدها ماهر على الترجّل، وفرش البساط

بمحاذاة النّهر، فغسلت وجهها، وأطلقت العنان لسعادتها ترشّ الماء على ساقيها ويديها، بينما شرع ماهر في ملء دلوه وراح يسقي الجياد بعد أن حرّرها من أعنّتها، فلمّا ارتوت صبّ المياه فوق سيقانها، وتركها ترعى أعشاب الجدول.

وعاد «**نولان**» بعد قليل وأخذ يشير بيديه إلى «**ماهر**» لكي يتبعه، فقالت له «**شمس**»: «إنّه يريد منك أن تتبعه إلى عشّ في حفرة عميقة بين شجرتين متقاربتين». تقدّم نحو العش ونظر فيه فرأى خمس عشرة بيضة من بيوض الدّجاج البري في قعره، فتناول إحداها وكسرها فوجدها سليمة، نقل البيوض إلى منديله وعاد مسرورًا إلى سيّدته ووضعه أمامها.. فدهشت وأعجبت بذكاء «**نولان**».

وفي الحال أشعل «**ماهر**» نارًا حامية وحضّر أقراصًا من البيض المقلي، ثمّ جلس الجميع لتناول طعام الغداء، ولأوّل مرّة ذاق «**نولان**» طعم البيض المقلي بالسّمن البقري لأنّ القرود تأكل بيوض الطيور، ولكنّها لا تأكل لحومها. وعند العصر استأنف الرّكب رحلته، حتّى لوّحت الشّمس بالمغيب، فكانت محطة الوقوف شجرة تين وارفة، أغصانها تتدلّى فوق محيطها فقرّرا قضاء الليلة تحت أغصانها.

حفر «**ماهر**» حفرة كبيرة ملأها بالحطب والأعشاب الجافة، وأقام على طرف منها ثلاث أثافٍ، وأوقد فيها النار مقتدحًا بالزّند حتّى اشتعلت الأعشاب وسرى لهيبها بين الأجذال والحطب.

وتناول «**نولان**» دلو الجلد وغاب في عمق الغابة ثمّ عاد به ممتلئًا ببيوض الدّجاج البري، فسلق «**ماهر**» البيض، وجلس مع أميرته بمشاركة «**نولان**» لتناول العشاء، بما اجتمع من البيض واللّبن المجفّف والزّيتون وأثمار التّين والعنب والموز، بعد هذا العشاء المميز، نامت الأميرة فوق بساطها، وعلى مسافة منها جلس «**ماهر**» حارسها الأمين، إلى جانبه مضيفهما «**نولان**».

في تلك الليلة نامت الأميرة نومًا عميقًا بعدما شعرت بالأمن والطمأنينة. والتقطت عينا «**ماهر**» بضع غفوات، وهو مستند بظهره إلى إحدى الأشجار. أمّا «**نولان**» فقد راح يهوّم تهويمًا ورأسه يتمايل من شدّة النعاس، حتّى لاح الفجر فهب منطلقًا كعادته في الغابة، بينما استيقظ «**ماهر**» وراح يتفقد الجياد، ويزوّدها بالطعام والماء.

ثم عاد وأشعل النّار في الحطب، وسلق ما تبقّى من البيض، وكانت الأميرة أثناء غيابه قد استيقظت فغسلت وجهها وسرّحت

شعرها، وجلست على بساطها تنتظر صديقها؛ الذي عاد حاملًا عرنوسًا من الموز، فتناولوا طعام الفطور ثمّ استأنفوا مسيرتهم في الوادي.

وبعد الضّحى أوقفت الأميرة جوادها وإلى جانبها مرافقها «**ماهر**»، وراحا يرنوان ويطيلان رنوهما إلى النّهر الكبير المتدفّق على مسافة أمتار منهما في دهشة وعجب، وقد فاض السرور من قلبيهما وتأجّجت مشاعرهما بالفرحة الغامرة المقرونة بالإعجاب بالقرد الأشقر الواقف على حافة النّهر وهو يبتسم للأميرة مرحّبًا بعينيه المتألّقتين.

فهتف «**ماهر**»: «مرحى مرحى لك أيّها الصّديق الجميل». لقد قادهما «**نولان**» إلى وادي السّعادة، واختار لهما المكان الذي سيسكنانه على ضفّة النّهر الماسي المتدفّق، وسُرّ لرؤية أوّل إنسانين يقفان مشدوهين غير بعيد عن شاطئه الزمردي.

فترجّل «**ماهر**» عن جواده وساعد الأميرة على الترجّل، وتقدّما معًا نحو «**نولان**» وقد فتح كلّ ذراعيه لمعانقته، فجعلا القرد بينهما وأخذا يربتان على ظهره في أجمل تحيّة عرفانًا واعترافًا بجميله الغامر.

وكانت أوّل القادمات لاستقبالهم القردة الجميلة «**نايان**» ـ أم «**نولان**» وكانت قد نزلت عن شجرة البنيان ـ وأخذت ابنها بين ساعديها وانهالت عليه بالقبل، وهما يرطنان معًا بكلام لا يفهمه البشر، لكن عناقهما كان أفصح من كلّ اللغات.

وأقبل وأمّه إلى جانبه وراح يؤهئه مقدّمًا أمّه لضيفيه، فمدّت الأميرة إليها يدها محيّية وكذلك فعل «**ماهر**» فأمسك كلّ منهما بيد من يديها وهما يسمعانها أرق العبارات بنظرات ودودة وإشارات تدل على سرورهما بلقائها.

في أوّل الأمر ظنّت الأميرة بأنّ «**نايان**» هي أنثى «**نولان**»، لكنّها غيّرت رأيها فيما بعد عندما رأته لا يغازلها مغازلة الذكر للأنثى. ثمّ أدركت من المقارنة بين عينيها وعينيه ووجهها ووجهه أنّها أمّه.

وأعجبت بفرائها الناصع البياض، ولطفها وهدوئها، في ذلك الجو الحافل بالرّوائع والفنون الطّبيعيّة.

وصدحت البلابل والعنادل والحساسين وسائر طيور الغرد لمرأى الزّائرين العجيبين وخيولهما الثلاثة، وغنّت وشقشقت وغرّدت كلّ الطّيور الأوابد، وهتفت الأميرة معجبة ومؤمنة بجمال

الطّبيعة وطيورها وحيواناتها ومناظرها الخلّابة قائلة: يا له من استقبال حافل.!

وفي تلك اللَّحظة أقبلت عشيرة «**نولان**» كبارًا وصغارًا، ذكورًا وإناثًا لتحيي «**نولان**» وضيوفه ـ الذكور بلون فرائها الأشقر، والإناث بلون فرائها الأبيض وعيونها وأسارير وجوهها المتشابهة.

فاستعرضت عشيرة القرود أجسامها الجميلة أمام ضيفي «**نولان**» وأقبلت على صاحبها تحيّيه باللّمس وحكّ الأنوف.

ونولان سعيد مشرق يؤهئه ويخطب ويشير بيديه إلى ضيفيه العزيزين، وأخيرًا قاد «**نولان**» ضيفيه إلى شجرة بنيان ضخمة على بعد بضعة أذرع عن شجرة أمّه، وكانت مؤلفة من أربع طبقات من الجذوع الضّخمة والأغصان والفروع الممتدة أفقيًّا وعموديًّا حافلة بأوراقها وخضرتها الزّاهية.

وأسرع «**ماهر**» فألقى الأحمال أرضًا عن صهوات الجياد. وشرع يعدّ عريشة لسكنى وإقامة الأميرة تحت شجرة البنيان بصورة مبدئيّة.

فعثر على جذوع جافة قويّة ثبتها في حفر عميقة، وكسا جوانبها بالأغصان والفروع الكثيفة، ثمّ تسلّق نخلة عالية بواسطة

حبل على طريقة المدربين على تسلّق أشجار النّخيل وأمثالها وشرع ببلطته الحادة يقطع سعف النّخلة وعذوقها المثمرة.

ثم نزل فرفع السّعف فوق الكوخ، فصار سقفًا ثمّ ربطه، ووضع فوقه طبقة أخرى من السّعف وأحكم ربطها بالطبقة السفلى، ثمّ وضع طبقة ثالثة وهكذا دواليك حتّى صار سقفًا متينًا لا تزعزعه الرّياح والعواصف.

وجعل للسّقف رفارف من عوارض خشبيّة رقيقة ليلقي المياه المنحدرة من السّقف، ثمّ التفت إلى الأميرة قائلًا لها: «غدًا سأضع طبقة من الطين فوق السّقف لمنع تسرّب الأمطار إلى داخل الكوخ إذا فاجئنا المطر».

قال هذا، ثمّ تنهّد تنهيدة ارتياح، وراح ينقل إلى داخل الكوخ كلّ الأغراض الّتي جاء بها، ثمّ أعدّ للأميرة فراشًا وثيرًا، فوق البسط المفروشة.

وشعرت الخيول إنّها موجودة في مسارحها، ولو أنّ قوائمها ليست مشكولة بالشكال لانطلقت على سجيّتها عدوًا وجريًا على ضفاف النّهر، لكنّها اكتفت بالحجلان على شاطئه وهي ترعى أعشابه الطريّة.

وقضت الأميرة «**شمس**» بقيّة النهار وهي تمتع ناظريها بمشاهدة البط والإوز والبجع الّتي تسبح وتتهاوى فوق مياه النّهر، وطيور العرعر والفرات في الخليج المتفرع عن النّهر في بقعة واسعة ومجوّفة من الأرض.

فشاهدت في جلستها المريحة قرب المخاضة القائمة بين النّهر والخليج أسراب الغزلان والظّباء بألوانها العقيقيّة أو المنقطة بنقاط سوداء وبيضاء وهي تَرِد إلى النّهر لترتوي من مياهه قبل حلول المساء.

لم تكن الأميرة «**شمس**» قد حظيت من قبل بمشاهدة مثل هذه الحيوانات، خصوصًا الثيران البريّة، بل ربّما سمعت عن هذه الكائنات في الحكايات المروية، ولولا وجود «**ماهر**» قربها يسمّي لها الأشياء بأسمائها لظنّت إنّها في حلم غريب، أو أنّ ما روي لها من قبل ما كان إلّا أساطير.

وفي أثناء تناول العشاء لفتت الأميرة انتباه «**ماهر**» إلى أنّ «**نولان**» الذي أتحفهم بما لذّ وطاب من البيض والفواكه، ليس حيوانًا لاحمًا البتّة، وكانت كلّما قدمت له قطعة من اللحم المقدّد، يأخذها في أدب ثمّ يعيدها إلى مكانها في الصّحن ويتناول بدلًا منها تينة أو موزة.

فقال «**ماهر**»: «القرود حيوانات نباتيّة لا تأكل اللحوم، وربما تخشى وتحذر من أكلها خصوصًا من الإنسان لئلّا يطمع بلحمها أيضًا.. لذلك فهي لا تصادق إلّا القليل من البشر، ونادرًا ما تتوثّق بينها وبين البشر الصداقات، وذلك لأنّ حاسّة الشّم في أنفها شديدة جدًّا مثل جميع الحيوانات في الغابة. والقرد يستطيع أن يميّز رائحة اللحم من بين كلّ الأطعمة».

صمت «**ماهر**» برهة ثمّ أردف: «أخشى لو اصطدنا بعض الطّيور والأرانب أن يشمئز «**نولان**» منّا وربّما غادرنا ورحل عنا، لأنّ القرد يستطيع أن يستفهم من ريشة ملقاة على الأرض ما إذا كانت الريشة نتفت من طائر مذبوح، أو من طائر مات موتًا عاديًّا».

فهزّت الأميرة «**شمس**» رأسها مؤمنة بما سمعت، شاعرة بالحزن والأسى لمصائب الحيوانات والطّيور بعد الذي شاهدته في معركة الأسوار من مصائب البشر، فقالت: «لا لحوم بعد اليوم إنّها محرّمة عليّ، ما دمت موجودة في هذه الغابات الحرم».

والتفتت إلى «**ماهر**» فوجدته غارقًا في خواطره فابتسمت وقالت: «هل من شيء يزعجك أيّها الصّديق؟».

فرفع عينيه إليها وقال: «إنني أفكِّر ببناء كوخ أكبر من هذا يقيك من برد الشّتاء وأمطاره الغزيرة والرّياح العاصفة عند هبوبها في الشّتاء القادم».

فقالت: «لا عليك، سنتعاون معًا على بناء الكوخ الكبير بعد أن نقوم بجولة في الغابات من حولنا للبحث عن اللحاء الليفي والنبات المداد، لصنع الحبال وعيدان القصب الغليظة، وكلّ ما يلزم لبناء الكوخ الشّتوي».

فقال «**ماهر**» مستبشرًا: «أصبتِ».

أخرجت الأميرة من حقائبها شمعدانين من الفضة وكثيرًا من الشموع الّتي جاءت بها من القصر وسرج الزيت وفتائلها، ثمّ وضعت شمعتين في شمعدان وأضاءتهما، فطردت شعلتاهما مقدمة العتمة الّتي داهمت الكوخ، وفي أثناء انشغالها أقام «**ماهر**» على باب كوخها سجادة سميكة لتصدّ الهواء البارد، ومدّ سجادة أخرى بين عمودي الكوخ الخشبيين وربطهما، ثمّ أمال طرفيها نحو الأرض وربطهما بوتدين خشبيين وثبّتهما في الأرض دقًّا، فصارت السجادة أشبه بعريشة من جانب واحد، تقي جسده وملابسه من الندى النادف في الليل الطّويل. كلّ ذلك فيما كان «**نولان**» منصرفًا بعينيه إلى تفحص الشمعدان والشمعتين المشتعلتين.

وسمعت الأميرة رفيقها «**ماهر**» يتمتم قائلًا: «ليتني أحضرت معي ولو جملًا واحدًا فإنّ الجمل أقوى وأصبر من الجواد على حمل الأثقال». فقالت الأميرة: «هوّن عليك لو أردت جمالًا، عليك أن تسافر نحو الشمال لأنّ الطّريق إلى المدن أطول من الطّريق الشرقي المؤدِّي إلى «**ذات البهاء**» وما حولها».

فقال: «هذا لن يكون في الوقت الحاضر، ولكن بعد القيام بجولة فيما حولنا لاكتشاف ما في هذا الوادي من عجائب وغرائب، أقوم برحلة قصيرة إلى الشمال كما ذكرت لتقصي الأنباء وشراء ما يلزمنا من المؤن للشّتاء القادم».

فقالت: «هذا نِعْمَ الرأي».

وأخرجت «**شمس**» الماسة الأخيرة الّتي أهداها إياها «**نولان**» وعرّضتها إلى نور الشمعتين وراحت تتفحصها، كانت الماسة بحجم بيضة الحمام لونها ضارب إلى الزّرقة، وعندئذ سمعها «**ماهر**» تهمس بإعجاب: «إنّها من الماس النادر النفيس».

فسألها «**ماهر**»: «ليت شعري من أين أتى بها هذا القرد». فضحكت وقالت: «أعتقد أنّه عثر عليها وعلى غيرها مما أهداني من قبل في مكان من هذه الأرض الرائعة، وأظنه يحسبها حصوات

للّعب، لكنّني شاهدته إحدى المرات يحدّق في عقدي الماسي وأعتقد أنّه كان يقارن بين ماساته وعقدي النّفيس».

وأضافت: «إنّه قرد ذكي جدًّا، وكلّ تصرفاته ناجمة عن تفكير سليم، وإلّا لما فكّر بأنّ يتحفنا بالفاكهة اللَّذيذة لمجرد أننا أطعمناه التّمر والتّين المجفّفين».

وبدا على الأميرة أنّها متعبة فاستأذن «**ماهر**» وغادر الكوخ، ولمّا رأى «**نولان**» الأميرة تتهيّأ للنوم، غادر بدوره وتسلّق شجرة البنيان لينام قرير العين قريبًا من أمّه.

وأرخت الأميرة طرف السجادة، فوق الباب واستسلمت لأفكارها بعض الوقت؛ ثمّ ما لبثت أن غفت وغرقت خواطرها في الأحلام والأخيلة.

في وقت مبكر من الصّباح استيقظت الأميرة فطوت الأغطية ووضعتها جانبًا، ثمّ رفعت سجاف الكوخ وأطلّت برأسها فلم ترَ أحدًا لا ماهرًا ولا «**نولان**»، كان كلّ منهما قد ذهب في طريق.

ذهب «**نولان**» لإحضار بعض الفواكه.

وانطلق «**ماهر**» للبحث عن أشياء كثيرة حاضرة في ذهنه.

ومشت الأميرة نحو النّهر وهي تفحص بعينيها كلّ شيء ماثلٍ

أمامها وعن يمينها وشمالها، ولمّا وصلت إلى ضفّة النّهر نسيت نفسها، وانشغلت بمشاهدة أسراب البط والإوز والبجع، وهي تطير أسرابًا ثمّ تحطّ فوق مياه النّهر.

وبعد دقائق انتبهت، فغسلت وجهها ورجليها، وجفّفت نفسها بمنشفتها ثمّ عادت أدراجها إلى الكوخ، وما هي إلّا دقائق حتّى حضر «**نولان**» حاملًا دلوه المفعم بالتين والعنب، وبيده الأخرى عرنوس من الموز.

فألقت عليه تحيّة الصباح فردّ عليها بلهجته المألوفة: «يا.. يا.. يا..».

فأخذت التّين والعنب من يديه وذهبت إلى النّهر فغسلتها وهو ينظر إليها ثمّ عادا فوجدا ماهرًا يوقد النار ليسلق البيض ويعدّ الفطور.

أفطرا معًا فيما «**نولان**» يثرثر.. وبعد قليل اختفى وتوارى عنهما بينما انشغل «**ماهر**» بإصلاح كوخ الأميرة وسد ثغراته، وبعد ساعة سمعا جعيرًا مخيفًا من جهة النّهر فأسرع «**ماهر**» إلى رمحه وشرّعه بين يديه بينما استلّت الأميرة سيفها من غمده ووقفا ينظران في كلّ الاتجاهات.

وفجأة ظهر «**نولان**» وخلفه حيوان بشع لم يرَ أحدهما له مثيلًا من قبل، كان يسير وراء «**نولان**» مباشرة فانكمشت «**شمس**» لدى رؤيته وهمست برعب: «يا إلهي كم هو بشع ومخيف!».

واهتزّ جسدها بعنف عندما رأت «**نولان**» يقفز فوق كتفي الحيوان المخيف ويلعب معه ويداعبه، والحيوان مستأنس بالقرد الأشقر.

فالتفتت إلى «**ماهر**» وسألته قائلة: «أرأيت من قبل مثل هذا المنظر؟».

فهتف: «لا وحق«**بلو**»».

اضطرب قلب الأميرة، وارتجفت أعضاؤها، وهي تنظر إلى الأرض، كان المشهد رهيبًا ومخيفًا لها فجحظت عيناها وهي تراقب «**نولان**» يقفز متقدّمًا صديقه الدّيناصور الَّذي تهاوت قدماه على الأرض بتثاقلٍ، ثمّ اقترب «**نولان**» من الأميرة، وتناول يدها المرتجفة ومضى بها مطمئنًا نحو الدّيناصور وما إن وقفت الأميرة قبالته حتّى رفع «**نولان**» يدها ووضعها في يد الدّيناصور.

وأخيرًا تجرّأت، فرفعت عينيها إلى عيني الدّيناصور الكبيرتين الواسعتين، كانتا مثل فوّهتي بركان ينبعث اللّهيب منهما،

فارتجفت لكنّها سمعت حمحمة رقيقة صدرت من حلق الدّيناصور فتماسكت، ثمّ سحبت يدها برفق من يده شبه المشلولة.

واستجمعت شجاعتها فربتت براحة يدها على صدره، فسمعت تلك الحمحمة تخرج من حلقه.

ظلّ «**نولان**» يتقافز بفرح، يرسل صوته المبتهج، يشعر بالفخر بنفسه لأنّه نجح في تقديم الدّيناصور إلى الأميرة «**شمس**». وظلّ يشير بيديه الاثنتين موزعًا إشارتهما بين الأميرة والوحش المخيف.

ثم أسرع إلى «**ماهر**» فكرّر صنيعه مع الأميرة، وجعله يمدّ يده مسلّمًا على الدّيناصور، وازداد فرحًا حين شعر بأنّه نجح هذه المرّة أيضًا في وصل حبال الصّداقة بين «**ماهر**» والدّيناصور.

أسرعت الأميرة فأحضرت طبق الفاكهة وراحت تحشو بها فم الدّيناصور، فكاد «**نولان**» يطير من شدّة الفرح، عبّر عن ذلك بالرّقص والقفز، والدّيناصور يبتلع الفاكهة من يد أجمل حسناء في ذلك العصر؛ وهو يهمهم ويحمحم مستمتعًا بمتعتين، لذّة الفاكهة ومتعة النظر فهمست «**شمس**» في أذن «**ماهر**»: «لقد أحضره ليعرفه علينا ويعقد بيننا وبين الدّيناصور صداقة، وربّما اتفاقًا على عدم الاعتداء فما رأيك في ذلك؟».

فقال «**ماهر**»: «أتظنين أنّ من يحدو به تفكيره نحو هذه الأفكار يكون من عالم القرود؟ لا أبالغ يا مولاتي لو قلت لكِ إنّه ليس من البشر فحسب، بل من أنبلهم أيضًا».

وبعد التعارف تابع الدّيناصور مسيره، فيما توسّط «**نولان**» الأميرة ومرافقها ممسكًا بيد كلّ منهما بإحدى يديه وسار الثلاثة في تشييع الدّيناصور وهو يغادر الغابة حتّى توارى عن الأنظار.

فانحنت الأميرة على «**نولان**» وقبّلته بين عينيه هاتفةً بامتنان: «أيها الصّديق العزيز ما أكرمك**!**».

ارتفعت مكانة «**نولان**» كثيرًا في عيني «**ماهر**» وتقديره وحبّه له، فيما رأت الأميرة فيه معجزة أرسلتها إليها الآلهة لتساعدها على عبور محنتها بسلام.

مضى «**ماهر**» يبحث عن طين جيد لتسوية سطح الكوخ، فعثر على ضالته في مكان لا يبعد كثيرًا عن النّهر، أحضر منه ما يكفي وجمع قشًّا جافًّا وخلطه به، ثمّ راح يسطّحه ويسوّيه بملعقة كبيرة فوق سطح الكوخ.

واستمرّ يعمل حتّى وثق من جودة النتيجة. ورضي عنها. وفي

تلك الأثناء غرقت الأميرة في أفكارها، وحدّثت نفسها: «غريبة محبّة هذا القرد لها!».

في الواقع لم تكن تعرف أنّ اسمه «**نولان**»، لكنّها فهمت اسمه من أمّه وهي تناديه، فصارت تدعوه باسمه، فتملكته السعادة. وحدّثت نفسها من جديد: «ليت الإنسان يشعر بمثل هذا الحبّ والنُّبل نحو أخيه الإنسان».

وتذكرت والدها الراحل فقالت: «لولا سوء تصرّفه وانقلابه على ابن أخيه، لما كنّا هنا، ولما وقعت كلّ تلك الحروب والمآسي».

وتنهدّت بحرقة، ثمّ أردفت: «إنّ عدم الوفاء بالعهود وَخِيمَة مثل العسل المسموم أوّله حلو وآخره موت محقّق». تأوّهت بحرقة: «هذه الخيانة أسقطت العائلة المالكة من عيون الرعيّة ومن اعتبارها وتقديرها. فنحن الآن في نظر الرعيَّة خونة تسببنا لهم بالعذاب والشّقاء، ولولا طمع أبي بالحكم لما عمّ الفساد البلاد.

لقد منحنا الناس ولاءهم وحبهم وثقتهم، فخانهم أبي ليمتع نفسه بمتاع الغرور، وبهرجة الملك وزخارف العرش ـ والعرش له صاحبه. أمّا الرعيّة فهي منغمسة في برك من دماء أبنائها. وعمّا قليل

سينغمس الملك الشرعي «**مالك**» ابن عمي في مستنقع الحرب المعدّة، وكلّ ذلك بسبب أخطاء أبي وشروره.

نعم! لقد أراد أن يحدث انقلابًا ليرفع نفسه إلى العرش، فانقلب العرش على رأسه».

ظلّت الأميرة نهب أفكارها المؤلمة هذه حتّى أفل النّهار، ووجدت نفسها محاطة بمائدة عامرة بالطيبات مع صديقيها المخلصين «**ماهر**» ونولان. قال «**ماهر**»: «غدًا سأحمّص ما تبقى لدينا من خبز قبل أن يناله العفن»، وأضاف: «يجب أن نتعوّد رويدًا رويدًا على نسيان الخبز، إلى أن نكتشف شيئًا جديدًا يحلّ محله».

ونظر إلى الأميرة مستطلعًا موقفها، فابتسمت وقالت: «لقد أعددت نفسي لكل الاحتمالات، وسأعيش كما النسَّاك في صوامع «**حضرموت**»!».

وبعد العشاء أخبرها أنّه يتوقّع أنّ الملك قد عاد إلى «**ذات البهاء**» والحرب ما زالت مستمرة، فرفعت عينيها إلى وجهه واعتصمت بالصّمت.

وأتبع قائلًا: «لقد صعدت اليوم إلى أعلى نخلة في الجوار،

ونظرت نحو السّهل فرأيت غبارًا كثيفًا ودخانًا أسود قريبًا من «**ذات البهاء**».

فردّت عليه في فتور قائلة: «سينتصر الملك، لأنّ المعركة تدور بين جيش مدرّب مقدام، وجيش متوحش تدريباته بدائيّة، وأنا واثقة من انتصار الملك».

واستطردت تقول: «أعتقد أنّني سأقضي ما بقي من حياة في هذا الفردوس الرائع، فقد سئمت حياة المدن وشرورها.

وكيف أعود إلى «**ذات البهاء**» بعد الّذي أصاب سكانها وسكان البلاد من مآس ونكبات، لا سبب لها سوى والدي؟».

فعضّ «**ماهر**» على شفته وقال: «نحن نعيش حقًّا في الفردوس المفقود، لكن الأمور مرهونة بأوقاتها، والزّمن كفيل حقًّا بشفاء جراح القلوب والإنسان معرض للنّسيان. والنّسيان في بعض الأحيان يحلّ محل الرّحمة، بل ويقوم مقامها يا مولاتي».

الفصل السابع

ثلاثةُ أيّامٍ من المعارك الطّاحنة قد مرّت، وها هو اليوم الرّابع ينذر بهولٍ آخر، فقد نزل كبار المحاربين القدامى من أبراجهم العاجيّة؛ ليقدّموا مساعداتهم وخبراتهم الطويلة بالحرب وفنونها، وأخذوا يبحثون في مستودعات الأسلحة المهجورة عن المنجنيقات القديمة من راميات الحجارة المستديرة، أو القنابل المنحوتة من الصخور، وعن المنجنيقات الأخرى راميات السّهام الطويلة المشتعلة القادرة على قطع المسافات البعيدة.

فعثروا في مستودع مهجور على ستّة منجنيقات من راميات السّهام، وراميات الحجارة الملفوفة بالأقمشة المدهونة بالقار، وكانت ما تزال محتفظة بجدّتها ولياقتها للعمل، بفضل القار الذي وقاها من الصّدأ والتكسر.. وما زالت مشدّاتها قويّة ومتينة جدًّا. كما عثرو في الوقت نفسه في سرداب عميق على قنابل المنجنيقات الحجريّة المستديرة، ومعظمها منحوت من صخور الغرانيت

والصوان وأمثالها، منها ما هو بحجم البطيخة الكبيرة ومنها ما هو أكبر من جوزة الهند.

في مكانٍ آخر، وجدوا كمية من براميل القار، والأسلحة الكثيرة: أسنّة للرّماح وصفائح من السّيوف العريضة وسواطير، وأنواع كثيرة من البلطات الحربيّة.

إنّ عثور المحاربين على تلك الأسلحة قد زاد من عزيمة الجنود الشّبان، ومنحهم دفعة نفسيّة تحفّزهم على القتال ببسالة أكبر، لذلك تعاونوا على حمل المنجنيقات وانطلقوا بها تؤازرهم هتافات أهل «**أوسان**» وصيحات استحسانهم.

وسارع الناس إلى حمل القنابل الحجريّة، والسّهام الطويلة، وأوعية القار بمختلف أحجامها، ثمّ كدّسوها في أماكن قريبة تحت الأسوار، وقرّر القادة «**قدامى المحاربين**» الاشتراك في الحرب الدّائرة دفاعًا عن المملكة، بعد أن دخلت الحرب في دورها الحاسم، فإمّا الدفاع ودحر العدوان ونيل المجد، أو الوقوع في الأسر والعار.

أصبح الليل في ذات البهاء متّصلًا بالنّهار، والعمل متواصلًا بلا كلل ولا هوادة، يشترك فيه سكانها على اختلاف فئاتهم

وأعمارهم، مُتّخذين شعارهم: «الموت في ساحة القتال أشرف من الأسر والسّبي والتلطخ بعار العبوديّة والاسترقاق في ديار الأعداء».

بدا الفجر حزينًا في اليوم الخامس من المعركة، وشوارع «**ذات البهاء**» تغص بالجنود والمتطوّعين، شبّانًا وفتيات، وارتدت الفتيات المآزر القصيرة ليتمكّنّ من تأدية واجباتهن بخفّة وسرعة، وتقلّدنَ السّيوف والرّماح القصيرة والصّفائح العريضة والفؤوس المدبّبة والبلطات، ووقفن إلى صفّ الجنود والشّبان المتطوّعين وراء الباب الكبير.

تدفّق «**الأحباش**» إلى السّاحة الكبرى الواقعة على مسافة من خيامهم وأكواخهم، واصطفّ الرّماة من خلف المهاجمين المدرّعين بالدّروع الجلديّة، وبرز العملاق «**ترهاقا**» من سرادقه محصنًا بالدّرع السّابغ، وعلى جنبه الأيسر صفيحة عريضة، وفي يده رمح طويل مثلث الرؤوس وهو يعتمر تركة من البرونز، بدا مقطّب الوجه في عبوس مخيف، وصوته يرعد فيغطي على جلبة الميدان وضوضائه، وراح يحضّ جنوده على اقتحام مدخل «**ذات البهاء**» بعد سقوط الباب، ولكن الجنود أخبروه أنّ المحاصرين أقاموا سدًّا من الحجارة في المدخل، فانفجر غاضبًا: «أزيلوا تلك

«**الحصوات**» بأطراف أصابعكم! الويل لكم إن ارتدّيتم عن تلك «**الحصوات!**».

فضحك الجنود من تشبيهه الصخور الكبيرة، بالحصوات الصغيرة!.

وأصدر أوامره بدق طبول الحرب، فنفخ في الصّور والأبواق المصنّعة من قرون الثيران، وراحت الطّبول تقرع وتصك الأسماع بدبدبتها الثّقيلة، ثمّ أعطى بيده علامة الهجوم، فاندفع مشاته وهم يصيحون، واجتازوا مكان الخندق منقضّين على الباب، ورماتهم يقذفون سهامهم على المدافعين فوق الأسوار.

فردّ عليهم المدافعون من فوق الأسوار بوابل من السّهام المشتعلة، ورفع «**الأحباش**» الدرق فوق رؤوسهم حتّى وصلوا إلى السّد المنيع من الحجارة والصخور المتراصّة أمام البوابة، وما كادت أيديهم تلمس الحجارة لإهالتها من طريقهم، حتّى تدفّقت شآبيب القار فوق رؤوسهم، وسرعان ما تحوّلت إلى نيران متأججة تأكل أجسامهم أكلًا، وتحيلها إلى كتل من الوهج واللّحم المحترق، فارتفع صراخهم وولولوا، وسقط الفوج الأوّل من المهاجمين، فحلّ محلّه فوج آخر لم يكن مصيره أفضل من سابقه، وتدفّق الفوج الثالث بأيادي رجاله الممدودة نحو الحجارة

المشتعلة، لكنّهم لم يتمكّنوا من لمسها، ومن لامسها فقد يده بالقار المحترق وعلا الصّياح والصّراخ!

وبينما كانت صيحات «**ترهاقا**» تجلجل عبر آذان المهاجمين، أطلقت الحجارة من المجانيق المصوّبة إليه، كذلك أطلقت المجانيق سهامها الطويلة المشتعلة أطرافها، فسقطت الحجارة فوق جنوده المنتظرين دورهم في الهجوم، وقتلت العديد منهم ومن حجابه وقادته، وانقضّت السّهام الطويلة المحترقة على خيام الجنود وأكواخهم فاندلعت فيها النّيران ثمّ زادتها رياح الخريف اشتعالًا، اضطرب قلب «**ترهاقا**» ذعرًا وغضبًا، وحسب للحظة أنّ قلبه قد برح صدره، فانطلقت صيحاته الجنونيّة، حتّى بُحّ صوته، وباتت صيحاته أشبه بالنّباح المكتوم.

وحميَ وطيس التراشق بالحجارة والسّهام المشتعلة، وصبّت براميل القار على رؤوس المهاجمين على المدخل، فارتدّوا يبحثون عن طريقة يطفئون بها اللّهيب الذي راح يلتهم أجسادهم، وراحوا يتساقطون صرعى في شتّى اتجاهات الميدان، حتّى نسيت الأرض لونها وباتت أجسادهم بُسُطًا تغطي المكان.

ارتفع هدير المدافعين من وراء الباب ومن فوق الأسوار: «لن تمرّوا..». وكان صوت المنجنيقات وهي ترمي الحجارة الكبيرة

على الأعداء مريعًا فظيعًا، وحيثما كانت تسقط كان يُسمع دبيب سقوطها المفزع، فيسقط معها عدد كبير من القتلى، وحيثما كانت تسقط السّهام الطويلة المشتعلة من المنجنيقات، كانت تندلع النّيران، فلم تبق للأحباش خيمة ولا كوخًا ولا سرادقًا، فارتدّ «**ترهاقا**» إلى الخلف لينأى بنفسه عن مرمى الحجارة والسّهام، وتراجعت قيادته معه، فكان ذلك سببًا في تراجع الجنود والمهاجمين عن الأسوار.

جنّ جنون «**ترهاقا**»، وأشّرع رمحه ثلاثي الرّؤوس مندفعًا كالكردن الهائج يطعن به صدور جنوده المتراجعين، واقتدى به قادته فاحتار الجنود من أين يتلقّون الموت الذي راح يحصدهم إذا هجموا على الباب، ويفتك بهم فتكًا بيدي ملكهم وبطانته إذا ارتدّوا عن الباب، والقار المحترق يصبّ على أجسادهم من فوق الأسوار، والنّار مشتعلة تحت أقدامهم فأين النّجاة..؟

وفي لحظة مسّت الرّحمة قلب «**ترهاقا**» لرؤيته جنوده المحترقين صرعى على الأرض، والآخرين المنهزمين والنّيران عالقة بدروعهم وأجسامهم، وأولئك الراكضين والنّار مشتعلة في شعورهم وذقونهم وأيديهم وأرجلهم... فاستبشع ما ينزل بجنوده من أصناف الموت، فتراجع عن جنونه، ودخل سرادقه وهو يغلي

من شدّة الغضب ويئنّ من شدّة حزنه على جنوده، وأمر بدق طبول الانفصال والعودة إلى المعسكر ورمى بجسده الهائل فوق مقعده. . . دون أن يقوى على إطفاء حرائق ألمه المتأجّجة في أعماق صدره.

وكأن ما لم يتوقّعه بعد أشدّ وأدهى..

وبينما كان يئنّ وينوح من المصائب الّتي ألمّت به، اندفع أحد طلائع عيونه نحوه صائحًا: «لقد وصل الملك «**مالك**» على رأس جيش جرّار من الفرسان والمشاة»، وراح يشير بيديه الاثنتين قائلًا: «إنّه على مسافة أقل من فرسخ من «**ذات البهاء**»، وقوّاته من فرسان ومشاة تقوم بعملية تطويق لقواتنا».

هبّ «**ترهاقا**» عن مقعده كالفيل الجريح، وامتقع لونه فأخذ يفرك أصابعه بعصبية شديدة، واحمرّ وجهه حتّى صار بلون سرادقه من الداخل، وانحبست أنفاسه في صدره لشدّة انفعاله.

لقد دخلت الحرب الآن في مرحلة أصعب، فلم يكن يتوقّع وصول الملك بهذه السرعة وهو يقود جيشًا لجيًّا كثير العدد جم السّلاح، فرسانه يغطون السّهل ومشاته كأمواج البحر يتدفّقون للإحاطة به. وبعد أن كان يحاصر عاصمة الملك، إذ به يجد نفسه

بين قوّتين هائلتين، قوّات متحفّزة ترصد تحركاته من فوق الأسوار ومن وراء أبواب المدينة وأخرى مستعدة لفتح تلك الأبواب والهجوم عليه، وعمّا قريب تطبق عليه كماشة الحرب، ولن ينجو من حراب أعدائه إلّا بمعجزة!

كان الملك «**ترهاقا**» ما يزال واقفًا والأفكار تدور في رأسه الكبير فالتفت إلى كبار قواده، وأمرهم بالابتعاد عن «**ذات البهاء**» خوفًا من محاصرتِهِم، بعد أن كانوا يحكمون الحصار عليها.

وانطلقت الرّسل إلى الوحدات وكتائب الاحتياط المتبقية؛ تأمرها بالاستعداد للانسحاب بعد حلول الظّلام، وأُمر الفرسان بالتقدّم لمنع فرسان الملك ومشاته من تطويق معسكره، كما أرسل عددًا من كتائب المشاة وحملة الحراب القصيرة لمساندة الفرسان.

وأمر القادة جنودهم بإشعال نيران المواقد الكبيرة أمام خيامهم ووحداتهم، ومن فوق الأسوار رأى «**الأوسانيّون**» «**العرب**» أعلام جيشهم العظيم تقترب، وفيالق الفرسان تحاول تطويق معسكر الأعداء، فارتفعت هتافاتهم حتّى شقّت عنان السّماء، وراح الجنود يتعانقون ويهتفون: «جاء الملك.. يحيا

الملك!». وظلّوا يتعانقون ويهتفون ويلوّحون بأعلامهم لجيشهم القادم حتّى بُحّت أصواتهم.

استعدّ الفرسان من وراء الأسوار لاستقبال الملك، وكانوا جميعًا في حالة يرثى لها، ملابسهم ممزّقة، لكنّ معنوياتهم أقوى من النّيران، وأرواحهم أشدّ ثباتًا؛ فقد دافعوا عن «**ذات البهاء**» أبطالًا أشدّاء وعتاة، ولم يتوانوا عن بذل أرواحهم لضمان سلامة المدينة الخالدة..

وانطلق المنادون في شوارع المدينة يبشّرون بوصول الملك: «عاد الملك.. يحيا الملك!».

وانفجرت الصّيحة الكبرى في جميع الأرجاء: «عاش الملك يحيا الملك.. عاش الجيش!.. يحيا الجيش!».

كانت طلائع الملك قد شاهدت المعركة الدّائرة حول الأسوار، ورأت سحب الدّخان الكثيفة ترتفع أمواجًا متلاحقة، ولكن من خارج الأسوار، ثمّ تنتشر فوق السّهول والتّلال المحيطة بعاصمة «**أوسان**»، فاطمأنّت قلوبهم إلى أن «**ذات البهاء**» ما زالت تدافع بأبطالها عن وجودها وحرماتها، بيد أنّ كثافة الدّخان لم تمكّنهم من مشاهدة الأعلام المرفوعة فوق الأبراج السّبعة.

ودفع القائد «**حازم بن المضاض**» قائد طليعة الفرسان سريّته إلى الأمام، حتّى صار على مسافة نصف فرسخ تقريبًا، ومع أنّ الأسوار ما زالت بعيدة إلّا أن الرّؤية كانت أكثر وضوحًا، فرأى أعلامًا ترفرف فوق الأبراج، وامتلأ قلبه سرورًا وطمأنينة وهو يرى أعلام الملك مرفرفةً، وهو الذي كان يخشى أن يرى أعلام الوصيّ، فأرسل إلى الملك يبشّره، برفع الأعلام، ودفاع الجنود الباسل عن المدينة بالرغم من محاصرتها من كلّ الجوانب. تلقى الملك الرّسول استبشارًا وحزنًا، فسعادته لصمود المدينة وعدم سقوطها، لم ينفِ حزنه على أرواح الجنود الذين قتلوا في سبيلها.

كان الحكيم «**الصّاحب**» على صهوة جواده إلى جانب الملك وهو يستمع إلى رسالة الرّسول، فهنّأه، وأثنى على المدافعين أحرّ ثناء، وانتقل الخبر إلى الجيش فرسانًا ومشاة، فهتفوا بحياة «**ذات البهاء**».

أثناء ذلك كان القائد «**ابن المضاض**» قد شرع يغير بفرسانه على مؤخرة العدو، ويناوشون «**الأحباش**» كرًّا وفرًّا، فأوقعوا بينهم بعض الخسائر.

أمّا الملك فقد تداول مع الوزير «**الصّاحب**» في الأمر بعد

سماعه ما سرّه من أنباء، وأخبره بعزمه على الاقتراب من المدينة ليرى بنفسه كيف تدور الحرب، ويستخلص الصّورة الّتي سيعدّ على أساسها خطته الحربيّة، وأطلع قائد الجند على ما اعتزم عليه، فانطلق على رأس كتيبة من الفرسان إلى الموقع الذي يغير منه قائد طليعة الفرسان، فوصل في الوقت الذي تراجع فيه «**ترهاقا**» عن أسوار المدينة؛ فوقف بين قادته يتأمّل راياته المرفوفة فوق الأبراج، ووفاء الأبطال أثناء دفاعهم واستبسالهم عن «**ذات البهاء**»، وتمتم بابتسامة: «يا لهم من أبطال ميامين».

بعد حلول الظّلام، بدت عن بعد مواقد النّيران تتأجّج حول معسكرات العدو، فأدرك أنّه ينوي الانكفاء عنها بعد اشتداد الظّلام. ثمّ ما لبث قائد الجيش «**الصباح الجذيمي**» أن انضم إلى الملك، وكذلك قائد فرسانه «**أسد الجشمي**»، وقائد الرّماة «**زهير بن الأصب**»، فانطلق سهم الملك وهم على صهوات خيولهم المطهمة، لاختيار معسكرات الفرسان والمشاة والرّماة، فاختاروا رحبة واسعة لإقامة المعسكرات، يتوسّطها معسكر الملك وحرسه الخاص والفرسان التابعون للحرس، ثمّ عاد القادة إلى فيالقهم وكتائبهم، يقودونها إلى الرّحبة الّتي وقع عليها الاختيار لإقامة المعسكرات. أمّا قائد الحرس الملكي وفرسانه:

«**عمران الطائي**» فقد انضمّ إلى الملك مؤخّرًا، وتلقّى منه التعليمات لإقامة سرادقاته وخيام حرسه وفرسانه حوله، في مكان وسط بين جناحي الفرسان والمشاة، وفي المعسكر ومقدّمة واجهاته.

وبثّ الملك العيون والأرصاد لمراقبة تحرّكات «**ترهاقا**» وجنوده، وقبل منتصف الليل كان رجال حرسه قد فرغوا من نصب سرادقات الملك القائمة على خمسين عمودًا في صفّين متقابلين، ـ كلّها متّصلة ومفتوحة على بعضها البعض.

وعقب دخوله سرادقه، دعا جميع قوّاده إلى مجلسٍ حربيّ، اتفقوا خلاله على بنود خطّة محكمة تمكّنهم من مجابهة الأعداء. فرسم خطًّا منحنيًا على شكل نصف قمر لإحاطة العدو ليلًا ونهارًا بكراديس من الفرسان على الجانبين، على أن تحتل الكراديس قلب المنحني النصف القمري، أمّا نصف القمر الثاني فوضع في مقدّمة إيوار «**ذات البهاء**» الغربيّة أمام الباب الكبير الذي لن يتمكّن العدو من اقتحامه للدّخول .

أثناء الاجتماع وصل رسول من عيونه، وأطلع الملك على أنّ «**ترهاقا**» وجنوده قد فكّوا الحصار وانسحبوا إلى مسافة فرسخين بعيدًا عن المدينة!

فأمر الملك القادة بأن يقدّموا وحداتهم لتشكيل الكراديس الّتي ستملأ المنحنى، وأوصاهم بالسّرعة في ذلك لتكون المفاجأة صاعقة لـ «**ترهاقا**» حين يراها صباحًا، كما أمر قائد حرسه وفرسانه «**عمران الطائي**»، بأنّ تكون بعض وحداته مستعدة للدّخول معه إلى «**ذات البهاء**» عند الفجر لأنّه يريد أن يقوم بزيارة خاطفة للعاصمة الباسلة، كي يحيّي من دافعوا برجولتهم وبطولاتهم رجالًا ونساء، ويطّلع على أحوال المعيشة، ويتفقد المؤن والذخائر وما تحتاج إليه مدينة الأبطال.

راح القائد «**جبر بن مزيد**» ينتقل بين الأبراج المحيطة بالمدينة الجديرة بالحياة والخلود، ويراقب التّحركات تحت جنح الظّلام، فشاهد من بعيد طلائع جيش الملك، على مسافة أقلّ من فرسخ جهة الشّرق، وكانت هناك حركة ذهاب وإياب يقوم بها الفرسان حول نقطة تجمع فيها عدد كبير من الفرسان والأعلام، إلّا أنّ الرّؤية لم تكن واضحة أوّل الليل حتّى ما يقرب من منتصفه. حين بزغ القمر اتّضحت الرّؤية قليلًا، فاستطاع أن يتميّز بين الأعلام الكثيرة علم النّسر الذهبي الباسط جناحيه وهو علم الملك، فصفّق بيديه فرحًا وسرورًا، وأعلن لمن حوله أنّ الملك يقف هناك تحت علم النّسر الذّهبي، ومن حوله قادة الفرسان والمشاة.

وانتقل القائد ووحدات الجيش، والسّكان المدافعون؛ فهاجت المدينة وارتفعت في أرجائها الهتافات المدوّية، وسرعان ما امتلأت الأسوار والأبراج بالجنود والسّكان الذين صعدوا لمشاهدة الملك؛ فرأوا الجيشَ المتقدّم ببطء لإقامة معسكراته بالقرب من المدينة، ثمّ ما لبثوا أن شاهدوا سرادقات الملك ترتفع فوق أعمدتها الخمسين، وعلم النّسر الذّهبي يرتفع خمسين ذراعًا فوق قاعدته البالغ ارتفاعها عشرة أذرع عادة ما تكون مصنوعة من الرّخام المجزّع، لكنّها الآن مؤلّفة من العوارض الخشبيّة المصقولة.

وتمكّنوا أخيرًا من مشاهدة الملك بلباسه الحربي وقامته الفارعة، وخوذته الذهبيّة السميكة ـ وهو يدخل إلى سرادقه، ورأوا كبار القادة يدخلون السرادق من بعده، فجنّ جنون أهل «**أوسان**» والجنود، وراحوا يهتفون: «يعيش الملك! يحيا الجيش!».

وقد كان هناك سريّتان من الفرسان، اندفعت إحداهما في عدو شديد إلى الباب الخلفي، ففتح لها الباب على مصراعيه واستقبلت بالهتافات المدوّية، وكانت مهمتها محصورة بإعلام القيادة المدافعة بوصول الملك والجيش، وحين ترجّل الفرسان عن خيولهم استقبلوا بالعناق والتّقبيل ودموع الفرح الّتي انهالت من

عيون البطلات المدافعات، والجماهير المحتشدة واختلطت هتافات التحيّة بالبكاء ودموع الفرح .

أمّا السريّة الثانية فقد توجّهت عدوًا إلى باب «**ذات البهاء**» الرئيسي، فاستبق إليه قائد جيش المدينة «**جبر بن مزيد**»، وأصدر أوامره لجميع القادرين على العمل بأن تدخل سرية الحجارة والجنادل من مدخل الباب، بعد أن أخبر قادته بأنّ سرية من الفرسان ستصل بعد قليل إلى ذلك المدخل، فشمّر الرجال والنساء عن سواعدهم وشرعوا يزيلون الحجارة ويكدّسونها على جانبي الباب.

وفي اللّحظة الّتي أرسل فيها آخر حجر، وصلت السرية بقيادة «**سرحان بن مزيد**» أي ابن «**جبر بن مزيد**» قائد جيش المدينة، ليجدَ الابن أباه بانتظاره عند الباب، فغلبت العاطفة كلّ المواقف، وأشعل الموقف عواطف الحضور ومشاعرهم، ثمّ اعتدل الشاب في وقفته، وأدى التحيّة لوالده قائلًا :

«سيدي القائد: إنّ جلالة الملك يبلغك التحيّة والسّلام، ويخبرك أنّه قادم لزيارة «**ذات البهاء**» بعد أو قبل الفجر بقليل، ويرجو أن تبلغ أهلها الأبطال الشّجعان الأوفياء تحيّاته، وإعجابه

بطولاتهم ، وتطمئنهم إلى أن أبناءهم في الجيش سيتولّون منذ السّاعة لا الدّفاع عن «**ذات البهاء**» و «**أوسان**» فحسب، بل طرد الأعداء وهزيمتهم في الأيام القليلة القادمة»، ثمّ أدّى القائد الشاب مرّة أخرى تحيّته لقائد جيش المدينة، وحماتها الأشاوس، وبدأ القائد «**سرحان بن مزيد**» توزيع سريّته في صفّين أمام المدخل في الجهة الخارجيّة.

وعندما لاح خيط الفجر الأول، كان موكب الملك البسيط من الفرسان يتقدّم مسرعًا إلى مدخل «**ذات البهاء**» الكبير، والمدافعون يصطفّون على جانبي الشّارع الرئيسي من المدخل حتّى القصر الملكي، وازدحمت الجماهير بعضها فوق الأسوار، والكثير من الناس وقفوا في صفوف وراء الجنود الفرسان.

ودخل الملك في موكب الفرسان، بعد أن نزع خوذته، فتهدّل شعره الأسود النّاعم على كتفيه، ورفع يده بالتحيّة أمام مدخل الباب، قبل صدور الأوامر بتحيّته. فكانت لفتة رائعة منه تداولتها كلّ الألسن، سجّلها التّاريخ وتغنّى بها الشّعراء، وما لبثت الدّفوف والحناجر أن صدحت، وانطلق هدير الجماهير محيّيًا : «يحيا الملك».

ثم أدّى قائد الجيش «**جبر بن مزيد**» تحيّته، الّتي ردّها الملك قائلًا:

ما أشدّ شوقي إلى لقاء الأبطال المجربين!

تحرّك القائد وراءه وانحنت الأعلام، ورفع القادة سيوفهم تحيّة للمنقذ، ومالت الرّماح إلى الأمام، والهتاف تعالى أمواجًا دافقة تحمل الكثير من البشائر والآمال، ولا يهدأ الهتاف: «عاش الملك، عاش الملك».

وبعد أن اجتاز الملك مدخل «**ذات البهاء**» ترجّل عن جواده، وسار على قدميه حاملًا خوذته بين ساعده ومرفقه الأيسر، فانهالت الزّهور والرّياحين عليه مطر محبة وامتنان، حتّى اقترب من حامل علم المدينة، فتقدّم إليه، وأدى التحيّة، ثمّ قبّله قبلة طويلة صاحبها ارتفاع أصوات الهتاف والزغاريد.

وظلّ الملك سائرًا على قدميه محيّيًا رعيّته بيده، وخوذته، حتّى اقترب من القصر الملكي، فرآه مزيّنًا بالزّينات والأعلام والأزهار والرّياحين، والأرض مفروشة بالبُسط الثمينة، ووجد في استقباله أعيان المدينة ووجوهها، فحيّاهم وسلّم عليهم يدًا بيد، وهم يؤدّون التحيّة بمثلها ويدعون له بالنّصر والظّفر وطول العمر.

وبعد دخوله إلى القصر واستقراره، أصدر مرسومًا كُتِبَ على الرّقوق وعُلّق في جميع أنحاء «**ذات البهاء**»، حيّا فيه الملك الجيش جنودًا وقادةً، وسكان المدينة رجالًا ونساء، كبارًا وصغارًا، ووصفهم بالأبطال الأفذاذ والنّادرين، كما نعتهم بالشّجاعة المثلى، والقدوة الخالدة إلى أبد الآبدين، وجاء في المرسوم «إنّ جلالته قرّر بعد التداول مع أركان المملكة، إعفاء «**ذات البهاء**» وسكان القرى المتضررة الممتدة من البحر حتّى أطراف المدينة من الضّرائب لمدة سنتين، تعويضًا عمّا لحق سكانها من خسائر وأضرار، وإعفاء سكان المملكة الذين لم يتضرروا من الضّرائب سنة واحدة، وإمداد أهل «**ذات البهاء**» بالمؤونة، فلولا وصول الملك لعانى الناس من المجاعة».

في صباح اليوم التالي، التحق الملك بفيالقه وكتائبه كي يقودها إلى معركة التّحرير، وطرد الغزاة المعتدين.

وخرجت الجماهير تحيّيه والجموع تهتف: «عد مكلّلًا بالنّصر، فأنت المنصور وعدوك المنهزم المقهور».

في الليلة الفائتة، وقبل أن يرتد «**ترهاقا**» خائبًا، أرسل إلى

ولي عهده ووزرائه؛ يطلب إليهم إرسال نجدات سريعة ومؤنًا، وأسلحة كثيرة، وأموالًا، والمزيد من الفيلة المدرّبة على القتال.

لكنّ الليل طال، وعذاب «**ترهاقا**» طال معه، وتابع ما يجري وهو يهدر ويزمجر ويثور كلّما لسعه البعوض، وكانت عيونه وأرصاده تنقل إليه تباعًا ما يجري في ساحة المعركة، فالأحباش ماهرون في التسلّل والاختفاء والتنصّت ونقل المعلومات، لأنّ حياتهم في الغابات زودتهم بغرائز وأحاسيس تمكّنهم من سماع أقل حركة بين أشجار الغار، وأنوفهم شمّامة بوسعها أن تشمّ أضعف وأبعد الروائح وتميّزها، وعيونهم في الظّلام كالمصابيح قويّة النّظر، وهم من أحذق الخلق في تتبُّع الأثر، ومعرفة نوعه، ووقت مروره حتّى لو كان غزالًا سريعًا وثب وترك آثار أقدامه.

ونقل إليه جواسيسه أنباء مزعجة عن معسكره المطوق من الجهتين الشماليّة والشرقيّة، ممّا ضاعف غضبه، وزاد من حدّة صياحه وهديره، وأقسم بجدّه الأعلى «**كوش**» أن ينتقم من «**العرب**» ويهزمهم شر هزيمة، وانبثق الزّبد من شدقيه إلى شفتيه، وهو يقسم الأيمان المغلظة قائلًا: «سأسحق ملكهم تحت قدمي، وأجعل أحرارهم عبيدًا، ونساءهم سبايا ومحظيات لجنودي»، لكن قادة جيشه لم يؤمنوا بكلمة واحدة من مزاعمه وتهديداته،

لعلمهم بأنّه لا يصلح إلّا للحروب القبليّة في الغابات، وليس لمحاربة الجيوش في الأقطار المتحضّرة.

رفرفت بين جفونه سنة من الكرى، فالتحمت جفونه وغرق في الأحلام والكوابيس وعلا غطيطه، لكنّه ما لبث أن هبّ من نومه مذعورًا بعد كابوس ثقيل جثم على صدره، فانتفض واقفًا وخيوط الفجر تتسلّل من شقوق سرادقه، فخطا نحو باب السّرادق وسرّح ناظريه فيما حوله، فرأى عن بعد معسكرات «**العرب**» تغطّي السّهل والتلال المحدقة بمعسكره، وشاهد أعلامهم ترفرف هادئة ساحرة وتفسد عليه مزاعمه وادّعاءاته، فاستدعى قوّاد حربه، وراح يصدر أوامره إليهم دون ترو أو تدقيق، أو معرفة بالخطط الحربيّة.

وراح يلهج عشوائيًّا بما يمكن لهزيمته المنكرة في تلك اللَّحظة أن تمليه عليه من حماقات! وطلب من فرسانه أن يستعدّوا للقتال، بعد أن استراحوا طويلًا على حساب المشاة الذين خاضوا معركة الأسوار، وقضى سحابة يومه وهو يصدر الأوامر، ويعبّ من النّبيذ الذي صادره جنوده من القرى «**الأوسانيّة**».

في الوقت الذي نام فيه فرسان «**العرب**» ومشاتهم على تعبئة كاملة تحت الحراسة المشددة القائمة حول معسكراتهم.

عند الفجر أمر «**ترهاقا**» بقرع طبول الحرب، فأجابته عن بعد طبول «**العرب**» وأبواقهم النحاسيّة، وشاهد «**مالك**» فرسان «**الأحباش**» يتصدّرون واجهة الميدان المقابلة لفرسانه، فأصدر أوامره إلى كتيبتين من الرّماة بالتّقدّم أمام الفرسان، فاندفعوا في صفّين متوازيين، واتّخذوا وضع الاستعداد، واضعين تروسهم الحديديّة الطويلة أمامهم لوقايتهم من حراب الفرسان القصيرة، الّتي عادة ما يقذفونها أثناء إقبالهم، قبل التحامهم بفرسان أعدائهم.

وأصدر «**مالك**» تعليماته لقائد فرسانه، في حين أقبلت خيول «**الأحباش**» تعدو عدوًا شديدًا، وفرسانها يشرعون الرّماح القصيرة المرفوعة بأياديهم لقذفها على رماة «**العرب**» من مسافة مناسبة.

ولما صاروا على مسافة مئتي ذراع تقريبًا رماهم الصف الأوّل من رماة «**العرب**» بنبالهم فانطلقت السّهام، تئنّ أنينًا مرتفعة في الهواء، ثمّ انقضّت على فرسان «**الأحباش**» فانغرست في أجسامهم، ليتبعثروا أوراق خريفٍ نالها الذّبول على الأرض، يتعثّر بهم من سقط، سواء كان ميتًا أو جريحًا أو حيًّا، فاضطربت صفوفهم، وقبل أن يستردّوا رشدهم، رشقهم الصف الثاني من

رماة «**العرب**» بوابل من السّهام، وراحوا يتساقطون وخيولهم تصطدم بعضها ببعض، فعمّتهم الفوضى وانتكست أعلامهم.

صار «**الأحباش**» على مسافة مئة ذراع، انسحب الرّماة بسرعة عجيبة ليفسحوا المجال أمام فرسانهم «**العرب**» الذين أقبلت بهم جيادهم الأصيلة تنهب الأرض من تحتها، وتصادمت الكتيبتان، فارتجّت الأرض، وثار غبار المعركة.

ومدّ فرسانُ «**العرب**» رماحهم الطويلة، وطعنوا بها «**الأحباش**»، واقتحم الصف الثاني منهم المعركة بالسّيوف.

وأقبل فوجان من فرسان «**العرب**» عن اليمين وعن الشّمال وغرزوا رماحهم بخواصر الأعداء، وانهالت سيوفهم على أيدي حاملي الرّماح القصيرة، واحتضنوهم احتضانًا من ثلاث جهات، فضاق المجال على «**الأحباش**»، وكووا خيولهم ولجموها، وعادوا منهزمين وفرسان «**العرب**» يطاردونهم بالرّعب والموت.

حينها كان النّدم يعتصر «**ترهاقا**» لعدم اصطحابه أفياله المدرّبة على قتال الفرسان.

لم يتوانَ فرسان «**العرب**» عن القتال، وحين صاروا على مسافة قريبة من رماة «**الأحباش**»، أداروا رؤوس جيادهم وانطلقوا عائدين، بعد أن مزّقوا فيلق الأعادي شرّ تمزيق، واقتادوا أمامهم

خيول أعدائهم الّتي سقط عنها فرسانها، في حين راح رماة «**الأحباش**» يرشقونهم بالسّهام فطاشت بهم وخابت، وانغرست في أرض الميدان، فثارت ثائرة «**ترهاقا**»، وصبّ جام غضبه على فرسانه العائدين بهزيمتهم المزرية.

وبرز مشاة «**العرب**» إلى الميدان في ثلاثة صفوف، ومن خلفها كمين من المشاة المتربّصين، فأمر «**ترهاقا**» مشاته بإبادتهم، فانطلقوا وهم يصيحون صيحاتهم القبليّة المزمجرة، فجرت حركة تنقّلات سريعة بين مشاة «**العرب**»، إذ تقدّم الكمين المتحرّك من آخر الصّفوف بسرعة مدهشة، واختفى وراء الصف الأوّل من مشاته، الذي توقّف فجأة، وركع محاربوه على ركبهم، وأخفوا أجسادهم وراء تروسهم الحديديّة الطويلة ومن خلفهم الكمين المتحرّك.

تصاعدت في جوّ الميدان رائحة قار محترق، لكنّ «**الأحباش**» لم يتمكنوا من تفسير الرّائحة ولا المفاجأة، وتابع مشاتهم اندفاعهم نحو مشاة «**العرب**» الجاثمين فوق ركبهم متترّسين بتروسهم، حتّى وصلوا إلى مسافة سبعة أذرع وعندئذ هبّ المشاة «**العرب**» هبّة واحدة في وجوه «**الأحباش**»، وغرسوا رماحهم في صدورهم، فارتفع صراخهم واضطربت صفوفهم.

انفرج صف المشاة، وخرج منه الكمين المتحرّك، وكان مقاتلوه يحملون رماحًا بدون أسنّة، وقد استعاضوا عن الأسنّة بخرق كثيفة مغموسة بالقار يتصاعد منها اللّهب الأشقر، وفي أقلّ من لحظة انقضّوا برؤوس رماحهم المشتعلة، وطعنوا بها صدور «**الأحباش**» فاشتعلت النّار في خوذهم الجلدية، وفي شعور رؤوسهم وذقونهم؛ فرموا أسلحتهم وتروسهم، وأخذوا يصرخون وهم يحاولون أن يطفئوا النار براحات أيديهم، فانقضّ عليهم المشاة «**العرب**» بسيوفهم ورماحهم، وأعملوا فيهم الطّعن والضّرب، فسقط من سقط واستسلم معظمهم، وفرَّ الباقون عائدين إلى معسكرهم.

هكذا خسر «**ترهاقا**» معظم مشاته وفرسانه في اليوم الأوّل من المعركة مع جيش الملك، وراح ينفخ ويفور مثل التّنور.

وفي صباح اليوم التالي لجأ «**ترهاقا**» إلى حيلة قديمة كانت مستعملة في الحروب القبليّة لإشغال أعدائه بالمبارزات لعدة أيام ريثما تصل إليه النّجدات من الجنود والفيلة، لكن «**مالك**» المتربّص له فوق جواده الأبيض تحت الأعلام أفسد عليه اللّعبة، ورفضها وقال ضاحكًا: «المجال لا يسمح بالمبارزات، هذه حرب جيوش وليست حرب أفراد يتبارزون فيها ويتطاردون».

وأضاف قائلًا : «ترهاقا يريد أن يلهينا بألاعيب مبارزيه ريثما تصل إليه النّجدات، خاب أمله وفشل سعيه، إنّ الحرب هي الّتي ستقرّر من منّا سيعيش ومن سيموت فوق هذه الأرض الطيّبة».

دفع «**ترهاقا**» البقيّة الباقية من فرسانه إلى الميدان، فاستقبلهم فرسان «**العرب**» بما لم يكن في حسبانهم؛ ففي أوّل الهجوم اندفع الفرسان من وسط الصفوف في ثلاثة خطوط، فانطلقت الجياد جانبًا ثمّ زادت من سرعتها، فعدت عدوًا ملء أعنّتها وصدمت موكب الفرسان «**الأحباش**» فزعزعته في أماكنه، ورفعت الجياد العربيّة قوائمها وضربت بحوافرها وجوه وصدور خيول «**الأحباش**».

ورمى «**الأحباش**» رماحهم القصيرة نحو «**العرب**»، فتلقّوها بتروسهم، وانهالوا عليهم بالسّيوف العربيّة، فمزّقوا بها خوذهم وشقّوا وجوههم، وسقط القتلى من الجانبين، لكن «**الأحباش**» كانوا أكثر خسارة في الفرسان.

وفجأة ظهرت المجنبّتان بالفرسان «**العرب**»، فأحاطوا بالفرسان «**الأحباش**» من اليمين والشّمال، وطعنوهم بالرماح، ولفقوا وفلقوا رؤوسهم بالسّيوف، وأحاطوا بهم من الجهات الأربع.

استسلم فرسان «**الأحباش**»، ورموا أسلحتهم إلى الأرض،

مفضّلين الأسر على مجابهة «**ترهاقا**» الغاضب وهراوات جلاوزته، فساقهم «**العرب**» أمامهم، وعاملوهم بالحسنى، ثمّ قادهم المشاة إلى داخل المدينة وزجّوهم في السّراديب مع الأسرى.

لم يكتفِ «**ترهاقا**»، فدفع مشاته من حملة الحراب والرماح الطويلة والبلطات والفؤوس، ثمّ نظر حوله فلم يرَ إلّا القليل من محاربيه، وانطلق الرّماة «**العرب**» لملاقاتهم وركعوا صفوفًا على ركبهم ومن خلفهم صفوف كثيفة من المشاة، من حاملي السّيوف والرّماح والبلطات والسّواطير.

وكمن الفرسان «**العرب**» على جوانب الميدان بانتظار إشارة الهجوم، وتقدّم مشاة «**الأحباش**» وهم يصيحون صيحات القتال المدوّية، فيما كان رماة «**العرب**» بانتظارهم متترّسين بتروسهم، حتّى أصبح «**الأحباش**» على مسافة قريبة، لتفاجأهم السّهام الحارّة تُمزّق جلودهم تمزيقًا، وتنصبّ عليهم شآبيب السّهام في دفعات متتالية، كأسراب من الإوز مدت أعناقها إلى الأمام وأرجلها إلى الخلف، وانقضّت على رؤوسهم انقضاضًا متتابعًا وانغرست في أجسادهم انغراسًا قاتلًا، فلم يعودوا يرون سوى زخّات من السّهام تموج عبر الفضاء وتنقضّ عليهم، حتّى عميت أبصارهم، واختلّت عقولهم، ودبّ الخوف في صدورهم، لتعلو صيحاتهم وتملأ

المكان، فأصدر الملك الأوامر بالإجهاز على الباقين، ومهاجمة معسكرات العدو.

فانهارت الصفوف وتمزّقت، حينها راح جناحا المشاة يطوّقون الميدان من جانبيه، بعد تطويق مقدّمات العدو وقلبه. ضاق المجال على «**الأحباش**»، وبات كلّ منهم يحارب لإنقاذ روحه، أو يستسلم بعد أن انهارت كلّ صفوفهم وعمّتهُم الفوضى.

وعندما بدأت الشّمس تنحسر نحو المغيب، كانت الهزيمة قد تجرّعت مقدّمة جيش «**الأحباش**»، ثمّ نالت من طرفيه، فامتطى «**ترهاقا**» جواده وأصدر أوامره بالانسحاب، فقرعت الطّبول ورنت الأبواق بأوامره وعندئذ ظهرت ساقته، وراحت تحمي ما تبقى من كتائبه وفرسانه المنسحبة، فأطلقوا أسودهم ونمورهم وفهودهم على خيول الفرسان والمشاة أيضًا.

أمر الملك فرقة المشاعل أن تتقدّم فانطلقت وفي أيدي الرجال رماح مشتعلة بالقار، يهاجمون بها الحيوانات المفترسة، في حين راحت الجياد العربيّة الأصيلة تشب على قوائمها الخلفيّة، وتضرب الحيوانات المفترسة بحوافر قوائمها الأماميّة، وأعمل الفرسان رماحهم وسيوفهم في الحيوانات فولّت هاربة.

وكاد الفرسان يدركون «**ترهاقا**» ويقتلونه وهو على سرجه، لولا أنّ مشاته وفرسانه تلاحقوا به مدافعين عنه، وخيّم الظّلام، فاختفى «**ترهاقا**» وجنوده تحت ستائره المظلمة.

كان «**ترهاقا**» قد زحف على مملكة «**أوسان**» بحوالي مئة ألف ما بين جند وفرسان، فهلك ثلاثة أرباعهم، وهو ينسحب الآن منهزمًا بحوالي خمسة وعشرين ألف منهزم، فقدوا كلّ أمل بالنّصر والظّفر ولم يعد في رؤوسهم سوى فكرة واحدة: هي النّجاة بجلودهم من الموت والاحتراق، وفقد «**ترهاقا**» سيادته وقوة سيطرته على جنوده، فحين انسحابهم تحت الظّلام فتكوا بجلاوزته الذين كانوا ينهالون على أجسادهم المنهكة بالهراوات، ويفلقون رؤوسهم بالبلطات فلم يبقَ من أولئك الجلاوزة أحد على قيد الحياة بين المنسحبين، واغتالوا قادتهم القساة الذين كانوا لا يرحمونهم خلال المعارك فيدفعونهم دفعًا إلى خوض المهالك، وراح «**ترهاقا**» يتباطأ في تراجعه وانسحابه، على أمل أن تصل إليه النّجدات والأفيال، لكن فرسان «**مالك**» ضيّقوا عليه المجال بهجومهم المتواصل على مؤخرته وساقته، ولما شعر بأنّ ساقته لم يعد بوسعها المقاومة لحماية انسحابه، أرسل حرسه الخاص لمساعدتها، لكنّهم

أُبيدوا، عندئذ انهار «**ترهاقا**» وأصيب بالحمّى فصار يرتعد ويهذي، ولم تعد ساقاه المتخاذلتان تقويان على حمله، فأحضر بعض قوّاده هودجه ووضعوه فيه وربطوه بين حملين، وانطلقوا به في سير حثيث خشية أن يقع أسيرًا في أيدي «**العرب**»، حتّى وصلوا إلى شاطئ البحر الأحمر فنزلوا في مراكبهم وفرّوا بها عائدين إلى بلادهم في هزيمة منكرة.

دخل الملك «**مالك**» على ضوء المشاعل والمصابيح سرادق «**ترهاقا**» الأرجواني، المؤلف من عدة سرادقات متصلة بعضها ببعض، ملأى بالطّنافس والرياش المستوردة من مصر الفرعونية.

ورأى صناديق «**ترهاقا**» وأكياسه المرصّعة بالذّهب والفضّة والأحجار الكريمة، وما لا يحصى من الغنائم والمنهوبات الّتي غنمها من بلاده ومن البلاد الأخرى الّتي كان يغزوها وينهبها ويحتلّها في السّنين الماضية.

فقال وهو يقلّب عينيه في غنائم «**ترهاقا**» الثّمينة: «لقد استردّت «**أوسان**» عزّتها وشرفها وكرامتها، وعوّضت عن خسائرها الكثيرة بما لا يحصى من الأموال وغنائم العدو».

وبات الملك ليلته تلك في سرادق ملك «**الحبشة**»، واقتيد

الأسرى في صباح اليوم التالي إلى «**ذات البهاء**»، وأطلق سراح الأسرى من الجنود «**العرب**» والمدنيّين والسّبايا اللاتي اختطفهن «**الأحباش**» من قراهنّ في مطلع غزوهم لمملكة «**أوسان**». وهكذا حقّت على الأعداء الهزيمة، الّتي جعلت منهم عبرة ودرسًا لكل من ينسى أنّ الأيام دول.

الفصل الثامن

تلقّى أهل «**أوسان**» أنباء النّصر بابتهاج وفرح، لا يستشعر مداه إلّا من عاش المأساة، واعترك بين حجري رحاها، لقد حملت تلك الانتصارات فحملت بشائر الأمن والطمأنينة والسّلام.

كانت أحلام الناس مختزلة في هذه الكلمات الثلاث المشرقات في الأيام السّود، واليوم يتلقّون نفحاتها أنباء نصرٍ وعزّة، كحبّات النّدى تتساقط على قلوب الناس فتغمرهم ببرودتها الممتعة، ولذّتها تسري في شرايينهم وأوردتهم.

الأمن والطمأنينة والسّلام، معان سامية، كانت وما تزال حلم كلّ الأحرار، وأمنية المعذّبين في الأرض؛ لذلك كان إحساس سكان «**ذات البهاء**» عميقًا بانتصار الملك، انتصار ملأ قلوبهم بالفرح والسّرور، وعيونهم بالدّموع، ونفوسهم بالشّكر والعرفان، فراحوا يستعدّون لاستقبال الملك المنتصر بما يليق بانتصاراته وجهوده؛ إذ رفعوا أقواس النّصر على مداخل الأبواب السّبعة إلى

القصر الملكي، واستعدّوا لإقامة مهرجانات النّصر، وأرسلوا جماعات منهم لإحضار الأزهار والرّياحين من كلّ المدن والقرى والمزارع في المملكة.

وما إن علم سكان المدن والقرى بالانتصار الكبير، حتّى استعدوا لإقامة الاحتفالات والمهرجانات، وأقواس النّصر في مدنهم وقراهم.

في هذه الأثناء، كان «**ترهاقا**» قد عاد إلى بلاده، برفقة عساكره وجنوده المنهزمين، وعلى إثر ذلك قرر «**مالك**» العودة إلى «**ذات البهاء**»، فاجتمع القادة الكبار في سرادق خاص، وراحوا يعدّون خطة دخول الملك ومواكبه إلى العاصمة، فنظمت المواكب العسكريّة، ومواكب الأسرى والغنائم، وأرسلت المواشي الكثيرة إلى المراعي، كالإبل والثيران والأبقار وقطعان الغنم والماعز والحمير والبغال.

ونظّم موكب الحيوانات المفترسة الّتي تمّ جمعها وإعادتها إلى أقفاصها، وغيرها من التحف الّتي سبق أن نهبها «**ترهاقا**» من ممالك أخرى.

وما إن لاحت خيوط الفجر الفضّيّة، حتّى كان أهل «**أوسان**»

رجالًا ونساءً، كبارًا وصغارًا، يحتلّون أماكنهم على جانبيّ الشّارع الرئيسي الممتد من الباب الرئيسي الجديد إلى أبواب حدائق القصر، بالإضافة إلى الذين احتلّوا مشارف الأسوار الشّاهقة.

وأقيم قوس النّصر الأوّل وهو أكبرها وأعظمها وقد صنعوه بداية من أخشاب الدّرداء، على أن يعاد بناؤه في المستقبل بصفائح الرّخام والمرمر.

وزين القوس بسعف النّخيل وغصون الأرز والصّنوبر والشّربين، وعلقت فيه ضفائر الأزهار من ورد بهيّ الألوان، والقرنفل وعقود الياسمين بألوانها الأبيض والأصفر، والخزامى، وسائر أنواع الأزهار الموسميّة الأخرى وتدلّت من كلّ ذلك الأشرط الملوّنة، والأعلام أشكالًا وألوانًا، وزين قوس النّصر الثاني بألوان متدرّجة زاهية، بالإضافة إلى الأزهار والرّياحين، ومثلهما القوس الثالث القريب من القصر فقد أقيم على شكل مربّع، ورسمت عليه شعارات الملك والجند، وخفقت فوقه جميع الأعلام.

واصطفّت جماهير «**أوسان**» لاستقبال الملك وفي أيديهم باقات الأزهار العاطرة، وقوارير الروائح العطريّة مختلفة الأريج.

وانقسم المستقبلون إلى قسمين، الأوّل لاستقبال الملك عند دخوله الباب الكبير. ويتألّف من الأقيال وأعيان البلاد والكهنة الحاملين في أيديهم المباخر الّتي تفوح منها روائح البخور والمر واللّبان والعود الهندي.

والثاني أمام باب القصر، ويضمّ أفراد العائلة المالكة، وممثلي الحرف والصناعات والمهن، والتجار.

واصطفّت الفتيات والفتيان حسب أعمارهم ضمن أفواج على طول الطّريق، وهم يحملون الأزاهير.

وبدأ الموكب بدخول كتائب المشاة حملة الرّماح، ثمّ حملة السّيوف، ثمّ حملة البلطات والسّواطير، بمشية عسكريّة رتيبة، وهم مسربلون بالحديد وأعينهم تتألّق من تحت خوذهم الحديديّة وتروسهم الكبيرة معلّقة فوق أكتافهم.

وجاء بعضهم ـ الرّماة ـ بأقواسهم الطويلة، متدلّيةً على أكتافهم اليمنى، وكنانات سهامهم ظاهرة من خلف أكتافهم اليسرى، وخناجرهم في أواسطهم. ثمّ مرّت كتيبة رجراجة من الفرسان تسربل أفرادها بالدّروع الزرديّة، حاملين الرّماح وعلى

جنوبهم السيوف، تحملهم جياد كمت متوثّبة، شامخة، تعلنُ عن أصالتها وعراقة أنسابها.

ثم ظهرت مواكب الأسرى، الذين مرّوا خافضي الرؤوس خزيًا وعارًا، يحيط بهم المشاة والفرسان، ومن خلفهم موكب البغال بصناديق الذّهب والفضّة والأحجار الكريمة، وكان الجنود يلوّحون بأيديهم بوزنات الذّهب والفضّة وعقود اللؤلؤ والماس والياقوت، يجرُّ وراءه موكب الحيوانات المفترسة المحمولة في أقفاصها فوق ظهور الجمال، كالأسود والنمور والفهود، وزرافتين، كانتا للملك «**ترهاقا**».

وأقبلت مواكب الأعلام من الباب الرئيسي، ثمّ أقبل موكب الملك الذي كان يرتدي حلّته الحربيّة ودرع الزّرد يمتد من كتفيه إلى ركبتيه، ويعتمر خوذته الذهبيّة ويتقلّد عن يساره سيفه الطويل، وإلى جانبه وزيره الحكيم «**الصّاحب بن عبد مناة**»، وعن يساره قائد الجيش «**الصباح الجذيمي**» وخلفه مباشرة «**ابن الأصبح**» قائد الرّماة، و «**عمران الطائي**» قائد الحرس الخاص.

كان المستقبلون وعلى رأسهم القائد «**جبر بن مزيد**»، وقوفًا أمام قوس النّصر.. وأخيرًا، أطلّ الملك من مدخل الباب بطلعته

البهيّة، وهيبته الجليلة، فدوّى الهتاف في السّاحة الكبرى، مشيدًا بانتصاره، مفاخرًا به. وهكذا تدفّقت أمواج الهتافات في سماء «**ذات البهاء**» كلّ موجة تتبعها موجة، والملك يحيّي الجميع برفع يديه الاثنتين.

وصل الملك إلى قوس النّصر الكبير، وترجّل عن جواده، فترجّل موكبه بالمثل، وأقبل عليه المستقبلون يحيّونه يدًا بيد، وخوذته محمولة على ساعده الأيسر وروائح البخور تعبق في الأجواء.

وسار الملك راجلًا ومن حوله فرسانه والقادة فوق السجاد الأرجواني الممتد من الباب إلى القصر، والجماهير تلقي بالأزهار تحت قدميه، وترشّ عطوره وتعترض طريقه والهتافات تدوّي، والموسيقى تصدح، والفتيات والصّبيان ينشدون أناشيد التّرحاب والولاء.

وتقدّم من الملك «**مالك**» سربان من الفتيات الصغار، وقد قدّموا له باقة من الورد الأبيض، ثمّ رهط من الفتيان قدّموا إليه باقة من القرنفل وعقود الياسمين.

ثم أقبل سرب من العذارى بلباسهنّ الأبيض فطوّقن عنقه

بقلادة من الدّر، ورمين تحت أقدامه باقات التمرحنة والخزامى والقيصوم.

وتابع الملك مسيرته إلى القوس الثاني، إلى أن وصل القوس الثالث فكان استقباله حافلًا، من قبل أفراد العائلة المالكة وسائر ممثلي أهل «**أوسان**»، وراحت عينا الملك تبحثان عن الأميرة «**شمس**»، ولكنّه لم يعثر لها على أثر فطوى جوانحه على الحزن، ثمّ ردّ على تحيّات المستقبلين ملوّحًا بيديه، ودخل باب الحديقة، وما لبث أن توارى بين جدرانه.

وكان الملك قد علم أثناء الحرب بأنّ الوصيّ مات مشلولًا، لكنّه لم يسمع شيئًا عن كريمته الأميرة «**شمس**».

وبعد العشاء انفرد الملك بحضور وزيره الحكيم «**الصّاحب**» وبقادة المدينة الذين دافعوا عنها، فأدلوا إليه بتقرير شامل بتفاصيل معارك الأسوار الطّاحنة، وخصوصًا المعارك الّتي جرت أمام الباب الكبير.

وقدّموا إليه قوائم بأسماء الشهداء والأبطال الذين استبسلوا في الدّفاع عن «**ذات البهاء**» قبل وصوله، الأحياء منهم والأموات.

وأشادوا ببطولة ابنة عمه «**شمس**»، فأصغى بانتباه شديد،

وأخبروه بأنها لعبت دورًا مهمًّا ووقفت موقفًا حميدًا مجيدًا فوق الأسوار، واشتركت في القتال، وكانت ترمي بالسّهام وتصبّ الرّصاص والقار على رؤوس المهاجمين خلف الباب، وكان لوجودها فعل السّحر في نفوس الفرسان والجنود؛ فرفعت معنويّاتهم، وثبتت قلوبهم بشجاعتها الفائقة، وإقدامها ومخاطرتها وهي تقاتل من فوق حافة الأسوار .

وأخبره القادة أنّ جرحها كان ثخينًا ومؤلمًا ، لكنّه لم يكن قاتلًا ، وقد نقلت إلى قصرها مشيّعة بالحفاوة والتبجيل، وأشرف على علاجها أحد الأطباء ـ بالإضافة إلى رعاية مرافقها «**ماهر الزبيدي**» الذي كان ألصق بها من ظلها في الحرب والسّلم، ثمّ اختفت بعد بضعة أيام واختفى معها مرافقها ، ولم يرهما أحد حتّى هذا اليوم.

انتفض قلب الملك، واصفرّ وجهه، لكنّه تماسك وبقي ساكنًا ، وشعر بانقباض شديد، تمنّى لو كان بوسعه أن يسمح لدموعه المحبوسة في مآقيه، ولآهاته في صدره بالبوح كي ينثرَ الأحمال عن عينيه وصدره. لكنّه تجلّد وتماسك، وسأل القادة قائلًا : «كيف اختفت وإلى أين ذهبت؟». فأجابوه: «لقد اختفت مع

مرافقها «**ماهر**» بعد أن سرحت خدمها، وأمرت حرّاس القصر بالانتقال إلى الأسوار للدّفاع عن «**ذات البهاء**».

فاطمأنّ الملك قليلًا لأنّه كان يثق بماهر مرافقها منذ الصّغر، وراح يتمتم في صوت خفيض: «ترى.. أين أنتِ الآن يا «**شمس**»؟».

ثمّ توجّه ببصره جهة القادة والفرسان، وأثنى على شجاعتهم وقوّتهم، ونوّه ببطولاتهم، وأشاد بتضحياتهم جميعًا بالتّرقيات العامّة، وإدرار الإنعامات عليهم لأنّهم كانوا أبناءً بررة لأوسان، وإليهم يعود الفضل ببقائها وطنًا حرًّا مستقلًا وعزيزًا شامخًا.

حين انفرد بالوزير الحكيم «**الصّاحب**»، حدّثه عن «**شمس**»، وأعلمه بأنّها رفيقة صباه، ومن دمه ولحمه، وكان موعودًا بالزّواج منها وفقًا لاتفاق شفاهي معقود بين والده ووالدها، فأبدى الوزير إعجابه بشجاعتها، ووعد الملك بالبحث عنها، وتكريس جهوده للعثور عليها وتقصّي أخبارها، واتّفق معه على موعد للاحتفال بتتويجه ملكًا على البلاد خلال عشرة أيام، لأنّ العرش حقّ من حقوقه الموروثة المشروعة، وأصدر أوامره بإذاعة مراسيم التّتويج، وأرسل المنادين لإعلان الخبر في كافّة أرجاء البلاد. كما كلّفهم

بإذاعة أنباء اختفاء الأميرة «**شمس**» ابنة عم الملك، وطلب ممّن يعرفون شيئًا عن اختفائها ومكان وجودها الاتّصال فورًا بالقصر الملكي مباشرة، أو بالوزير الحكيم «**الصّاحب بن عبد مناة**».

وقد عمد في ما بعد إلى زيارة قصر الوصيّ وتفقد محتوياته، فعثر على بعض الأموال العامّة الّتي كان الوصيّ يحتفظ بها في خزينة القصر، فنقلت إلى القصر الملكي وأبقى كلّ شيء على حاله، باعتبار أنّه متاع موروث، وهو من حقّ ابنة الوصيّ الأميرة «**شمس**».

إنّها الليلة الرابعة من دخول الملك إلى عاصمته، ولم تفلح سعادته وفخره بالنّصر في إلهائه عن اختفاء «**شمس**»، وقلقه عليها. توجّه مع الوزير بعد أن تخفَّى بملابس البحار، برفقة بعض قادة الحرس إلى قصر الأميرة الواقع في مكان قريب من الأسوار، فصعد برفقة وزيره إلى القصر، وتجوّلا في الطّابق الأول، ثمّ الثاني حيث كانت تقيم الأميرة، وراحا ينتقلان من حجرة إلى أخرى في ذلك الجو المشبع برائحة الخزامى، والسكون المخيّم على حجرات القصر وقاعاته.

ثم توجّه الملك منفردًا إلى غرفة النوم، فوقع نظره على رسم

يخصّه، معلّقًا على الجدار المقابل لسريرها المغطّى بالدّيباج، وكان الرّسم محفورًا من قبل أحد الرسّامين على صفيحة من المرمر المسنون، كلّ ما حوله يشهق بها، أشياؤها، تحفها، خزانة ثيابها وملابسها معلّقة بمشاجبها، فاجتاحته موجة حزن واشتياق، وهمس في سرِّه قائلًا: «إنّها لم تأخذ حتّى ثيابها، وهذه تحفها متناثرة فوق المائدة وفي أدراج خزانة ثيابها، فدمعت عيناه وغادر الغرفة حزينًا».

في اليوم السادس، حضرت إلى القصر الملكي سيدة جميلة ترتدي قباء يغطّي جسمها الممشوق، وتلفّ رأسها بشال أسود من القز، وطلبت مقابلة الوزير، وذكرت اسم الأميرة «**شمس**»، فأذن الوزير بإدخالها إلى قاعة جلوسه فورًا.

دخلت السّيدة بهدوء ووقار، وألقت على الوزير تحيّة الصباح، وناشدته أن يساعدها على التشرّف بمقابلة الملك، فسألها باسمًا: «ألا تعرّفينا بنفسك؟ فهذا أمر لا بدّ منه قبل السّماح لك بمقابلة جلالته». بدا عليها الاضطراب، لكنّها ما لبثت أن قالت: «أدعى «**لولو**» وأنا وصيفة الأميرة «**شمس**» وخادمتها الخاصّة». وأضافت: «أوصتني سيدتي قبل سفرها بأنّ أفضي إلى جلالة الملك بسّر خاص، لن أبوح به إلّا لجلالته شخصيًّا».

فتهلّل وجه الحكيم وقال: «حبًّا وكرامة».

ثم انتصب واقفًا ودخل إلى جناح الملك، الذي كان جالسًا فوق أريكته يطالع بعض الرّقوق المتعلقة بشؤون المملكة، فأسرّ إليه بنبأ الوصيفة الموجودة في جناحه، فقال الملك متلهّفًا: «اسمحوا لها بالدّخول، لعلّ لديها ما يرشدنا إلى مكان وجود الأميرة «**شمس**»».

دخلت الوصيفة وحيّت الملك: «نعمت صباحًا يا صاحب الجلالة».

فردّ الملك على تحيّتها برقّة، وطلب منها أن تجلس على المقعد المقابل لأريكته، فجلست وضمّت إليها أطراف عباءتها، وبادرت بقولها: «مولاي لقد سلّمتني سيدتي الأميرة «**شمس**» هذه المفاتيح، وأمرتني أن أسلّمها لجلالتك يدًا بيد، ثمّ نهضت واقفة ووضعت المفاتيح في راحة يده الممدودة. وعادت إلى مقعدها واستطردت تقول: أنا وصيفة الأميرة وأدعى «**لولو**». رفع الملك عينيه إلى وجهها، فعرفها فورًا لأنّه رآها كثيرًا مرافقة للأميرة، تقوم بخدمتها. ابتسم في وجهها قائلًا: «مرحبًا بكِ يا «**لولو**»، إنّني أتذكّرك جيّدًا، فأحنت رأسها بامتثال، وقالت: المفتاح الكبير هو مفتاح باب السّرداب السّرّي، أمّا المفاتيح السّبعة الأخرى فهي

مفاتيح خزائن آبائك وأجدادك، وتحتوي على كنوز الأسرة المالكة من مئات السّنين».

فسألها الملك قائلًا: «ممّ تتألف هذه الكنوز؟»، أجابته: «من ذهب وفضّة وأحجار كريمة وتحف مرصّعة بالجواهر». فتابع أسئلته: «أو ما زالت تلك الكنوز في خزائنها؟».

أردفت قائلة: «نعم، لأنّها سّر مغلق، مخفي في سرداب سرّي، لا يعرف مكانه سوى أربعة أشخاص؛ أولهم جلالة الملك الراحل والدك، والوصيّ الأمير «**يشجب**»، والأميرة «**شمس**» الّتي ائتمنها والدها على الكنز وسلّمها مفاتيحه، وأنا...».

عقّب بسؤالها: «وأين يقع السّرداب؟».

فأجابت: «تحت قاعة الاستقبال في الطابق الأوّل يا سيّدي».

فازداد الملكُ اطمئنانًا، ثمّ سألها: «وأين الأميرة «**شمس**»؟»، فاغرورقت عيناها بالدّموع، وأجابت: «لقد رحلت مع مرافقها «**ماهر الزبيدي**»، غادرا القصر عبر النّفق السّرّي، وقد كان هذا كما تعلم جلالتك هو القصر الملكي الذي بناه جدّك، قبل أن يبني والدك هذا القصر الذي تقيم فيه جلالتك».

فهزّ الملك رأسه وقال: «ولكن إلى أين رحلت؟».

فأجابت: لقد توجّهت غربًا، وهذا كلّ ما أعرفه لأنّها ودّعتني على باب السّرداب، وطلبت مني مبارحة القصر والعودة إلى منزلي فورًا.

شكرها الملك على معلوماتها القيّمة قائلًا: «إنّ وفاءك المُشرِّف للأميرة «**شمس**» والأسرة الملكيّة أثمن من تلك الكنوز على ضخامتها، وحبّك وإخلاصك للأميرة قد أثّرَ فينا كثيرًا، بورك فيك وقرّي عينًا، وإنّنا جادّون بالبحث عن الأميرة، الّتي ستقدّر لك هذا الوفاء والإخلاص بلا شك، ولكن، ألم تحدّثك عن وجهتها أو تشر إلى مكان بعينه؟».

صمتت «**لولو**» قليلًا، ثمّ لمعت عيناها وهتفت: «حدثتني مرارًا عن قرد أشقر جميل، كان يأتي من الجهة الغربيّة للمدينة، وهي الجهة الّتي قصدت إليها، وهذا كلّ ما أعلمه» شكرها الملك مرّة أخرى، ثمّ نهض ومدّ يده شاكرًا، وصافحها بحرارة، متمنّيًا لها التّوفيق، وخاطبها: «عندما نعثر على الأميرة «**شمس**» ستعودين مرّة أخرى إلى ملازمتها»، فأحنت «**لولو**» رأسها ودعت للملك بطول العمر ثمّ انصرفت.

لم يكن الأمير يعرف شيئًا عن تلك الكنوز، فالوصيّ لم يطلعه

على سرّها قط، وكذلك أبوه. استدعى وزيره الحكيم، وأخبره بسرّ الوصيفة «**لولو**» وتفاصيله، فطفح وجه الحكيم بالسّرور، وقال: إنّ حظك يا مولاي أقوى من ضياء الشّمس، وسعدك يبشر البلاد بالسّعادة والهناء، لكنّني مندهش من إخلاص الأميرة «**شمس**» لجلالتك، ووفاء الخادمة «**لولو**» لسيّدتها، واحتفاظها بالسّر في أعماق قلبها وحرصها ألّا تبوح به إلّا أمام جلالتك! هكذا يكون الإخلاص، وهكذا يكون الوفاء وإلّا فلا».

في صباح اليوم التالي، توجّه الوزير إلى قصر الأميرة «**شمس**»، وأحضر له قائد الحرس الملكي العمّال والبنّائين، فحفروا في أرضيّة قاعة الاستقبال إلى عمق ستّة أذرع، لتفاجأهم بلاطة كبيرة من حجر الصوان، فانتزعوها فإذا بها تُفضي إلى درج مؤلف من عشر درجات، نزل الوزير ومعه قائد الحرس، ليرى أمامه سبع خزائن من الخشب أبوابها مصفّحة بالنّحاس، فأمر بنقلها كما هي إلى القصر الملكي، فأحضرت الجمال، والمزيد من العمّال، وتمّ نقل الخزائن إلى القاعة الّتي يجلس فيها الملك عادة. وأعاد البنّاؤون تسوية أرضيّة القاعة إلى ما كانت عليه في قصر الأميرة «**شمس**».

دخل الملك بصحبة وزيره إلى القاعة الّتي وضعت فيها

الخزائن السّبع، وفتح باب الخزانة الأولى فإذا هي ملأى بالسّبائك الذّهبيّة! اتّسعت حدقتاه دهشةً وسعادة، فتابع فتح الخزائن، ليجدَ ثلاثًا منها ملأى بسبائك الذّهب، وخزانتين ملؤهما سبائك الفضّة، أمّا السّادسة فاكتظّت بالعقود والمجوهرات والحلي الذهبيّة المرصّعة بالدّرر والأحجار الكريمة.

وصل أخيرًا إلى الخزانة السّابعة، الّتي كانت مؤلّفة من أربعة رفوف، اصطفّت فوق ثلاثة منها تيجان الملوك العشرة السابقين الذين حكموا «**أوسان**»، وكلّها مرصّعة بالأحجار الكريمة بأحجام ومقاييس وأشكال مختلفة، أمّا الرّفّ الرابع فكان يحتوي على صولجانات أولئك الملوك المصنوعة من خشب الأبنوس، مصفّحة بالذّهب والفضّة، رؤوسها عبارة عن تماثيل صغيرة لرأس النّسر شعار المملكة، مرصّعة بالماس والياقوت والزّمرد، بالإضافة إلى عشرة سيوف، مقابضها وأغمادها من الذّهب والأحجار الكريمة المختلفة.

تبادل الملك ووزيره نظرات الدّهشة، وقد امتلأ قلباهما بالغبطة والسّرور، فبادر الوزير بالقول: «يا مولاي لقد تعوّد الملوك على أن يقدّموا لعرائسهم قبل الزّواج الهدايا «**البائنة**»، لكن صاحبة السّمو الأميرة «**شمس**» شذّت عن القاعدة، وهي الآن تقدّم

لجلالتك بائنتها، وهذا أمر لم يسمع بمثله من قبل، فهنيئًا لجلالتك بما وهبت وأعطيت، لأنّ الهبة والعطيّة سخيّة جدًّا.

تنهّد الملك تنهيدة طويلة، تجمع الحسرة بالشّوق بالألم، وقال: «المهم أن نعثر عليها، فهي عندي أثمن من كلّ الخزائن وما فيها...».

أقيمت حفلة التّتويج في هيكل الشّمس في موعدها المحدّد، بحضور كبير كهنة الهيكل، والكهنة والقادة وأقيال البلاد وأعيانها، وممثلي أهل «**أوسان**». وأجريت الطّقوس والمراسم، ثمّ تقدّم كبير الكهنة فوضع التّاج فوق رأس الملك، وهتف: عاش الملك... يحيا الملك، عاشت مملكة «**أوسان**» حرّة عزيزة إلى الأبد.

وارتفعت الهتافات من داخل الهيكل هادرة، وصدحت موسيقى الجيش بنشيد «**أوسان**»، عمّ الفرح نفوس الناس، وتلألأت أعينهم بدموع الفرح.

ومنذ ذلك اليوم صار بوسع الملك إصدار المراسيم الشرعيّة، وإجراء الإصلاحات والمشاريع الممهورة بخاتم المُلك.

تهافتت وفود الممالك المجاورة والبعيدة لتهنئة الملك بتتويجه، واسترداده عرش آبائه وأجداده، فأقيمت الحفلات

والمآدب السخيّة في «**ذات البهاء**» على شرف الوفود، وفي مقدّمتها وفد مملكة «**مأرب**» برئاسة ولي العهد الأمير «**يعظم**» وأمّه «**زهرة العُلى**»، شقيقة الملك «**مالك**».

على الرّغم من كلّ تلك الاحتفالات والحفاوات البالغة، بقي الملك يشعر بالوحدة، فحلمه لم يتحقّق كلّه، وأمانيه لم تصل إلى أوجّ الكمال، وشمس وجوده، رفيقة صباه ما زالت مفقودة، ولم يعثر لها على أثر.

كان كلّما خلا بنفسه تملّكه الشعور بالعجز والتقصير، بالرغم من البحث المتواصل، فهو لم يفقد الأمل في العثور عليها، لكنّه يحتاج إلى دليل، أو رأس خيط يقوده إليها... وأنّى له ذلك!؟

لم يكن ليشك لحظة واحدة في إنّها ما زالت على قيد الحياة، في مكان ما، ولكن لماذا أقصت نفسها عن «**ذات البهاء**» وربما عن المملكة بأسرها؟

اجتمعت لدى الحكيم ظنون وتخمينات عن الأسباب الّتي جعلت الأميرة «**شمس**» تقصي نفسها عن عاصمتها، وتبعدها عن مجمعتها، وجعلتها تفضل الاعتزال عن الحياة الّتي كانت جزءًا منها، فقد كانت نفسها معذّبة حزينة بسبب أخطاء والدها

الجسيمة، كثيرًا ما تألّمت، وشعرت بتوبيخ الضّمير نيابة عنه؛ فالآباء يرتكبون الذّنوب ويتمادون في الأخطاء، والأبناء يتحمّلون أوزارها وأضرارها ومترتباتها.

إنّها ابنة الجلاد المغتصب الذي حاول تدمير المملكة وتقويضها بعد أن عبث بالقوانين والشّرائع، ووضعها خلف أذنيه دون أن يرعوي أو يفكر أو يتأمّل، أو يحسب حسابًا لابنته الّتي ستقع فريسة أنظار أهل «**أوسان**» وانتقاداتهم وتهكّماتهم، أينما وقعت عليها أنظارهم.

فالمسألة في نظرها أصبحت لا تطاق، والحياة تحت مطرقة الشّكوك والظّنون أصبحت أيضًا لا تطاق، ولم يكن أمامها إلّا الانتحار أو الابتعاد والاعتزال، وبما أنّها كانت شابّة تحب الحياة، ولها فيها آمال وطموح وتطلّعات فقد آثرت العزلة والاعتزال، فرحلت عن «**ذات البهاء**» إلى مكان مجهول بعيدًا عن الأنظار والانتقادات والمعايرات.

لم يخفِ الحكيم «**الصّاحب**» ظنونه وتخميناته عن الملك، فحدّثه عنها بصراحته المعهودة، فشعر الملك وكأنّ خناجر حادّة تنهش في جوانبه فقال:

«صدقت أيّها الحكيم إنّها فتاة صبيّة حيّة الضّمير مستقيمة الأخلاق، ذكيّة طموح، لكنّ أحلامها تقوّضت، وعلينا أن نضاعف اهتمامنا وجهودنا في البحث عنها، لا لنقول لها بأنها مخطئة، بل لنذكرها بأنّه لولا الذنوب والخطايا لما كان التّسامح والغفران، وهما من أركان النّفس الحرّة، ومع ذلك فالذّنوب ليست ذنوبها، والأخطاء ليست أخطاءها، فهي والحالة هذه بريئة مثل الحمل، طاهرة مثل الزّهور، أمينة مثل أشعّة الشّمس».

الفصل التاسع

في هذه الأثناء كانت «**شمس**» قد قنعت بحياة الغابة، وألفتها، فهي الآن مأواها ومسكنها، تشعر فيها بسكينة بين أصدقائها من الحيوان والطّيور، بعيدًا عن الظّنون والهواجس، ولها ما يشغلها في كلّ يوم حتّى المساء، بعد أن أبلت وبرأت من طعنة السّهم وصار بوسعها أن تمتطي جوادها وتتجوّل به في مسارح الغابات وملاعبها ومجاهلها أيضًا، فالغابات في نظرها لم تكن موحشة، بل آهلة بما فيها من الحيوانات والطيور.

وعند حلول فصل الخريف استأذن «**ماهر**» بالسّفر إلى القرى القريبة للتزوّد بالمؤن والمعدات، كي يبني لها منزلًا صغيرًا من الخشب، يقيها من الرّياح والأمطار في فصل الشّتاء القادم، لأنّ موقع الغابات بين جبال القمر المحدقة يجعلها شديدة البرودة في فصل الشّتاء، وأضاف قائلًا: «ونحن بحاجة إلى معرفة ما انتهت

إليه الحرب، وما إذا كانت قد وضعت أوزارها، ومن يحكم البلاد، ويسيطر عليها، فنحن من أبناء هذا الوطن الكبير».

فابتسمت «**شمس**» قائلة: «إنّك لعلى صواب، لا بدَّ أن نتزوّد بالأخبار لنعرف ما آلت إليه الأمور، حتّى وإن كنت أشعر بأنّ البلاد بقيت لأهلها، وأنّ ابن عمّي الملك «**مالك**» قد انتصر على أعدائه، لأنّه ذكي وصبور وحليم وحازم وشجاع، ومن حوله أبطال وفرسان أشدّاء وحكماء أذكياء، وفي مقدّمتهم عالم عصره وحكيم هذا الزّمان «**الصّاحب بن عبد مناة**»، كان والدي يكرهه ويخافه لأنّه جهبذ في علومه، مداركه واسعة، وحكيم عالم بطبائع البشر والكائنات، وممارس لهذا كله؛ لذلك فإنّني مطمئنة من صدق فراستي، ومع ذلك فنحن بحاجة إلى التزوّد باليقين حتّى تبدد آيته السّاطعة ظلام الشّكوك والمظنّة».

فقال «**ماهر**»: «لقد نطقتِ بالصواب أيّتها الأميرة، ولتكن السّماء في عونكِ لأنّكِ مثال للطّهارة والعفاف، وقدوة لكل عمل صالح وفكر ناصح، وعقل راجح».

وأعدّ «**ماهر**» جوادًا ليكون جاهزًا لمغادرته فجرًا، وطلبت منه الأميرة أن يأخذ المزيد من وزنات الذّهب والفضّة، وأن يتجنّب

مخاطر الحرس، والناس الفضوليّين، وأن يبتعد عن «**ذات البهاء**»، إذا ما أراد أن يتجنّب المتاعب، هنا غلبها الضّحك فقالت: «إنّني أعلم بأنّك مشتاق للعاصمة الّتي ولدت فيها ونشأت، وهذا من الوفاء، وأصدق ما في طبائع البشر هو وفاء الإنسان لوطنه».

فسالت الدّموع من عينيه إشفاقًا على الأميرة الّتي تحاول إخفاء حبّها لوطنها وشوقها له، ولأشياء أخرى كثيرة فقال: «لتكن السّماء في عونكِ يا سيدتي ولتكافئكِ على حسن نواياكِ، وما تكتمين من آلام لا يتحملها الرّجال الأشدّاء».

وتوسّل إلى الأميرة أن تعتني بنفسها طيلة غيابه، وأن تكون مثل «**نولان**» حذرةً مبتعدة عن الأخطار.

فقالت له ضاحكة: «لا يغرّنّك هدوء «**نولان**» وسكينة نفسه، إنّه شجاع وذكي أريب رغم غريزة الحذر الأصيلة الكامنة في مطاوي عقله النّشيط الواسع».

في فجر اليوم التالي رآه «**نولان**» وهو يضع السّرج على ظهر جواده لأوّل مرّة، منذ وطئت قدماه أرض الغابة، بالرغم من أنّه كان يراه في كلّ يوم يعدّ جواد سيدته لركوبها، عندما تعزم على التّجوال في الغابة أو الرملة أو الأرض البركانيّة للبحث عن المزيد

من الحصوات البرّاقة، فيقدّم لها يد المساعدة لأنّ غريزته الباحثة كانت تدلّه على مكان الماس في ذلك المنجم البعيد المهجور.

ولاحظ «**ماهر**» أنّ «**نولان**» ينظر إليها مستفسرًا، ومع الزمن صار «**نولان**» يستطيع أن يفهم معاني العديد من الكلمات من حركة الشّفتين.

فقال «**ماهر**»: «إنّني مسافر لإحضار بعض المؤن، وأشار بيده إلى فمه، فاستوعب «**نولان**» المقصود من إشارته فهزّ رأسه، لأنّه يريد إحضار مؤن للسيدة الجميلة».

فأشار له «**نولان**» بأنّه سيصحبه في ممرات الغابة إلى أطرافها، وهكذا انطلق الاثنان معًا والأميرة «**شمس**» غارقة في الضّحك فقد انطلق «**ماهر**» على صهوة جواده يخب خبيبًا في ممرات الغابة، بينما كان «**نولان**» يطير فوق رأسه مستعينًا بأغصان الأشجار وفروعها.. فخرجا معًا من الوادي العميق الظّليل إلى المنخفض الأرضي حتّى انتهيا معًا إلى أطرافه، وعندئذ توقّف «**نولان**» وأشار إلى صديقه «**ماهر**» بأنّه عائد إلى السّيدة لحراستها، فابتسم «**ماهر**» مطمئنًّا، ثمّ حيّاه تحيّة الوداع، وانطلق في سبيله وعاد «**نولان**» إلى صديقته.

نظر «**ماهر**» من بعيد إلى الأسوار فرأى الحرس يختالون بمشيتهم العسكريّة فوق سطوحها وأفاريزها.

واتّسعت مقلتا عينيه عندما رأى أعلام «**أوسان**» العربيّة ترفرف فوقها، وأمعن النّظر في الباب الجديد البرّاق الذي حلّ محل الباب القديم الرّائع الذي استطاع أن يصمد طويلًا تحت ضربات أكباش المهاجمين القويّة.

فقال يحدث نفسه: «لا أشك بأنّ الباب القديم قد نقل إلى دار الآثار للاحتفاظ به، كأثر خالد من آثار تلك الحرب الضّروس».

ثم ثنى عنان جواده وابتعد به عن الأسوار متّجهًا نحو القرى والأرياف، وكان «**ماهر**» مدجّجًا بالسّلاح على عادة فرسان ذلك الزّمان ويحمل إشارة مقتنياته الخاصّة، وكان ينوي الذّهاب إلى مدينة «**فاديم**» الواقعة على مسافة عشرة فراسخ جنوبي «**ذات البهاء**» لزيارة ابن عمّه «**سعد الزبيدي**» من قبيلة زبيد إحدى القبائل القحطانيّة المشهورة بالإقدام والشّجاعة، وظلّ معتصمًا بالصّمت طوال رحلته، لأنّ توجيه الأسئلة إلى الغرباء يثير شكوكهم وفضولهم.

وبعد يومين وصل إلى مدينة «**فاديم**» فتوجّه رأسًا إلى منزل ابن

عمّه، ولم يكن بحاجة إلى أن يطرق الباب، فقد رأى ابن عمّه جالسًا تحت خميلة من الكرمة فوق السطح، يحدّق إليه النظر من بعيد، وما إن اقترب حتّى هبّ منتصبًا وهو يصيح. .«**ماهر**».. مرحبًا مرحبًا وأهلًا بك وسهلًا ..، وعند الباب ترجّل «**ماهر**» عن جواده فاستقبله ابن عمّه بالعناق الذي ينبئه بحرارة الشّوق وصدق التّرحيب.

وأخذ «**سعد**» عنان جواد ابن عمّه، ونادى ابنًا له وناوله عنان الجواد، وطلب منه أن يحرّره من سرجه وعنانه، ويمسح عنه العرق والغبار ويقدّم له الماء والعلف.

ولاحظ أنّ ابن عمّه «**ماهر**» قد أنزل خرجًا ثقيلًا عن ظهر جواده، فتناوله من يده، وكان ثقيلًا بالفعل، وحمله فوق كتفه ودخلا إلى قاعة الجلوس في المنزل، فجلسا أحدهما مقابل الآخر فوق فراش وثير من تحته بسط وثيرة منسوجة من الصّوف صُنعت محليًّا، فصناعة السجاد كانت رائجة ومشهورة في مملكة «**أوسان**».

أقام «**ماهر**» ثلاثة أيام في منزل ابن عمّه، أطلعه فيها «**سعد**» على كلّ الأحداث تليدها وطريفها، وأجابه عن كلّ أسئلته، فعلم أنّ الملك استردّ عرشه واعتلاه، بعد أن هزم «**الأحباش**» وانتصر

عليهم، وأخبره أنّ الملك، بل والمملكة كلّها منشغلون بالبحث عن الأميرة «**شمس**»، الّتي اختفت قبل عودة الملك.

وأضاف: «إنّ البحث عن الأميرة المختفية يسير دون انقطاع، والدّلّالون ينادون في جميع أنحاء المدن والقرى والأرياف، وأنّ على كلّ من يعلم شيئًا عن الأميرة المختفية أن يتوجّه إلى «**ذات البهاء**» لمقابلة الحكيم «**الصّاحب**»، وهو كما يبدو يترأس عمليّة البحث عنها، وقد خُصّصت جائزة قيّمة لمن يقدّم معلومات كافية عن مكان وجودها».

فضحك «**ماهر**» وقال: «لقد غادرت الأميرة العاصمة «**ذات البهاء**» قبل عودة الملك، بعد أن سرّحت خدمها وانطلقت في سبيلها، ودعنا نطوي هذا البحث فلا فائدة من التطرّق إليه».

خرج أبناء العمومة معًا إلى السّوق لشراء المؤن واللّوازم الأخرى، وثلاثة جِمال لحملها. وفي صبيحة اليوم الرابع، قدّم «**ماهر**» لابن عمّه وزنتين من الذّهب، وثلاثة من الفضّة وطلب إليه ألّا يخبر أحدًا بزيارته له، بل وشدّد عليه بأنّ ينسى هذه الزيارة، ووعده بأنّ يزوره في أوّل الرّبيع، ثمّ غادر مدينة «**فاريم**» عائدًا إلى الوادي الأخضر.

خلال رحلة الإياب، كان مضطرًّا إلى السّير بجواده على خطا الجمال البطيئة رغم اتساع خطواتها، لم تكن الرّحلة مملّة لكنّها شاقّة، إذ كان عليه أن يساعد جواده، ويريح الإبل، وينزل عن ظهورها الأحمال الثّقيلة في المساء، ثمّ يعيد تحميلها في الصّباح، إلى أن دخل حدود المنخفض الأرضي متابعًا مسيرته نحو الوادي الأخضر.

في عصر ذلك اليوم كانت «**شمس**» جالسة أمام كوخها تلاعب صديقها «**نولان**»، حولهما الكثير من الإوز والبط وطيور الببغاء، والبلابل على الأغصان فوق رأسها، لكنّها لاحظت أنّه بدأ فجأة يدور برأسه إلى الخلف، ويشمشم رائحة الهواء، فلم تعر ذلك اهتمامًا في أوّل الأمر، لكنّ «**نولان**» لم ينقطع عن التّلفّت حوله، والتّشمّم والتقاط الروائح من الهواء، وهبّ فجأة على قدميه، وراح يقفز ويتوثّب منبئًا الأميرة بقدوم «**ماهر**»، بعد أن امتلأت خياشيمه برائحته فقالت له: «أعاد «**ماهر**» يا «**نولان**»؟»، فهزَّ القرد رأسه محنيًا بالإيجاب، ثمّ وثب إلى غصن مدلّى فاعتلاه، وانطلق بعيدًا بين أغصان الأشجار العالية.

وبعد قليل من الانتظار، سمعت «**شمس**» وقع خطوات جواد «**ماهر**» والإبل المرافقة له، فشكرت الآلهة لأنّها في الواقع كانت

مستوحشة من غيابه. لا خوفًا، فهي تعيش وسط أصدقائها من حيوانات وطيور، لكن الملل والترقّب أصاباها بحمّى الوحدة، وأسرعت إلى استقبال «**ماهر**» ببسمة صافية، ورحّبت قائلة: «لم أكن أخشى عليك من اللّصوص وأمثالهم، فأنت فارس شجاع مارست أعمال الفروسيّة منذ الصّغر، لكني خشيت عليك من الناس».

فأكبر «**ماهر**» شعورها، وتقبّل تحيّاتها بمثلها قائلًا: «تشهد الآلهة بأنّ الحياة لم تكن كما أشتهيها منذ فارقت سيدتي».

واستطرد يقول: «لا خوف عليكِ وأنت الشّجاعة الباسلة، بل من تلك الّتي سميتها بالأحداث الطارئة ومصائب المقادير».

شرع في إنزال الأحمال الكثيرة عن ظهور الجمال، وأنزل عنها رحالها وسرحها إلى شاطئ النّهر، وألحق بها جواده الكريم، ثمّ اتّخذ مجلسَه قبالتها ليحدثها عما شاهد وسمع من ابن عمّه، فبشّرها بعودة ابن عمّها الملك إلى «**ذات البهاء**»، واعتلائه العرش بعد هزيمته للأحباش وطردهم من البلاد.

ثمّ سرد لها كلّ ما عرفه من تفاصيل عن الحرب، والذّكاء الذي أبداه الملك وهو يدير خطّته الحربيّة الّتي أدّت إلى هزيمة الأعداء، وأضاف: الحق يقال إنّ ذلك لا يعدو ما تنبأت به. فضحكت «**شمس**». واتسعت ابتسامتها المصحوبة بحمرة الخجل

حين أخبرها بأنّ الملك يبحث عنها، وأطلعها على تفاصيل بحثه عنها وتخصيصه المكافآت لمن يدلي بمعلومات عنها.

وسألته: «هل أنت واثق من أن ابن عمّك لن تفلت منه كلمة عن زيارتك له أو عن مكان وجودنا؟».

فأكّد لها بأنّ ابن عمّه لا يعرف مكان وجودها، لا سيّما أنّه لم يطلعه على ذلك، بل غادره كما التقاه، دون تفاصيل تذكر.

وأتبع قائلًا: «إنّ ابن عمّي من شرفاء قبيلة زبيد، وهي كما تعلمين قبيلة فرسان لها تقاليدها وأخلاقها العريقة بالنبل والشرف».

فاستردّت الأميرة جأشها وعادت الحمرة إلى خدّيها الموردين أصلًا.

ثم ضحكت وقالت: «سأعدّ العجين ريثما تعدّ أنت الفرن، إنّني مشتاقة لرائحة الخبز».

وما إن رآها «**نولان**» ضاحكة مستبشرة حتّى غمره السّرور فراح يقفز ويتوثّب وهو يهمهم سعيدًا بسرورها.

أعدّت العجين وأضافت إليه زيت الزيتون والملح، ثمّ جعلته أقراصًا مرقوقة، في حين أوقد «**ماهر**» نارًا حامية في داخل الفرن، ثمّ وضع أقراص العجين حتّى تحمّصت واحمرت وجوهها،

فانتشلها رغيفًا رغيفًا، يتصاعد منها الدّخان، ورائحة الخبز تفضح ما حولهما من أجواء، واستلذّوا به ساخنًا إلى جانب ما أحضره معه «**ماهر**» من أطعمة المدينة.

في صباح اليوم التالي، شرع «**ماهر**» يبني لسيدته منزلًا بعد أن توفرت له المعدّات من مناشير ومسامير وقداديم وغيرها؛ فغرس جذوع أشجار الدّردار في الأرض قواعدَ له، ثمّ أقام جدرانه من خشب السّرو والصّنوبر، وسقفه من خشب الورد والأرز، وأقام حوله شرفات واسعة مسقوفة منحدرة، وجعل للسّقف المائل رفارف لتصريف المياه إلى خارج المنزل، وحين ارتفع المنزل وعلا بناؤه واكتمل، شرع يصنع لسيدته سريرًا من خشب الورد، وبعض المقاعد، حتّى أصبحت غرفتها مستوفية لكل المتطلبات لتأمين راحتها، وصنع لنفسه سريرًا من الدّردار ومائدة كبيرة للطّعام ومقاعد لغرفته وللمائدة.

ولم ينسَ الصّديق الوفي الودود «**نولان**»، فبنى له برجًا قائمًا على ثلاث قوائم، وزوّده بسلّمٍ يعينه على الارتقاء إليه، كما صنع له سريرًا مجهّزًا بالفراش القطني والأغطية ـ وهكذا نعم «**نولان**» ببرجه الدافئ.

وقضى الثّلاثةُ فَصْلَي الخريف والشّتاء، دون أن يشعر أحدهم بأي انزعاج، لا من الأمطار الغزيرة الهاطلة، ولا من السّيول المتدفّقة، وتلك الثلوج الّتي تغطي قمم الجبال راسمةً لوحةً فنيّة بديعة، كانت سببًا كافيًا لإدخال السّرور في نفس شمس، الّتي لم تشاهد شيئًا كهذا من قبل .

مرّ الفصلان سريعًا، وأعقبهما الرّبيع بمواكب الجمال من خضرة وأزهار، وأسراب الطّيور الّتي ترسم أسرابها على صفحة السّماء حياة أخرى. وظهر جيل جديد من الحيوانات كالأبقار الوحشيّة وكلّ أنواع الغزلان والوعول والماعز، بعد أن وضعت أحمالها. صارت الغزلان تتوافد إلى منزل الأميرة خصوصًا الإناث منها والظّبيات، لتُري الأميرة ما أنجبته من أخشاف[١] وأرآم[٢]، وهي صغار في منتهى الرّشاقة والجمال.

أخرجت الطّبيعة كنوزها من أشجار جديدة وأزهار ورياحين، وعبق الوادي بالرّوائح العاطرة، وتضوّعت أزهار النّرجس والدّفلى الرّبيعي، والنّسرين والورود البرّية والبنفسج، وأشجار اللوز النضرة والأقحوان المنثور، واحتفل الوادي بمهرجان الرّبيع

(١) الخشف: ولد الظّبية المولود حديثًا.
(٢) الرئم: الظّبي الخالص البياض وجمعها أرآم وآرام.

احتفالًا رائعًا استعرضت فيه الطّيور الجميلة والحيوانات الرّشيقة وجمالاتها وتبرّجت الأزهار بالألوان وفاح منها العبير الجميل.

شرع «**ماهر**» الذي كان حاذقًا وخبيرًا بالأزهار والأعشاب في جمع الكثير منها؛ كالنّعناع والرّيحان، وبعض الأفاوية الّتي تصلح للاحتساء صباحًا ومساءً مع الطّعام بعد غليها. ولم ينقصه السّكّر فقد أحضر معه سكّر القصب المصنوع في مملكة «**أوسان**»، بالإضافة إلى ما في الوادي من غابات قصب السّكّر.

شيء واحد فقط كان يعكّر مزاجه، وهو عدم أكل اللحوم الّتي اعتاد على أكلها طيلة حياته، لا سيّما وهو يرى الحملان والجديان والأرانب وأفراخ الوز والبط والدّجاج البري، فيذوب شوقًا وتشهّيًا إليها، لكنّه عزف عنها مراعاة للأميرة «**شمس**»، وهي بدورها أصبحت نباتيّة مراعاة لصديقها «**نولان**».

أثبتت الأميرة «**شمس**» إنّها فتاة صبور، نجحت في تهذيب نفسها وصرفها عن كلّ الأطعمة الّتي كان لا بدَّ من سفك الدّماء للحصول عليها، واقتدى بها «**ماهر**» الذي بات يعشق الطّيور والحيوانات، ويقيم لها الأعشاش والزّرائب لوقايتها من الرّياح والأمطار، حتّى أصبح ما حول منزلهما محميّة حقيقيّة لكلّ أنواع

الحيوانات والطّيور الحُرّة. ذات يوم خطر في بال «**ماهر**» أنّ من حق هذا الوادي أن يصبح حديقة عامّة، لكنّ تلك الفكرة كانت ترعب شمس وتصيبها بالفزع، على الرغم من أنّه اجتهد لإيصال فكرته لها، قائلًا: «إنّما عنيت حديقة عامّة مسوّرة تحت الحراسة في المستقبل».

فضحكت الأميرة «**شمس**» لسذاجته، وبراءة ظنونه وتخيلاته، وقالت: «ما أطيب قلبك يا «**ماهر**»، إنّ البشر اعتادوا على أكل لحوم الحيوان والطّير، ولا يوجد قانون أو شريعة تمنعهم من أكل اللّحوم، ولن يستطيع أي ملك أو حاكم إصدار مثل هذه القوانين والشّرائع، بعد أن أصبح أكل اللّحوم عادة تسري في حياة البشر.

ولو أنّ أحدًا اكتشف موقع هذا الوادي الجميل، لتحوّل فورًا إلى منتجع للصّيد والقنص وسفك الدّماء، وربما قامت على جوانبه، وفي قلبه قرى أو منتجعات للصّيد والقنص، وعندئذ سيتحوّل الوادي إلى مذابح أو مسالخ لجزر الحيوانات وقتل الطّيور.

ولو حدث ذلك لغضبت قبيلة القرود، ولشعر «**نولان**» بأنّنا خُنّا ثقته وثقة قبيلته، وثقة جميع الحيوانات والطّيور، وغدرنا بهم، وأقول لك وأنا على ثقة: بنو البشر لا يفكرون إلّا في أنفسهم،

وبطونهم، وكأنّهم المخلوق الوحيد على هذه الأرض، يصعب كثيرًا أن يتحوّل البشر من أكلة لحوم إلى نباتيّين. إنّ ذبح الحيوانات والطّيور أصبح عادة عند البشر لأنّهم لا يشعرون بآلامها وأوجاعها، لذلك قست قلوبهم بسبب كثرة أكل اللّحوم، ولولا تلك القسوة لما وجدت الأثرة والأنانيّة الّتي استشرت على ظهر هذه الأرض منذ شرع المخلوق يقول: هذه أرضي وهذا منزلي، وهذا وطني. ومنذ أن وضعت الحدود والقيود والسّدود حول الأقطار، وحول الأراضي، وحول البساتين، ووضعت الأقفال لتحقيق غايات الشأنيّة والأنانيّة.

أرأيت كيف تعيش الحيوانات والطّيور في هذا الوادي على سجيّتها؟؟ فلم تعش الغزلان في داخل حدود لها ولا الأبقار والثّيران ولا الوعول، ولا الأرانب فالوادي هنا مشاع للجميع.

أمّا خارج هذا الوادي فكل شيء له حدود، وكلّ نوع من الحيوانات المفترسة، ومثلها الطّيور الجوارح تعيش داخل حدود أرضيّة أو جويّة، تقوم على حراستها وتحول دون دخول أمثالها وأشباهها إلى داخل حدودها.

فالنّسر يعيش في جوّه داخل حدوده، ويطارد أي نسر آخر

يحاول اختراقها، ومثله في ذلك الصّقر والباشق والأسود والنّمور والفيَلة ووحيد القرن، لماذا؟ لأنّها طيور وحيوانات مفترسة، تعوّدت على الافتراس وكلّ منها تعتبر ما في داخل حدودها من الحيوانات الضّعيفة كالظّباء والأبقار والثّيران والوعول وأمثالها ملكًا لها، لأنّها داخل حدودها.

لذلك تتماثل الأسود وتخوض مع الحيوانات الكبرى معارك طاحنة، وفعل مثل ذلك كلّ قوي من حيوان مفترس وطائر جارح ومخلوق يشعر بسيادته وقوته.

ألا يقول كلّ ملك: «هذه مملكتي ودولتي وسيادتي». ويبدي استعداده للدّفاع عمّا يملك، ويخوض الحروب الطاحنة في سبيل الحفاظ عليها؟

وبما أنّه ليس من السّهل تحويل البشر عن أكل اللّحوم ليصبحوا نباتيّين، فإنّه لمن الصّعب تحويلهم عن غرائز الأثرة والأنانيّة والطّمع والجشع وحب الاستيلاء على حقوق الضعفاء.

فالحياة مؤلفة من أقوياء ـ وهؤلاء يسنّون القوانين والشّرائع من أجل وضع الضّعفاء تحت حكمهم وسيادتهم، لأنّ السيادة هي الامتلاك، والمسود هو الضّعيف الممتلك، وهذه سنن اخترعها

البشر منذ أن شعر كلّ امرئ بأنّه «**أنا**» أو هو.. ومنذ تعرّف على حروف الضّمير وأفعال التملّك والسّيطرة.. وهلمّ جرّا..

فاضطرب عقل «**ماهر**» وهو يصغي إلى ما تقوله الأميرة وشعر بينه وبين نفسه إنّها تقول الصّدق، فالأثرة والأنانيّة هما السّبب في كلّ الحروب الّتي اشتعلت بين الممالك وبين الأفراد أيضًا وما زالت تشتعل.

«ألم يقتل ابنا آدم أبو البشر أحدهما الآخر لنزاعهما على هدف ماديّ.. فذبح الأقوى أخاه الأضعف؟».

والمخلوق البشري هو الذي يرتكب الذّنوب والأخطاء والآثام، وكي ينفصل من مسؤوليّتها يتّهم الشّيطان الذي غالبًا ما خلقه واخترعه من صميم أفكاره وجعله مخلوقًا غير منظور يرى ولا يُرى، وعزا إليه كلّ الوساوس والهواجس والأفكار السّيّئة الّتي تجول بفكره ـ أي بفكر المخلوق البشري فالشّيطان أحيانًا شبح من تصوير هذا المخلوق البشري الذي لا يتورّع عن صنع أي شيء ليتنصّل من مسؤوليّاته وتصرّفاته الجسام.

وهو الذي ابتكر فعل لعن يلعن الشّيطان، بدلًا من أن يلعن وساوسه وهواجسه وغرائزه المتمكّنة من نفسه الأمّارة بالشّر.

إنّ من يقتل أو يذبح طيرًا أو حيوانًا دون حاجة لا يتورّع عن قتل الإنسان قصاصًا أو ثأرًا أو انتقامًا أو جسدًا، أو من أجل السّرقة والسّلب والنّهب.

وتابعت «**شمس**»: «وإنّك لترى الضّعفاء هم الأذكياء أصحاب الصّناعة والمهن والحرفة، وهم الذين ابتكروا صناعاتهم المختلفة، ويُقال عنهم ضعفاء، بينما هم الأقوياء؛ فقوّتهم كامنة في عقولهم وذكائهم ونبوغهم وطموحهم وسواعدهم.

أمّا الأقوياء، فإنّهم الكسالى الخاملون والأغبياء المعتوهون، وهم في الأصل لا يملكون شيئًا لأنّ عقولهم ضعيفة واهنة عاجزة عن الابتكار والخلق والإبداع، وقد عوّضوا هذه النّواقص بالقوّة الجسديّة ـ فاستغلّوها أبشع استغلال من أجل بسط السّيطرة والنّفوذ على الضّعفاء الأذكياء الذين هم قوام الحضارة والصّناعة والزّراعة. إنّهم يستغلّون ذكاءهم للابتكار والاختراع على عكس الأقوياء جسديًّا، والضّعفاء عقلًا، وهكذا يطمعون بالاستيلاء على أموال الضّعفاء الأذكياء والتسلّط عليهم، فلجأوا إلى القتل والاعتداء والتغلّب على الضّعفاء كي يعيشوا من أهون السّبل على حساب الضّعفاء الأذكياء».

وأضافت قائلة: «كان والدي من الأقوياء الأغبياء! زيّنت له نفسه، أن يستولي على الملك اغتصابًا ليحلّ محل ابن أخيه الوريث الشّرعي للملك، مستغلًا وصايته للتآمر عليه من أجل قتله ـ وهي الوسيلة الوحيدة الّتي وجد أنّها قادرة على تحقيق مطامعه، لأنّ الوصاية على العرش جعلت الجيش والشّرطة تحت نفوذه، فاستغلّهما للبطش والتّنكيل والإثراء غير المشروع، وهو ذلك المريض الضّعيف الأعمى بصيرةً، وهو مثال من أمثلة كثيرة تعيش أو عاشت في كلّ زمان ومكان».

الفصل العاشر

لم يغيّر الملك «**مالك**» شيئًا من عاداته وتقاليده المتأصّلة في نفسه بعد تتويجه وارتقائه عرش المملكة؛ فظلّ مثابرًا على تدريباته العسكريّة والرياضيّة يوميًّا، بل إنّها أصبحت من واجبات الجيش، كذلك أخلاقه الرضيّة لم يطرأ عليها أي تغيير.

فظلّ متحلّيًا بفضائله وأخلاقه الّتي شبَّ عليها، من أدب جم، ودماثة خلق غير مصطنعة، وعطف على الناس، وحبّ كبير لرعيّته، ولجنوده بصورة خاصة، وظرافته وكياسته وتواضعه الأصيل وكرمه وسخائه، ومساعدته للضّعفاء والتّعويض على المتضرّرين، ومنح التّرقيات والإنعامات للأبطال الذين برزوا بشجاعتهم وتضحياتهم في ميادين القتال.

ولم يتوقّف عن القراءة والمطالعة واستشارة وزيره الحكيم «**الصّاحب**» في كلّ الأمور، خاصة العلوم والمعارف والتّاريخ

والمسائل الدينيّة، فقد كان يدعو «**الصّاحب**» ليليًّا لتناول العشاء معه، والمسامرة والتداول في شؤون المملكة وغيرها.

مع عودة الرّبيع، أزهرت حدائق القصر، وأطلقت الأشجار عساليجها[١] وطرابينها الفتيّة، وتفتّحت أزهارها، وأزهار الرياحين، وولدت الحياة طبيعتها من جديد. وكم يعشق «**مالك**» قضاء بعض الوقت في حدائق قصره، يمتّع أنظاره بمشاهدة الطّبيعة الخلّاقة، متنزّهًا ومفكرًا ومتأملًا.

وفي إحدى الأمسيات، جلس مع الحكيم «**الصّاحب**» في قاعة الجلوس، وراحا يتحدثان بما يعنّ على خواطرهما من أفكار مستجدّة، تصلح للمسامرة، فالتفت الملك إلى «**الصّاحب**» وأنشأ يقول: «لقد فكّرت أيّها الحكيم في كلّ شيء، فوجدت أنّ أصل الأشياء ومبعثها إنما هو من العقل، وليس سوى العقل من أداة للتفكير في الإنسان، وراجعت كلّ خُطّ على الرقوق أو حُفر على الصخور فلم أجد شيئًا على الأرض إلّا وهو من مبتكرات العقل، فمنه خرجت الأفكار الّتي ساعدت البشر على الزّراعة، وابتكار الحِرف والصّناعات المختلفة، وأعمال النّسيج، وكلّ كبيرة

(١) عساليج: ما لان من أغصان الشجر.

وصغيرة متداولة واقعة تحت يد الإنسان، وصارت خاضعة لناموس سيطرته وتحكمه».

فقال الحكيم: «أبيت اللّعن أيّها الملك، إنّ العقل هو المبدع والخلّاق لكلّ المبتكرات الّتي يتصرّف فيها الإنسان».

فقال الملك: «إذًا هو القوّة العظمى المسيطرة على حياة الإنسان وتصرّفاته».

فقال الحكيم: «أجل يا مولاي ـ على حد علمي فإنّ العقل هو القوّة المسيطرة على حياة الإنسان، لأنّه يفكر ويبتكر باستمرار. والإنسان يقود به وليس قائدًا».

وهنا سأله الملك: «من الذي يقود حركة الكون العقل أم الأصنام؟».

فأجاب الحكيم قائلًا: «إنّ جاري «**يعمر بن عبد اللات**» وهو أشهر النّحاتين في «**ذات البهاء**»، أراه في كلّ صباح من نافذة غرفتي ينحت التماثيل في حديقة منزله، ويعتاش بما تدرّه عليه من رزق.».

فقال الملك: «أوَ ليسَ هو الذي صنع تمثال «**بلو**» الكبير؟».

فابتسم الحكيم «**الصّاحب**» وأجاب قائلًا: «أجل يا مولاي».

فأطرق الملك بعض الوقت ثمّ رفع رأسه وقال: «ما زلت أذكر تلك الصّاعقة الّتي انقضّت منذ بضع سنوات على قبّة الهيكل فانهار بناؤه، وكان تمثال «**الزّهرة**» تحته مباشرة، فتحطّم وانتثر حطامه وشظاياه بين الأنقاض فذعر سكان «**ذات البهاء**» وضجّوا وناحوا وبكوا.

وحضر النّحات «**يعمر**» الذي أشرت إليه، ورأى حطام التّمثال وشظاياه المتناثرة والناس يدعون ويبتهلون ويصرخون وينوحون، فتوجّه إليهم وأخبرهم بأنّه سيصنع تمثالًا آخر، ورجاهم أن يكفّوا عن البكاء والعويل.

فرنا إليه الواقفون ثمّ حوّلوا أنظارهم إلى الكهنة، بعد ذلك غادروا المكان وهم يفكّرون بما وعد به «**يعمر**» من صنع تمثال جديد للإله «**بلو**».. ترى هل كانوا يظنّون أنّ التّمثال نزل من السّماء؟».

فقال الحكيم: «أعتقد أنّ السّاذجين منهم كانوا يظنّون أنّ التّمثال نزل من السّماء».

وأضاف الملك قائلًا: «وبعد شهرين تسلّل النّحّات «**يعمر**» ومعه بعض الحمّالين إلى الهيكل، وكان الحمّالون يحملون جِرمًا ملفوفًا بالسجاد.

فتقدّم «**يعمر**» وأزاح السجاد عن الجرم، فإذا به تمثال «**بلو**» الذي سقط وتحطم فرفعه بمساعدة الحمّالين والكهنة الذين حضروا.. ووضعه فوق قاعدته ثمّ ثبّته وأحنى رأسه للكهنة وانصرف عائدًا إلى محترفه.

وفي الصّباح شاهد الناس التّمثال الجديد، فضجّوا بالدّعاء والابتهال وراحوا يروّجون الإشاعات الّتي هي من صنع الأخيلة، وربّما كانت أخيلة الكُهّان، أنّ التّمثال الجديد نزل من السّماء.

ولما هرع الناس إلى بيت النّحّات للاستفسار منه اختفى، ولم يظهر إلّا بعد أن هدأت الضّجّة.. ومنذ ذلك اليوم وهو معتصم بالصّمت ولم يبح بشيء عن التّمثال الذي صنعه بيديه».

فابتسم الحكيم «**الصّاحب**» وقال: «أجل يا مولاي إنّني أذكر هذه الحادثة وكلّ الحوادث المماثلة لها، فتماثيل الآلهة كلّها صنعت في العاصمة «**ذات البهاء**»».

فقال الملك وكأنّه يتساءل: «لعلّ الآلهة من صنع البشر أيضًا».

فقال الحكيم: «نعم إنّها من صنع العقل الكبير».

فسأله الملك: «ولماذا اخترع العقل الأصنام».

فأجاب الحكيم قائلًا: «من أجل خلق قوّة تكون فوق قوة البشر للسّيطرة عليهم.

فالأصنام حسب ما يزعمون تتحكّم في الحياة والموت، وحسن الحظ وسوء الحظ والفقر والغنى والسّعادة والشّقاء، والهزيمة والنّصر، وكلّ ما يدخل في نطاق هذه القوّة المزعومة، والذين حكموا الأقطار والقبائل والشّعوب في الأزمان الغابرة كانوا ضعفاء عاجزين عن بسط نفوذهم وسلطانهم على قبائلهم وشعوبهم، ولكنّهم بواسطة هذه التّماثيل المنحوتة تمكّنوا من ذلك باعتبار أنّها آلهة أقوى من البشر الذين أرادوا أن يتسلّطوا عليهم، وحكموهم فتمّ لهم ما أرادوا، وكلّ ذلك من صنع العقل.

وإلى هنا انتهى هذا الشّطر من حوارهما فانتقلا إلى الشّطر الثاني، وهو الحديث عن الأميرة «**شمس**» والغموض الذي يكتنف اختفاءها ومكان وجودها.

فقال الملك: «نحن مدينون لها بالكثير، ثباتها ومباشرتها الحرب بتلك الجرأة النّادرة، وحماستها المشتعلة، هذه الحوافز هي الّتي سيطرت على معركة الأسوار لأنّها جعلت من نفسها القدوة والمثال، وبها اقتدى الجنود ثمّ بقيّة الناس الذين سارعوا

بعد انتشار أخبار مشاركتها في القتال، إلى المشاركة الفعليّة وخصوصًا النساء والفتيات.

فاشتراك النساء في القتال ضاعف من حماسة المدافعين من جنود وغيرهم عن الأسوار والباب الرئيسي، وقد هُزم «**ترهاقا**» وجنوده من تحت الأسوار ومن أمام الباب مرارًا كثيرة قبل وصولنا إلى «**ذات البهاء**»».

فهزّ الحكيم «**الصّاحب**» رأسه موافقًا مؤيّدًا لوجهة نظر الملك وأتبع الملك: «ثمّ إنّ كنوز المملكة الّتي احتفظت بها ودلّتنا عليها بواسطة خادمتها «**لولو**».. بعثت الحياة في مرافق المملكة وشرايينها وأوردتها.. فكم من يد أسدتها لخدمة شعبها هذه الأميرة الصغيرة».

قال الحكيم: «إنّها والحق يُقال المعجزة الحقيقة ولكنّها معجزة إنسانيّة، من دم ولحم، وهي خير من كلّ المعجزات المرويّة الّتي هي من صنع الخيال أو من وحي الكُهّان سدنة الأصنام».

فابتسم الملك وقال: «أصبتَ يا أبتي».

وعاد الحكيم «**الصّاحب**» إلى الحديث فقال: «أنا موقن تمامًا

بأنّها لم تغادر حدود المملكة، فهي مثل الرأس الذي لا يغادر جسده، ولا ينفصل عن عنقه، إلّا بضربة الموت. وهي لم تزل حيّة».

فقال الملك: «لقد استعدت ليلة أمس وأنا مضطجع على فراشي الكلمات الّتي تفوّهت بها وصيفتها «**لولو**»، عندما قالت: «إنّها رحلت أو ذهبت غربًا» وعندما قالت: «إنّ قردًا أشقرًا جميلًا كان يتردّد عليها ويأتي من جهة الغرب».

فقال الحكيم: «إنّ حدودنا الغربية واسعة جدًّا، وهي كثيرة القرى والمدن، وفيها ما يسمى بـ «**جبال القمر**»».

ظهرت علامات التّعجّب والتّساؤل على وجه الملك: «**جبالُ القمر!؟؟**».

ردّ الحكيمُ شارحًا: «هي سلسلة من الجبال البركانيّة تشكّل دائرة كاملة، كانت تنبعث منها نيران البراكين فتضيء ما حولها فتبدو من بعيد كالقمر، ذاك كان شأنها في العصور القديمة، لكنّها خمدت منذ مئات السنين، واحتفظت الجبال باسمها في صدور الناس جيلًا بعد جيل».

أطرقَ الحكيم للحظاتٍ، ثمّ ابتسم، وتورّد وجهه بحمرة قانية

تنمّ عن انفعاله وسروره، ثمّ قال: «أذكرُ أنّ والدك كان قد زار هذه الجبال ذات مرّة في صدر شبابه، وحين عودته روى حديثًا عجبًا عن واد أخضر شبهه بالفردوس، ووصفه بأنّه جنّة وارفة الظّلال، كثيرة الجداول والينابيع، تعيش فيها أجناس عديدة من الحيوانات والطّيور».

ثمّ صوّب نظراته جهة الملك الذي أشرق وجهه سرورًا لحديثِ وزيره، فقال: «القرد الأشقر الجميل، من أين عساه يأتي يا ترى؟ إذا لم يكن من جبال القمر؟ أو من الوادي الأخضر؟ كما كان يسمّيه والدك الرّاحل؟!».

فصاح الملك مبتهجًا: «لله درّك أيّها الحكيم، لقد غصت في قعر الحقيقة، وأخرجتها من بحر الظّلمات درّة تتلألأ بالإشراق واللّمعان، أجل يا أبتي إنّها في الوادي الأخضر».

واستطرد: «حقًّا حقًّا... إنّ الفطنة والذّكاء هما نور العقل، والعقل معجزة الإنسان».

ساد الصّمتُ لبرهةٍ، ثمّ قطعه الملك بقوله: «إنّها منطقة مهجورة، ولعلّ نأيها عن العيون يجعلها جديرة بأنّ تكون معتزلًا لمن يريد الاعتزال»، وتألّقت عيناه ببريق عجيب، ثمّ غرق في

أفكاره، فقال الحكيم «**الصّاحب**»: «لقد أصبت يا مولاي فإنّ غابات جبال القمر خير ملجأ لمن يريد اعتزال الحياة» ثمّ رفع عينيه نحو الملك فرآه مستغرقًا في التّفكير، فلم يملك سوى الاعتصام بالصّمت. أيضًا، فقد استشفّ سطوع فكرة المغامرة في ذهنه، ثمّ سمعه يناجي نفسه: «وما أجدره من مكانٍ لقضاء عطلة قصيرة»، انبعثت من عينه نظرة ناعمة زاحمت رموشه الطويلة، كان مزيجًا من الرّجاء والأمل والفرح، وسأل وزيره: «أليس كذلك أيّها الحكيم؟».

فأجابه: «بعد الحرب والمعاناة الطويلة، لا بدّ لجلالتك من عطلة استجمام، لا يحكم مدّتها سوى راحة نفسك».

فابتسم الملك، وقال: «لا بدّ لنا من زيارة هذا الوادي، ولتكنْ رحلة صيدٍ أستعيدُ فيها مهارتي، لا سيّما أنّه قدْ مرّ زمن طويل لم أمارس فيه هذه الهواية، ومن الأفضل لو كانت الرّحلة خفيفة مجرّدة من الرّسميّات، فلا ضرورة للحرس والطّبول والأبواق».

فهتف الحكيم: «ما أشوقني لقضاء هذه العطلة القصيرة بصحبة جلالتك الممتعة، للتحرّر من قيود المراسم وطقوس مباركة

الكهنة، والانطلاق برفقة أشعة الشّمس الوضّاءة بين عجائب الطّبيعة ومشاهدها الخلّابة».

وأتبع قائلًا: «منذ مطلع هذا العام ونحن نعمل ليلَ نهار، فإذا كان ثمّة من يحتاج إلى عطلة صغيرة يقضيها بين الماء والخضرة والظّلال الوارفة فإنّما هو جلالتك».

ابتسم الملك ابتسامة مضيئة، كشفت عن أسارير وجهه وخطوط جبينه العميقة وأنفه الطويل، وهزّت شاربيه النّحيلين وتحرّكت شفتاه الممتلئتان عزيمة وإصرارًا، وتمتم سرورًا: «وأنت يا صاحب العظمة ستكون رائد هذه العطلة القصيرة».

استغرق الاثنان في ضحكة طويلة، أعقبها قول الوزير الحكيم: «على رسلك يا مولاي... أنا أعرف صيّادًا عجوزًا خبيرًا بتلك النّواحي يُلقّب بعشير الوحوش، أظنّه لن يمانع إذا دعوناه إلى مرافقتنا».

فردّ الملك: «لا بأس بدعوته، شرط ألّا يفتك بالحيوانات الصّغيرة كي يستعرض مهارته في الصّيد».

فعقّب الحكيم: «نِعْمَ الرّأي، فلا ذنب للحيوانات البريئة حتّى نعكّر عليها صفو هنائها، ورخاء أمنها، وبحبوحة سعادتها بسهامنا

وحرابنا وسكاكيننا، هذا الوادي الذي اختارته الأميرة «**شمس**» لا بدّ وأن يكون الفردوس المفقود».

حدّق الملك في وجه وزيره بدهشة وقال: «أتريد أن تقول إنّ الأميرة «**شمس**»، وخادمها الصّياد الضّليع يتّخذان من النّبات قوتًا وغذاءً يعيشان عليه؟».

فاتّسعت ابتسامة الحكيم، ولم تخلُ من معان هي أكبر ممّا هو ظاهرٌ على وجهه، وقال: «لقد عاش جدّنا آدم وأمّنا حوّاء على الفاكهة زمنًا طويلًا». ضحك الملك قائلًا: «إنّ قلب الأميرة «**شمس**» رقيق جدًّا وعواطفها جيّاشة، لذلك؛ أعتقد بأنّها لا تحتمل رؤية الحيوانات تتعذّب وقلوبها تطعنها السّهام، ثمّ تذبح، خاصّةً وأنّها تسعد مقامًا ونفسًا بقضاء عزلتها صيفًا بين تلك الحيوانات والطّيور الجميلة».

فقال الوزير: «أجل حسبها ما رأته في معركة الأسوار، وما أصيبت به من سهم مزّق كتفها وأذاقها طعم العذاب، وأفقدها الأمن والرّاحة».

ردّ الملك: «بالصّواب نطقت أيّها الحكيم، يجب أن نذهب إلى الوادي الأخضر بقلوب أطفال، وأيد نظيفة، ونفوس عازفة عن

صيد الحيوانات وأكلها، لذلك؛ رجائي أن تُقلّل من عدد الحرّاس والمرافقين، ولتكن هذه الرّحلة لقضاء عطلة الرّبيع راحةً واستجمامًا».

بعد هذا الحديث، أوكلَ الملك لوزيره مهام الرّحلة وإعدادها، وتحضير لوازمها من مؤن ومرافقين، ليخرجوا جهة الوادي الأخضر بعد يومين.

غادر الملك «**ذات البهاء**» على رأس موكبه الصغير الذي يضمّ عشرة فرسان، بالإضافة إلى الدّليل «**عشير الوحوش**» في وقت مبكّر جدًّا متسترين بعتمة الفجر الكاذب، واختار الملك ثلاثة من القادة ليكونوا نوّابًا عنه وهم قائد الجيش «**الصباح الجذيمي**»، وقائد الفرسان «**أسد الجشمي**» وقائد الحرس «**عمران الطائي**»، على أن يكون مقرّهم في مبنى قيادة الجيش، وحين اطمأنّ إلى كلّ التّرتيبات خرج وموكبه من الباب الكبير متّجهين غربًا نحو الوادي الأخضر.

كان الملك يرتدي قفطانًا من الكتّان الذّهبي، مشقوقًا من الجانبين، وسروالًا من الكتّان أيضًا مبطّنًا بالجلد، وسترة من

جلود الغزلان، منتعلًا حذاء من جلد الوعول، وعلى كتفيه عباءة ثقيلة من النّباق، وقلنسوة الفراء تحتضنُ رأسَه .

أمّا الوزير، فقد فضّلَ ارتداء ملابس صوفيّة ثقيلة تقيه من البرد؛ بسبب تقدّمه في السّن، وارتدى الفرسان ملابس الصّيد الأنيقة من جلود الغزلان والوعول، وعلى رؤوسهم تستقرّ قلنسوة من فراء النّمور المرقّطة، وقد أعدّوا أنفسهم بعتاد الصّيد من أسلحة مختلفة، فجهّزوا الأقواس والسّهام والحراب والسيوف، وشدّوا الرّماح على ظهور البغال ثمّ انطلقوا.

حين انتصف النّهار، فضّل الملك التّوقّف قليلًا كي يتسنّى للخيول الاستراحة من العناء، وتناول مع وزيره وفرسانه طعامًا خفيفًا، ثمّ استأنفوا رحلتهم عصرًا.

كان الخدم والخيول قد سبقوا الرّكب لاختيار مكان مناسب لقضاء الليل، وقبل غروب الشّمس بقليل دخل الرّكب في غابات النّخيل القائمة على حدود المنخفض الأرضي، لكنّه تابع مساره إلى ما بعد الغروب بقليل، حتّى رأى أفراده مواقد النّيران والمشاعل معلّقة بالأشجار، فانطلقوا إليها خببًا فوجدوا أمامهم المعسكر الذي أقامه الجنود والخدم.

ترجّل الملك والوزير وترجّل الفرسان، وأسلموا لجم جيادهم للخدم والجنود، دخل الملك الفسطاط المُعدّ له، وطرح نفسه فوق أريكته ليستريح، وتناول الجميع عشاءهم من لحوم الضّأن والدّجاج المقدّدة، وحساءً ساخنًا، وكثيرًا من الفاكهة وكان أبرزها اللوز والمشمش والخوخ.

في تلك الأثناء أنبأ الحكيم الفرسان أنّ الرّحلة ليست للصّيد، بل للبحث عن الأميرة «**شمس**»، لذلك فإنّ مجال الصّيد سيكون ضيّقًا جدًّا.

ثمّ شرع في تقسيم العمل والتحرّكات على أن يتقدّم الموكب فارسان راجلان خلفهما طليعة فرسان راجلة، ومن ورائهم على مسافة مئتي ذراع ثلاثة من الفرسان على صهوات خيولهم، وثلاثة فرسان آخرون يسيرون على آثار الطّليعة، ثمّ موكب الملك وما تبقّى من الفرسان.

غادرت الطّليعة المعسكر قُبيل الفجر بقليل، وبعد طلوع الشّمس استأنف الملك وموكبه المسيرة. كان الرّبيع في أوجّه، والأرض مزهوّة ببساط الرّبيع الجديد، والأغصان تميس دلالًا، وتتمايل زهوًا، بحللها الخضر الزّاهية، والطّيور مدّت أعناقها

بالصّداح والتّغريد المشجي، وكانت طيور السمرمر والكركزان تجري جريانًا ناعمًا فوق بسط الأعشاب وأزهار شقائق النّعمان بلونها الأحمر القاني، هذه الطّيور الصّغيرة اعتادت أن تتصيّد الحشرات والجداجد والدّيدان الزّاحفة والمتسلّقة، وتنقدَ الأزهار وأوراقها من أفواهها الّتي لا تكفّ عن الأكل والامتصاص.

والحجلان بأجنحتها الحمر تسنح وتبرح كالسّهام المتطايرة بين الغصون والأشجار، أمّا الدراج الشّبيه بالحجلان بلونه الأرضي المشوب بالسّواد والبياض وحجمها الذي يربو قليلًا عنها، فوثب سريعًا كالرّياح الدّروج ليبتعد من تحت سنابك الجياد.

وقف الملك ينظر بفرح غامر، ودهشة الإعجاب والسّعادة بطيور الجنّة، والقيثارة، وهو ينقل نظره بينها، فالأوّل جاثمٌ فوق جذع ناتئ ينظر بحيرة إلى أولئك المتطفّلين على عالم الرّيش والفراء، وذنبه الجميل المقوّس الذي يزيد على طول جسمه بثلاث مرات، يرتفع من ورائه مثل قوس قزح، ويكاد منظره السار وحده يستحق عناء دخول الغابة.

بينما الطّائر القيثارة ـ وهو من فصيلة أخرى ـ يتفوّق جمالًا وفنونًا، فذنبه قيثارة رائعة دون مجاز وتشبيه، لا ينقصها سوى

أنامل تعزف عليها، لكنّها لحسن الحظ كانت من ريش لا أوتار، لونها الأخضر صوّرته الطّبيعة وتأنّت في رسمه وتخطيط قيثارته، فهو مرتفع دائمًا أمام أعين النّاظرين والمشاهدين، ورسمت إطاره في خطّين أبيضين منفرجين في نهايته، معقوفين كقرني الثّور، لكنّهما من ريش ناعم، مكسو من الدّاخل باللّون الأخضر، أمّا طرفا الذّنب المعقوفين يمينًا وشمالًا فريشهما كثيف.

ومن غرائب هذا الطّائر البديع أنّ أنثاه لا تتمتّع بشيءٍ من هذا الحسن والجمال، ولم يكن لها ذنب يماثل ذنب أليفها الذّكر، ولا ريشًا كريشه، فالطّائر القيثارة وطائر الجنّة والطّاووس، طيور من فصائل مختلفة، لكنّ أذناب ذكورها أجمل ما عرفته الطّبيعة، على عكس الإناث الّتي لا تمتلك سوى أذناب عاديّة، لا يزيد طولها عن ذنب الطّائر الدوري، وتقف دائمًا إلى جانب إناثها في شبه صلاة وعبادة، مفتونة بجمالها الأخّاذ.

وراحت القنابر تتطاير من تحت سنابك الجياد، ومثلها طيور السمان، بينما تبعثرت الهداهد بتيجانها، والقمارى والحمام المطوق بأطواقها وسجعها الهتوف الناعم فوق الفروع، والأغصان.

مال الملك برأسه نحو الحكيم «**الصّاحب**» وقال: «في هذا العالم العجيب تطيب الإقامة، عالم ساحر تبتكره الطّبيعة، فكم في هذا العالم من المشاهد الخلّابة ما يفتن وما يلهي، وما يصرف المخلوق الآدمي عن حياة المدن والقرى، ويغريه بالمكوث والإقامة!...».

وكأنّه أراد القول: «إنّ رهافة هذه الطّبيعة وروعتها، تتآلف ورقّة «**شمس**»، فكيف لا تستطيب المقام في هذه الجنّة، وهي آيةٌ من آيات الجمال على هذه الأرض».

ثم التفت إلى أسراب الآرام وإناثها، والغزلان الرّشيقة تنقر نقرًا وهي تميل بأجيادها إلى موكبه حياء وخفرًا، كذلك مرت على عجل الغزلان اليعافير وهي غير سريعة العدو مثل الغزلان العاديّة الّتي تسبق الفهود.!

حلّ المساء، فضُربت الخيام والفساطيط، وتناول الملك عشاءه مع الحكيم «**الصّاحب**»، وتناول الفرسان عشاءهم بلذّة بعد جوع، وبعد أن متّعوا أنظارهم، وليس أفواههم بالسّحر والجمال، ومناظر الطّيور العجيبة، ومشاهدة الغزلان الرّشيقة المتوثّبة.

أشرف موكب الملك على الوادي الأخضر مع إشراقة اليوم

الثّالث، فوقف الرّجال وقفة إعجاب واستحسان لما يشاهدون على مرمى أبصارهم.

وفيما كان الملك يمتّع ناظريه فوق حافة الوادي الأخضر، كانت الأميرة «**شمس**» ومرافقها «**ماهر**» يغادران جوسقهما المظلّل بالأشجار المزهرة، كثيرة الألوان، نافذة العبير، للقيام بنزهة صباحيّة في الأرض البركانيّة للبحث والتّنقيب عن المزيد من حصوات «**نولان**» البرّاقة، وهو يتوثّب بين الأشجار يسبقهما، في حين يسيران متجانبين فوق جواديهما، حانت من الأميرة التفاتة جهة ماهر، وسألته سؤالًا عجيبًا أدهشه: «عندما تشعر الحيوانات والطّيور بدنوّ أجلها، وانقضاء فسحة أعمارها، فإلى أين تذهب؟ إنّ من النّادر في هذه الغابات أن تعثر على حيوان أو طائر ميتًا».

سرت ارتعادة في جسد «**ماهر**» لهذا السّؤال الغريب، والملاحظة المُربكة الّتي تصدرُ عن فتاة شابّة في مقتبل العمر، لا سيّما والحزن الذي تجذّر في نفسها يزيدها نحافةً يومًا بعد يوم، لكنّه استجمعَ هدوءه وأجابها: «حين تشعر الحيوانات بدنوّ آجالها عندما تكبر، أو تصاب بأمراض تعجز فطرة الجسم عن مداواتها وشفائها؛ تحزن حزنًا شديدًا، فتضرب عن تناول الطّعام وليس عن الماء، وكثيرًا ما يبتعد الأليف المريض عن أنثاه والأنثى عن

ذكرها، وحين يشعر أحدهما بدنوّ أجل الآخر يصاب بالحزن، لكنّه لا يضرب عن الطّعام كأليفه المريض، لكنّ الطّيور تحبّ الحياة، فإذا أصيب أحد الزّوجين بحادث طارئ غير المرض والكبر، وعجز عن البحث عن طعامه، أسرع أليفه إلى مساعدته وإحضار الطّعام إليه بمنقاره ودسّه بين منقاريه.

ويقال إنّ الحيوان يشبه الطّير في ذلك، فإذا أصيب حيوان بالعمى، قاده رفيقه إلى المراعي، وأصبح رائدًا له ملتصقًا به، يحذّره عند وقوع الخطر، ويقوده في طرق الغابَة السرّيّة كثيفة الأغصان، أو كثيرة الأشواك، لينجو من ذلك الخطر.

وإذا مات الطّير سقط أسفل المكان الذي كان يقف فوقه فيأكله النّمل، وقد يموت أليفه الآخر بعده حزنًا، أو يبحث عن أليف آخر. وإن كان الطّائر أو الحيوان قويًّا، وشعر بدنوّ أجله فإنّه ينتقلُ إلى مكان بعيد بين الجبال أو بين الغابات، قريبًا من المياه؛ حتّى لا يراه صاحبه وهو يموت، فيكون مكان اختفائه هو قبره، وغالبًا ما يأكله النّمل!». ثمّ التفت إليها باسمًا، محاولًا إخفاء حزنه من أجلها، وسألها: «هل أنت متشائمة إلى هذا الحدّ؟»

فأجابت وعلى وجهها شبح ابتسامة: «لست متشائمة، ولكن

حدث أمر أوجب السّؤال»، فحدّق فيها ماهر باهتمام، فأردفت: «أتذكر القمريّتين كهرمانيتي اللون اللتين كانتا تزوراننا ونحن نتناول الطّعام؟».

فأجاب: «نعم أذكر ذلك جيّدًا، كانتا تحضران في موعد الطّعام، وكأنّهما مدعوّتان، وكنت ترمين إليهما بالفتات، وكثيرًا ما كانتا تحطّان على كتفيك من اليمين والشّمال، فكنت تضحكين مسرورةً لإقبالهما عليك بتلك الألفة العجيبة، وتطعمينهما من راحتيك وتتوقّفين عن تناول الطّعام ريثما يفرغان من التقاط الحبّ والفتات، ثمّ سألها وصوته مزيجٌ من استغرابٍ وترقُّب: لم أعد أراهما في الآونة الأخيرة، هل... هل حدث لهما طارئ؟»، أجابته بصوتٍ متقطّع النّبرة: «لقد ماتا!».

ارتجف ماهر، وعلت نبرة حزنه: «ولكن كيف؟»، فأجابت: «علق جناح الذّكر بأشواك شجرة من أشجار السدر الشّوكي فانكسر، ولما جذب السّاق الحر «**ذكر القمرية**» جناحه اقتلعته الأشواك من أصوله فسقط ميتًا»، صمتت برهة، ورفعت يدها اليمنى جهة قلبها، وتابعت: «كانت أنثاه تراقبه من فوق شجرة قريبة، رأته وهو يسقط ميتًا، فهبطت والهة فوقه، وغطّته بجناحيها

وراحت تقرقر، وتطوح رأسها ذات اليمين وذات الشّمال، وهي تسجع وتبكي عليه بكاء موجعًا».

اختنق صوت الأميرة، فكفّت عن الكلام، حتّى هدأ صهيلُ الحزن الذي اجتاح حناياها، فاستأنفت روايتها: «حين يئست الورقاء من قيام أليفها، وشمّت منه رائحة الموت، غادرت المكان مثل السّهم المارق وانبعث من منقاريها هديل غريب لم يسبق أن سمعته منها، رأيتها فوق شجرة الصّفصاف ذات الغصون المتهدّلة فوق الخليج، فأسرعت إليها، واقتربت منها برفق، لكنّها كانت في النّزع الأخير، وقد تدلّى عنقها، أمسكتها بيدي اليسرى وكان في جسدها بصيص حياة، ثمّ ملأت راحتي اليمنى بالماء وأدنيتها من منقارها، لكنّها لم تقوَ على فتح منقارها، فرحت أقطرُ الماء في جوفها بأناملي، أحسستُ بها تنتفض فجأة في يدي، ثمّ التوى عنقها وماتت» احتبس الصّوت في حلق الأميرة، فلاذت بالصّمت مغالبةً دموعها، فبادرها ماهرُ بقوله: «سيدتي.. سيدتي إنكِ تعذّبين نفسك» وانتفض الرجل الوقور باكيًا، فجزعت الأميرة لبكائه، وكانت قد استردّت صوتها الحنون، فهمست: «المعذرة.. المعذرة يا رفيقي».

وألصقت جوادها بجواده، ووضعت يدها فوق يده، يواسي أحدهما الآخر، فلم يكن أحدهما يحمل للآخر سوى الإخلاص

العميق، والمحبّة الكبيرة، فاستنجد بشجاعته وقال لها ملاطفًا: «إنّها حادثة أيتها السيدة، مسكينة، مسكينة تلك الورقاء، يستشهد الأحبّاء وفاءًا عند موت أحبائهم».

غالبت الأميرة حزنها، بالرغم من حمرة تشتعل في عينيها، وواصلت المسير مع مرافقها، حتّى وصلا إلى الأرض البركانيّة، فكان «**نولان**» بانتظارهما، وقد نبّهتهُ غريزته بحزن الأميرة، فراح يرنو إلى عينيها متأمّلًا بقايا الدّموع الّتي ما زالت تطوف سابحةً بين جفنيها الحمراوين، فالتفت إلى «**ماهر**» فإذا بعينيه ملتهبتين، ثمّ راح يهمهم لشعوره بأنّ الأمور ليست على ما يرام.

ربتت «**شمس**» على ظهر صديقها، محاولةً القول إنّها بخير.. ثمّ غاص الثلاثة في البحث عن الحصى البرّاقة، فكان لدى كلّ منهم حصوتين أو ثلاثة يعودون بها أدراجهم، والحزن يسكن قلب «**شمس**» ولا يبرح، فوجع الفقد سمّ يستشري ولا يرحم.

الفصل الحادي عشر

وقف الدّليل «**عشير الوحوش**» في مكانه متجمّدًا حين رأى الجوسق الخشبي، ثمّ أشار لرفيقه الفارس بالاقتراب، فوقف إلى جانبه مندهشًا، غير مصدّق ما تراه عيناه، ودنا منهما الفرسان الثلاثة، وشرعوا ينظرون بدورهم، فأخذتهم الدّهشة الّتي طوت صاحبيهما، ثمّ أشاروا إلى الدّليل ليعود إلى الموكب ويخبر الملك.

تسلّل الفرسان بخطىً خفيفة، واقتربوا من الجوسق، فوجدوا حوله أشياء كثيرة مبعثرة، وبرجًا غير بعيد، وجوادًا يرعى على ضفّة النّهر، وعلى مسافة منه ثلاثة جمال، تقدّموا نحو نافذة المنزل الخشبي، فرأوا سريرًا وألبسة نساء معلّقة، ومقاعد خشبيّة غير وثيرة، تدل على وجود حياة في ذلك المنزل المنعزل.

ثم سمعوا وقع حوافر الجياد المقبلة فتراجعوا إلى الوراء، وشاهدوا الكثير من الظّباء والغزلان، والماعز ترعى قريبًا من

الكوخ، وزرائب تضم أصنافًا من الغزلان وقفت على قوائمها مشرئبّة بأعناقها تتطلّع بدهشة إلى هؤلاء القادمين.

وصل الملك أخيرًا برفقة الحكيم «**الصّاحب**»، فترجّلا عن جواديهما، وتراجع الفرسان استجابةً لإشارة من الحكيم إلى تحت الأشجار.

وبينما تظاهر الحكيم بفحص الأشياء المبعثرة في داخل الكوخ توجّه الملك إلى الكوخ، فوجده مغلقًا تتدلّى منه قطعة حبل فشدّ الحبل ودفع الباب فانفتح على مصراعيه، فدخل ووقع نظره على الفراش يحتضنُ رسالته الّتي أرسلها إلى «**شمس**» سابقًا من قلعة «**تاريم**»، وكانت ما تزال في أسطوانتها المعدنيّة قريبًا من وسادتها، فانتفض قلبه بعنف، واستدار حوله، فرأى ملابسها معلّقة في خزانة من الخشب غير مصقولة كما يجب، وسطعت في أنفه رائحة الخزامى الّتي كانت أعناق باقة منها تطلّ من قلب الخزانة، وقد تناثرت حولها أزهار النّرجس والياسمين، تفوح منها طيوبها الزكيّة.

تفحّص كلّ شيء في الغرفة: الأثاث المتواضع، والمقاعد الخشبيّة المبطّنة بالجلود المحشوّة بالرّيش النّاعم، قوس الأميرة وجعبة سهامها المعلّقة على الجدار، ورمحها المركوز إلى جانب رأس السّرير.

خرج من الغرفة تتلقّفه الدّهشة والسّعادة، ودخل إلى الغرفة الثانية، غرفة «**ماهر**»، تفحّص بعينيه كلّ ما فيها، فلم يرَ شيئًا غير عادي، سوى سرج الجواد الذي يرعى في الخارج، ورحال الجمال مصفوفة وكأنّها مقاعد، ثمّ هرول خارجًا إلى باحة الكوخ، فرأى فوق الأرض المعشوشبة آثار جوادين تنبئ عن اتجاههما نحو الجنوب، فطلب من الفرسان أن يبتعدوا بخيولهم وأحمالهم جهة الشّمال، لأنّ الجياد من عادتها أن تصهل أو تحمحم لدى سماعها وقع حوافر أخرى مقبلة من بعيد.

سار الحكيم وراء الفرسان مبتعدًا، لأنّه يُدرك أنّ مشهد اللّقاء بين الملك والأميرة سيكون أمرًا خرافيًّا، فيه ما فيه من سعادة وألم، لكنّه لحظتهما الخاصّة جدًّا، ولا حقّ لأحدٍ غيرهما في حضورها.

دخل الملك غرفة «**شمس**» وأوصد بابها، وجلس فوق أحد المقاعد الذي لم يكن مريحًا جدًّا، وسمعَ بعد قليل وقع حوافر جوادين يخبان خبيًا، قادمين من الجنوب، فحبس أنفاسه ونهض واقفًا، وما هي إلّا لحظات حتّى سمع حركة وراء الباب، تسارع نبضه، وجمد في مكانه وهو يرى المتراس يرتفع، ثمّة من يدفع الباب من الخارج لينفتح على مصراعيه. تسمّرت «**شمس**» في

مدخل الباب، وشفتاها ترتجفان، وعيناها تجحظان دهشةً لعظم المفاجأة، فمدّ يديه، وتقدّم نحوها هاتفًا: «**شمس**»... «**شمس**»... ماذا فعلتِ بنفسكِ؟ ماذا فعلتِ يا شمس «**ذات البهاء**» وقمرها...؟ أخذها بين ساعديه القويّين وأدناها إلى صدره، وهو يهمس في أذنها قائلًا: «ما أشدّ شوقي للقائكِ يا ابنة العم! مرّت الشّهور طويلةً قاسيةً وأنا أحلم به وأعمل من أجله، وأخيرًا تحقّقتْ المعجزة والتقينا!».

استراحت بين يديه، وألجمها ما يحدث، كأنّه ضربٌ من الأحلام، من الخيال، وبقي جسدها يرتجف، فسحب يده برفق ووضعها تحت ذقنها، ورفع وجهها حتّى قابل وجهه فالتقت عيناهما، رأى دموعها والهةً حزينة تجول خلف مآقيها، وتتدفّق على خدّيها حبّات لؤلؤٍ صهرها الحزن والشّوق والانتظار، وسمعها تهمس «**مالك**»... «**مالك**»... هل تذكّرتني أخيرًا» فابتسم ودموعه لم تملك أن تبقى في أسرها أكثر، وقال: «لم تغب صورتك عن ذاكرتي قط، والمملكة كلّها تبحث عنك، وحين عجز الكلّ عن إيجاد دليل يأخذني إليكِ، خرجتُ بنفسي، وقلبي، وحبّي الذي لم يخبُ يومًا، حملتُ كُلّي بحثًا عنكِ، أوَليس هذا اعترافًا كافيًا؟ ألا يشفع لمالك في قلب «**شمس**» جنونه الذي أخرجه إلى مدى لا يدركه بحثًا عنها؟؟».

ثم أخرج منديله من جيب سترته ومسح دموعها دون دموعه، فابتسمت واستردّت أنفاسها، واستجمعت شجاعتها رافعةً أناملها إلى وجهه، مسحت دموعه وهتفت قائلة: «مرحبًا بك يا ابن العم، وهنيئًا لك انتصاراتك الرّائعة». فقال: «يا لكِ من ماكرة!! أوَعرفتِ ذلك؟!!»، فضحكت وهزّت رأسها. فقال: «وأنا أُهنئكِ على شجاعتكِ فوق الأسوار، «**ذات البهاء**» كلّها تتحدث عن بطولتك».

وأضاف قائلًا: «في خزانتي تقرير من قيادة «**ذات البهاء**» يشيد بشجاعتكِ وينوّه ببطولتكِ..»، واستطرد: «ما زلتِ الصّورة الرّائعة الّتي يتغنّى بها الشّعراء، والتّحفة الّتي يتبارى النّحاتون في نحتها»، وأضاف: «التصورات الّتي أقصتكِ عن «**ذات البهاء**» كانت مجرّد ظنون وأوهام، وما خامركِ من هواجس كانت مجرّد كوابيس أزعجتِ نفسك بتخيّلها».

مدت يديها حول ظهره العريض وشدّته إلى صدرها، وهي تشعر بأنّها بين يدي الرجل الذي أحبّته ذلك الحبّ الكبير فقبّلها في جبينها، ثمّ تناول يدها وخرجا معًا إلى ساحة الكوخ، فاقترب الحكيم «**الصّاحب**» منهما، وهو يهتف بصوته الوقور: «سعادتي بلقائكما لا توصف، لا توصف أبدًا..».

فهتفت الأميرة بصوتها الرنّان المطرّز بالحياء: «مرحبًا بك أيّها الوزير الصّالح، ومدّت له يدها، فأمسكها بين يديه وهو يحيّيها ويرحّب بلقائها بحنان ومودّة».

في تلك الأثناء، كان «**نولان**» يراقب ما يحدث من مكانٍ غير بعيد، أخذته الدّهشة، وجمدت نظراته المصوّبة إلى الفتاة الحسناء متسائلًا بعينيه عمّن يكون هذا الرّجل الوسيم الواقف إلى جانب صديقته؟ ثمّ ما لبث أن استدلّ بغريزته على أنّ ذلك الرّجل الذي يضمّ يد صديقته إلى يده إنما هو من جنسها، ومن قبيلتها ومن لونها وهو الذّكر وهي الأنثى!. ذلك ما تشعر به القرود عندما ترى ذكرًا يقف لأوّل مرّة إلى جانب أنثى، وذلك يعني أنهما قد أصبحا زوجين، وتلك هي شريعة الغاب.

كان الحكيم «**الصّاحب**»، يتحدّث إليها مثنيًا على بطولتها في معركة الأسوار، ووصف لها شعور أهل «**أوسان**» نحوها بأنّه عرفان محض بالجميل، وأنّه يعتبرها بطلة من بطلات مملكة «**أوسان**» اللاتي تحفل بوصفهنّ سجلات التّاريخ.

فأدركت بأنّ الملك كان صادقًا فيما تحدّث به إليها، وأنّها

كانت موغلة في الظّنون والتّخمينات الّتي لا وجود لها، والمسألة كلّها كانت خلافًا لما تصوّرته وكبّرته وجسّمته وآذت نفسها بسببه.

وانطلقت تتحدّث إلى الملك ووزيره، وهي تشعر لأول مرّة بالارتياح والسّرور يغمرها غمرًا، ولاحت منها التفاتة فرأت مرافقها «**ماهر**» واقفًا غير بعيد، وهو يبتسم بعد أن رأى وجهها وقد استردّ بسمته وتورّده.

فهتفت تناديه: «**ماهر**».. لماذا تقف بعيدًا أيّها الرّفيق الوفيّ الشّجاع؟.. تقدّم وصافح الملك والوزير!».

فأقبل «**ماهر**» بخطى رزينة، وانحنى أمام الملك «**مالك**» وحيّاه قائلًا: «حييت يا صاحب الجلالة».

فأسرعت الأميرة «**شمس**» وقدّمته للملك قائلة: «الصّديق المخلص، والمرافق الوفي الشّجاع «**ماهر الزبيدي**»، لقد كنت منذ صغري تحت رعايته، وهو الذي كان يحرسني ويرعاني ويدرّبني، وهو من كان يشجعني ويواسيني عندما طلبت منه مرافقتي لمغادرة «**ذات البهاء**»!».

وعندئذ مدّ الملك يده إليه وصافحه هاتفًا: «مرحبًا بك، أيّها الفارس الشجاع، لقد التقينا من قبل أليس كذلك؟»، وكان الملك

يشير إلى لقائهما في قلعة «**تاريم**» عندما جاء إلى القلعة وهو يحمل رسالة الأميرة «**شمس**». فتألّق وجهها بابتسامة عميقة، ثمّ قدّمته إلى الحكيم «**الصّاحب**» فتصافحا وتبادلا التحيّة.

والتفت «**ماهر**» إلى الملك قائلًا: «أبيت اللّعن أيّها الملك الشجاع، لقد حرّرت مملكتنا ببطولة نادرة، وأنقذت العرش العظيم بالصّبر والأناة، فاهنأ بما نلت وفزت به من نصر على الأعداء في الخارج، واسعد بما ظفرت بارتقائك عرش آبائك وأجدادك، بوركت من ملك ميمون، وهنيئًا لأهل «**أوسان**» ملكهم المنشود الذي قرّت به أعينهم، وتحقّقت بعودته أمانيهم».

سُرّ الملك لدماثته وفصاحته، ثمّ دعا فرسانه من بين الأشجار، وقدّم إليهم الأميرة قائلًا: «هلمّوا أيّها الفرسان، سلموا على ابنة عمّي الأميرة «**شمس**»»، فأقبلوا مسرعين وأدّوا التحيّة اللائقة، وكان فيهم بعض الفرسان الذين حاربوا معها فوق الأسوار، فعرفتهم وأدنتهم منها وحيّتهم وصافحتهم فردًا فردًا.

ثم قدّم الملك لفرسانه الفارس الجديد «**ماهر الزبيدي**» قائلًا: إنّ هذا الفارس النّبيل من أقدم المحاربين، وأحبّهم إلى قلبي، وهو جدير بالثّقة، مجرّب في ولائه وحبّه لأوسان».

وقالت الأميرة وهي تثني عليه: «أجل إنّه نبيل مجرّب، وقد اجتاز كلّ امتحانات البطولة بشجاعة وشهامة ونزاهة وصدق وإخلاص».

كان لا بدّ للجميع من التقاط أنفاسهم، والاستراحة من عناء الرّحلة والتنقّل والبحث، كان لا بدّ من تناول الطّعام بعد حفلة اللقاء والتعارف واجتماع الشّمل، فسارع الفرسان ومدّوا بسطهم على الأرض، وصفّوا فوقها الأطعمة والفاكهة، وجلس الجميع يتناولون طعامهم بإقبال وشهيّة، و«**نولان**» يشاركهم في أكل الفواكه، وهنا قالت الأميرة «**شمس**» معتذرة للملك عن عدم تقديم اللّحوم كما تتطلّب واجبات الضّيافة: «لقد تحوّلت إلى نباتيّة في هذا الوادي الخصيب منذ دخلت حرم هذه الغابات البِكر، وكذلك «**ماهر**» فقد أبينا على نفسينا ألّا نمد أيدينا بالأذى للطّيور والحيوانات الجميلة الّتي نحن في ضيافتها».

تبادل الملك ووزيره نظرة خاطفة ثمّ قال الحكيم «**الصّاحب**»: «اطمئنّي أيتها الأميرة وقرّي عينًا، لأنّ جلالة الملك أصدر أوامره السّامية منذ دخولنا حرم هذه الغابات بعدم اصطياد الطّيور والحيوانات، أو التعرّض لها بالأذى إكرامًا لصحبتكِ إياها وإقامتكِ في ربوعها عزيزة مكرّمة» فشعّ وجهها بابتسامة

إكبار وإعجاب بالرّجل الذي اختاره نبضها، وآمن بعشقه وانتظره.

بعد الغداء جلس الملك والحكيم «**الصّاحب**» في ساحة الكوخ يتمتعان بمشاهدة أسراب المها وهي ذاهبة آتية، بينما الأميرة «**شمس**» في غرفتها، وبعد لحظات خرجت وهي تحمل كيسًا من القطيفة الخضراء وضعته بين يدي الملك.

فتساءل وهو يمدُّ يده إلى داخل الكيس: «ما هذا؟»، ثمّ أخرجها وبين أصابعه ماسة خام بحجم بيضة الحمام، فقلبها في راحة يده وناولها إلى الحكيم قائلًا: «إنها من أنفس أنواع الماس».

ثم أخرج ماسة أخرى لا تقلّ عنها حجمًا وجمالًا وبريقًا وشرع بفحصها باسمًا، ثمّ هتف قائلًا: إنّها حقًّا من الماس النفيس».

والتفت إلى الوزير الحكيم قائلًا: «ما زالت ابنة العم تتحفنا بكنوزها القيّمة!»

ثم مال إليها وهي جالسة إلى جانبه وقال: «هل اكتشفتِ كنزًا جديدًا من الماس الخام؟»

فأشارت بإصبعها إلى القرد «**نولان**»، الجالس قبالتها فوق

شجرة البنيان، وقالت: «هذا الكنز اكتشفه ذلك القرد الجميل، وقد أهداني منه الكثير ثمّ دلّني عليه، وهو يحسبه حصوات برّاقة للّعب، وما زلنا نتردّد على الأرض البركانيّة ونعثر بين الوقت والآخر على بعض الحصوات، ونجاري القرد في هوايته اللّعب بها، وهكذا صرنا نلعب بالماس، وهو يتحفنا بحصواته بين الوقت والآخر!».

فتعجب «**مالك**»، وكان الحكيم أكثر منه تعجّبًا، فسأل الأميرة: «وأين يقع هذا الكنز؟».

فضحكت وأجابته: «إنّه في أرض بركانيّة تقع في سفوح الجبال الجنوبيّة على مسافة فرسخين أو أكثر».

فقال الملك، إنني معجب جدًّا بالصّديق القرد وبوفائه وذكائه، كم يدهشني هذا المخلوق، وأضاف: «وهل يسمح لنا بجولة صغيرة في عالمه الماسي العجيب؟».

فاستغرقت الأميرة في الضّحك وقالت: «نحن جميعًا في ضيافته».

فعقّب: «هذا الكنز هو ملك خاص لكِ، وحدكِ من تمتلكين

الحق في الاحتفاظ به واستثماره كما تحبين، وسنقوم معًا بزيارة كنوز نولان، لنلقي نظرة عليها».

واستطرد: «إنّ العطلة قد بدأت من اليوم، وسنمضي وقتًا ممتعًا قبل عودتنا للتجوّل في هذا الوادي الخصيب للاستمتاع والمشاهدة».

ثمّ قال: «وبعد غد سنزور الماس بمعيّة الصّديق الكريم القرد الأشقر. .«**نولان**» الجميل».

ضرب الفرسان خيامهم على مسافة معقولة بعيدًا عن جوسق الأميرة، وأفردوا للملك والحكيم فسطاطين في ساحة الجوسق، وقضى الملك وقتًا ممتعًا يتأمّل أسراب الغزلان والطّيور، فكان جلوسه على ضفّة النّهر من أروع الأوقات بالنسبة له، حيث يستمتع بمنظر طيور التّم والإوز بلونها الأبيض الناصع، وطيور البط وأجنحتها وريشها الشّبيه بالدّيباج والقطيفة ذات الألوان المتعدّدة.

وبعد يومين من الاستراحة والاستجمام، أبكروا في صباح يوم مشمس، وبدأوا مشوارهم يتقدمهم القرد «**نولان**»، كان الملك يرتدي حلّة الصّيد الزّاهية، ويعتمر قلنسوة من فرو النّمور وعباءة مطرّزة بالقصب، بينما ارتدت الأميرة فستانًا من القز

الاسمانجوني، ووضعت على كتفيها عباءة عربيّة من القطيفة الزرقاء.

وانطلق الموكب في طريق مظلّلة بأغصان الدّردار والصّفصاف، بين ألوف من الطّيور المحلّقة، ومثلها من أسراب الحيوانات من كلّ نوع ولون. حتّى وصلوا إلى منطقة الصخور البركانيّة بعد ساعتين من السّير البطيء، فرأوا أمامهم الكثير من الوعول - ضأن الجبل- وقد استنفرت ونشطت وانطلقت تثب وتقفز وتتناطح لهوًا ولعبًا، فترجّلوا عن جيادهم، وكان «**نولان**» أسبقهم في اللّهو واللعب والبحث عن الحصوات البرّاقة.

وأوّل حصوة برّاقة عثر عليها قدّمها إلى الأميرة «**شمس**»، والملك يلهو ويمزح فشكرته قائلة: «ألَا تريد أن توطّد صداقتك مع جلالة الملك أيّها الصّديق «**نولان**»؟»، فراح ينظر إليها متتبعًا حركات شفتيها ليستوعب ما تتفوّه به، لكنّه عجز عن إدراك ما تقول لأنّها استعملت كلمتين جديدتين «**جلالة الملك**».

عاد «**نولان**» الذّكي يقفز بين الصّخور، يغرس أصابعه في شقوقها المغطاة بالتراب، إلى أن عثر على ماسة كبيرة الحجم زرقاء اللون، تترقرق زرقتها الصافية كأمواج البحر، فالتقطها

بأصابعه وتقدّم على استحياء إلى الملك وهو يغمغم بما لا يسمع ولا يفهم، وقدّمها له، فتلقّاها منه الملك شاكرًا وانطلق من بين شفتيه صفير كصفير القبره، من عظم إعجابه بها، وراح يقلّبها بين أصابعه وهو يردّد: «إنّها من أندر الماس، فالماس الأزرق الشفّاف نادر الوجود».

وعرضها على وزيره «**الصّاحب**» الذي أكّد على قوله بعد أن نظر إليها متفحّصًا، فهتف معجبًا: «يا لها من ماسة كريمة**!**».

وعثر الفرسان كلّ على نصيبه من الماس بأحجام مختلفة، وكذلك جمع «**ماهر**» خمس ماسات، لكن «**نولان**» فاقهم جميعًا بالبحث والتّنقيب، فعثر على خمس ماسات قدّمها للأميرة فأهدت منها ثلاثًا للملك واثنتين للحكيم «**الصّاحب**».

كان يومًا مختلفًا، مميّزًا، بريق المشاعر فيه يشبه بريق تلك الماسات الّتي جمعوها من بطن الوادي، ثمّ تناولوا طعامهم فوق الصّخور، وعندما همّوا بالعودة عصرًا، قال الملك لفرسانه: «فليحتفظ كلّ فارس منكم بنصيبه، وما عثر عليه من حصوات «**نولان**» البرّاقة»؛ فأحنوا رؤوسهم شاكرين، ونولان ينقل عينيه بين

الوجوه وابتسامة تملأ روحه ووجهه، لقد أصبح «**نولان**» منذ ذلك الحين صديقًا للجميع.

في طريق العودة قال الملك: «لا بدّ من استثمار هذا الكنز الثّمين، لأنّه لم يعد سرًّا بعد أن شاهده الفرسان الذين سيتحدّثون عنه بعد عودتهم».

فقالت الأميرة: «أمّا وقد كشفت أسرارًا فالأمر يعود إلى الملك، شرط الاحتفاظ بطبيعة الغابات، وعدم التعرّض للحيوانات والطّيور بالأذى»، فأومأ الملك موافقًا، قاطعًا وعده لها بما طلبت.

انتهت العطلة، وعاد الجميع من الطّريق الّتي قدموا منها، يتقدّمهم الملك «**مالك**»، عن يمينه «**شمس**»، وعن شماله الحكيم «**الصّاحب**».

ورافقهم «**نولان**» إلى حدود الوادي الأخضر، وهناك نزل عن أغصانه ووقف ينظر إلى الأميرة، فقد أصبح موقنًا الآن بأنّها راحلة، ترجّلت «**شمس**»، وأخذت يدي «**نولان**» في راحتيها وهو يغمغم وقالت: «الوداع أيّها الصّديق..» وامتلأت عيناها بالدّموع، ثمّ عادت إلى جوادها فامتطته وسار الموكب نحو «**ذات البهاء**».

كان نبأ عودة موكب الملك قد سبق وصولهم، فخرج سكان «**ذات البهاء**» للاستقبال الكبير. وعلم الناس أنّ الملك عثر على ابنة عمّه «**شمس**» فصعدت النساء إلى الأسوار لترقبن جمالها، بينما اصطفّت الحشود والكلّ يهتف مرحّبًا بالملك وابنة عمّه بطلة معركة الأسوار.

وكلما اقترب موكب الملك من الأسوار والباب الكبير، ازداد هتاف الجماهير، وارتفع هديرهم بالتحيّات والتّرحيب. وما إن أطلّ وجه الملك والأميرة «**شمس**» من مدخل الباب، حتّى ارتفع هتاف الناس نداءً بحياتهما، واستقبلا استقبالًا رائعًا من القادة والأعيان، وصدحت موسيقى الجند بالسّلام الملكي، وهتافات النساء تعلو على كلّ هتاف وهنّ ترحّبنَ بالأميرة البطلة، ويمطرن خطواتهما بالأزهار، حتّى غطّت الشارع وقامت مقام السجاد الأحمر الذي يفرش عادة تحت أقدام الملك، لكنّه لم يفرش في ذلك اليوم، لأنّ الاستقبال لم يكن رسميًّا، وعندما ترجّل الملك وعروس المستقبل القريب أمام درجات القصر التفت إليها قائلًا: «هل اقتنعتِ الآن يا ابنة العم أنّ الجميع يحتفظ بذكراك وصورتك في أعماق قلبه اعترافًا منه ببطولتك السّامية؟ فأرجو بعد هذا التّكريم والتّرحيب أن تطردي الأحزان من قلبك الكبير وأن

تستعدّي لحفلة الزّفاف»، احمرّ خدّاها وتورّدا خجلًا، وابتسمت ابتسامة شاكرة.

أفرد لها الملك جناحًا خاصًّا في القصر الملكي، حتّى مرّ أسبوع وكانت لحظة حلمهما، لحظة الزّفاف المرتقب، لحظة الفرح النّابضة الّتي أعادت الحياة والفرح إلى أرجاء «**ذات البهاء**».

وأصبحت الأميرة «**شمس**» ملكة «**أوسان**» بعد حفلة الزفاف، واهتمّ الملك بعد الاحتفال بالزّواج بوادي الكنوز، فأرسل بعثة من الخبراء لاستثمار الكنز الماسي، ومن البساتين لبناء قرية صغيرة للخبراء والعمال. ومعسكرًا للفرسان والشّرطة لحراسة الغابات والمنجم الماسي، وأصدر أمرًا بحظر الصّيد في الوادي الأخضر، الذي اعتبر حديقة عامّة لا يجوز فيها صيد الحيوانات والطّيور أو ذبحها، وقد طبقت كلّ هذه الإجراءات بحذافيرها.

ولم تنسَ الملكة «**شمس**» القرد الوفيّ «**نولان**»، الذي يحملُ في روحه كلّ المعاني والأخلاق والقيم الّتي يصدق عليها مسمّى الإنسانيّة، فكانت كلّما أطلّ الرّبيع، تتوجّه مع الملك إلى الوادي الأخضر لقضاء عطلتهما في ضيافة «**نولان**» القرد «**الأشقر**» الجميل، ففصل العطاء والخضرة والجمال لا يليقُ به إلّا أن يُقضى

في ضيافة من يشبهه روعةً وعطاءً، «**نولان**» صاحب القلب الرّبيعي المعتّق بالحبّ، الذي تزوّج بمباركة أمّه من القردة الجميلة «**ميها**» ذات الفراء الأبيض الثلجيّ، والعينين الواسعتين الجميلتين، وقد باتت تستقبل معه صديقته «**شمس**» وزوجها «**مالك**» كلّما حان الرّبيع ودبّت خطواتهما في الوادي.

أمّا «**ماهر الزبيدي**»، مرافق «**شمس**» المخلص، وحارسها الأمين، فقد ألحقه الملك قائدًا بفيلق الفرسان، ثمّ أصبح بعد ذلك من كبار رجال المملكة، وأخص المقربين من الملك «**مالك**» والملكة «**شمس**».

هكذا، سطعت شمسُ أوسان، وصارت «**ذات البهاء**» مشرقة دافئة، لا باتّساع السلطة وامتداد المساحة، بل باتّساع القلوب ودفئها، والتعاضد الذي جعل من المملكة روحًا واحدة لا تُمس.

وبقي السّور مضروبًا حولها حارسًا وحاميًا لأهلها الذين غرقوا في أمنهم وسعادتهم بما آلت إليه مملكتهم كافّة، و«**ذات البهاء**» خاصّة، فلم تعُدْ «**أوسان**» مملكة وحسب، إنّما هي عالمهم الّذي لا يرتضون سواه، بل إنّهم لا يعرفون سواه، ولا يدركون ما يمكنُ أن يختبئ دائمًا وراء الأسوار، ووراء الفرح المفرط حدّ

تخمة الحواس، والحواس إن أُتخِمتْ فقدت القدرة على التّحرّك والعمل...

نسي الأوسانيّون جراحاتهم، وصارت قصّة «**مالك**» و«**شمس**» هي ما تتناقله أفواههم وأسماعهم، جيلًا بعد جيل، لتكونَ مثالًا للحبّ الصّادق والوفاء والصّبر، وغفلوا عن أنّ الحبّ يحتاج إلى القوّة الّتي تحصّنه بقدر ما يحتاج إلى الصّدق الذي يخلّده، فنأوا عن تعلُّم فنون القتال الّتي كانت تستهويهم، وأعرضَوا عن الانضمام إلى صفوف الجيش بحجّة أنّ لا حاجة تدعو لوجوده، فالأمان هو أيقونة مملكتهم، والسّور كفيلٌ بتحصينها.

لم يعلموا أنّ هناك ثمّة أعين تراقبُ من بعيد حين يغمضون، ولم يفكّروا قط أنّ «**ترهاقا**» الذي رحل ذات يومٍ مهزومًا يجرّ أذيال الخسارة خلفه ما زالت أنفاسه تهرول في المكان، وما زالت عيناه ترى انعكاس «**أوسان**» على قرص القمر كلّما هجع الغافون، وما زالوا على حالهم.. لكن وحدها الأسوار قادرة على الوشاية ذات يوم، فأيّة وشاية تنتظرُ «**ذات البهاء**»!...

محمد حسين بَزّي في سطور ..

مواليد مدينة بنت جبيل، جنوب لبنان عام ١٩٧١م.

دكتوراه في الفلسّفة والتصوّف.

مؤلفاته:

صدر له ستة عشر كتابًا في السّياسة، والأدب، والفلسّفة، والتصوّف، وثلاثة دواوين شعرية.

منها :

- **الغزل والمُسلَّح** «ديوان شعر» ١٩٩٥م. (طبعتان)
- **شاهد بلا شهادة** - ٢٠٠٣م. (طبعتان)
- **أسرار من بغداد** - ٢٠٠٥م. (خمس طبعات)
- **الوعد الصادق** «يوميات الحرب السادسة» - ٢٠٠٦م. وصدر في طبعة ثانية عن الشروق الدولية في القاهرة. (ثلاث طبعات)
- «**الحداثة مشروع غير مُنجز**»، قراءة نقدية في نظرية هابرماس الفلسفية (بحث أكاديمي) ٢٠٠٧م.

- **روجيه غارودي في فلسفته النقدية**، (بحث أكاديمي) ٢٠٠٧م.

- **صدام حسين**.. الحقيقة المُغَيَّبَة - ٢٠٠٨م. (خمس طبعات)

- **فلسّفة الوجود عند السُّهروردي** - مقاربة في حكمة الإشراق- (رسالة ماجستير)، ٢٠٠٩م. (طبعتان)

- **الخديعة** - يوم اغتالت الفوضى الخلاقة رفيق الحريري- ٢٠١١م.

- **أغاني قونية** «ديوان شعر» بيروت - ٢٠١٥م.

- **مرايا الشمس** «ديوان شعر» بيروت - ٢٠١٥م. (تُرجم للإنكليزية والفرنسية والفارسية).

- **شمس** - أميرة عربية عاشقة- «رواية» - بيروت ٢٠١٧م.

- **الديوان العربي لمولانا** - جلال الدين الرومي- قيد الإعداد.

بالإضافة إلى روايتين، ومجموعة قصصية، وثلاثة دواوين شعرية أخرى في طريقهم للنشر.

يشغل الآن:

- مدير عام دار الأمير للثقافة والعلوم في بيروت.

- رئيس هيئة بنت جبيل الثقافية (هِبــــة).

عضو مشارك في:

- اتحاد الكتّاب اللبنانيين
- اتحاد الناشرين اللبنانيين
- الإتحاد العام للناشرين العرب
- تجمع شعراء بلا حدود.

شارك في عدة مؤتمرات دوليّة وعربيّة تُعنى بقضايا الفكر والأدب والفلسّفة والتصوّف، وعمليّة النهوض الحضاري.

كما شارك في عدة برامج حوارية، ولقاءات متلفزة عبر قنوات: الجزيرة - العربية - المنار - الكوثر - العالم - تلفزيون لبنان - إن بي إن - الكويت - الشارقة - عُمان، إي آر تي - وغيرها.

و إذاعات محليّة وعربيّة: إذاعة لبنان - النور - الرسالة - البشائر - الإمارات، صوت العرب - القاهرة، وغيرها.

نُشر له العديد من القصائد والمقالات الأدبيّة والسّياسيّة والفكريّة في الصحف والدوريات اللبنانيّة والعربيّة، منها: جريدة السفير، الأخبار، النهار، الانتقاد، اللواء، الوعي المعاصر، الوسط البحرينيّة، الخليج الإماراتيّة، الدستور المصريّة، الوقت البحرينيّة، النهار الأستراليّة، التليغراف الأستراليّة، وغيرها.

يُشرف «**محمد حسين بزي**» منذ سنوات على مشروع تعريب ونشر الآثار الكاملة للمفكر الراحل الدكتور علي شريعتي، حيث

حقّق العديد من مؤلفاته التي تصل إلى ستين كتابًا، وقد صدر منها حتى الآن ٣٠ كتابًا.

أسّس:

- معرض الأمير للكتاب، بنت جبيل - جنوب لبنان- (معرض سنوي، وقد أصبح في دورته السادسة عشر).

- مهرجان بنت جبيل الثقافي، (مهرجان سنوي انطلقت دورته الأولى بعد حرب تموز ٢٠٠٦م).

- مجلة «**شريعتي**» تصدر في بيروت باللغات الثلاث: العربيّة والانكليزيّة والفرنسيّة.

نال أكثر من ثلاثين شهادة تقدير دوليّة وعربيّة تقديراً لإسهاماته الثقافيّة والفكريّة، بالإضافة إلى عدة دروع تكريميّة وجوائز أدبيّة.

كما تُرجمت بعض أعماله وقصائده إلى اللغات: الإنكليزيّة الفرنسيّة والإيطاليّة والفارسيّة، ومؤخراً إلى التركيّة.

كُتبت عنه العديد من المقالات في الصحافة اللبنانيّة والعربيّة والأجنبيّة، بالإضافة إلى أطروحتين جامعيتين «ماجستير» في شعره - قيد الإعداد-.

الفهرس

كلمة ٥

الفصل الأول ١٣

الفصل الثاني ٣٣

الفصل الثالث ٦٣

الفصل الرابع ٨٥

الفصل الخامس ١٠٣

الفصل السادس ١٤٩

الفصل السابع ١٨٥

الفصل الثامن ٢١٥

الفصل التاسع ٢٣٥

الفصل العاشر ٢٥٥

الفصل الحادي عشر ٢٧٩

السيرة الذاتيّة ٢٩٩